العقيدة في ضوء الكتاب والسنة

٥

اليوم الآخر

١

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

القيامة الصغرى

وعلامات القيامة الكبرى

الطبعة السابعة

١٤١٨هـ ١٩٩٧م

دار النفائس

للنشر والتوزيع

الاردن ـ عمان ـ العبدلي ـ مقابل جوهرة القدس

هاتف : ٤٠ ٣٩ ٦٩ ـ فاكس : ٤١ ٣٩ ٦٩ ـ ص .ب : ٢١١٥١١

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة (٥)

اليوم الآخر

١

القيامة الصغرى

وعلامات القيامة الكبرى

تأليف

الدكتور عمر سليمان الأشقر

دار النفائس

للنشر والتوزيع - الأردن

٢٥٣ و ٢١٤
عمر

عمر سليمان الأشقر

اليوم الآخر : القيامة الصغرى . عمر سليمان الأشقر
ط ٣ . عمان : (د . ن) ١٩٩١
(٣٠٣) ص
ر . أ . ١٩٩٠/١٠/٧٠٤
١ ـ الإيمان باليوم الآخر أ ـ العنوان

تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية ـ عمان

مقدمة الكتاب

الحمد لله واهب الحياة وسالبها ، المقيم الأجساد بالأرواح وقابضها ، الذي خلقنا من تراب وإليه يُصَيِّرنا ، ومن التراب عندما يشاء يقيمنا ويبعثنا .

وأصلي وأسلم على المصطفى المختار الذي أطال الحديث عن الموت وشدته ، والقيامة وأهوالها وأحوالها ، والنار وعذابها ، والجنة ونعيمها ، فنبَّه العباد من غفلتهم ، وخلصهم من حيرتهم ، ووجههم الوجه الصحيحة .

وأصلي وأسلم على آله الأطهار وصحبه الأبرار ومن اتبعوهم بإحسان الذين سكنوا الدنيا بقلوب معلقة بالآخرة ، فكانوا لتلك الدار الباقية يعملون ، ولنيلها يبذلون ، ومازال هذا حالهم حتى لقوا ربهم ، فرضوان الله عليهم وبعد : فإننا جئنا الحياة بإرادة واهب الحياة ومبدعها ، ونمضي من الحياة عندما يريد واهب الأمانة سلبها وقبضها ، أقوام يأتون ، وآخرون يرحلون ، مثلهم في ذلك مثل أمواج البحر المتلاحقة كلما انكسرت على الشط موجة تبعتها أخرى ، ومثلهم كمثل النهر المتدفق ، تراه دائما يجري ، ولكن الماء الذي تراه أمامك الآن غير الماء الذي رأيته قبل لحظة من الزمان ، ومثلهم كمثل خمائل الزرع الدائمة الخضرة ، كلما يبس منها شيء نبت غيره ، ومثلهم كمثل لوحة مضاءة بمئات الألوف من الشموع ، تراها مضاءة دائما ، ولكننا عندما ننعم النظر فيها نعلم السر في ديمومة إضاءتها ، ذلك أن ما يحترق منها يخلفه غيره ، بل قد يضاء على صفحتها أكثر مما يحترق منها .

ولكن هذا الامتداد الإنساني المتلاحق سيتوقف يوما ، سيأتي اليوم الذي ينتهي فيه الوجود الإنساني كله ، بل سَيُدَمَّر فيه الكون كله ، فتنطفىء نجوم الليل جميعا ، وتتوقف أمواج البحر ، وييبس الزرع كله ، وتجف مياه الأنهار والعيون .

ولكن هذا الفناء ليس هو النهاية ، بل هو مرحلة في الأطوار التي يمر الانسان بها ، وسيأتي يوم نعود جميعا فيه إلى الحياة ، لنحاسب على ما قدمنا وعملنا .

إن الإيمان بالرجعة إلى الحياة ، ثم الخلود بعد ذلك ضروري لتقويم مسار الإنسان ، فالإنسان مركوز في أعماق نفسه حب الخلود والبقاء ، ولذا فإن إبليس أغرى آدم بالأكل من الشجرة المحرم عليه الأكل منها مدعياً أن الأكل منها يمنحه وزوجه الخلود ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ .

والكفر بالبعث والنشور يحدث شقوة للنفوس البشرية ، كما يحدث انحرافاً في مسيرة البشر في الحياة .

إن بعض الذين يرفضون فكرة الرجعة إلى الحياة يبدؤون بالنواح الحزين على حياتهم التي تتلاشى وتتناقص في كل لحظة تمضي ، وقد يسلمهم هذا إلى العزلة والألم حتى يوافيهم الموت ، وإن كانوا كتابا أو شعراء فإنهم يسجلون مشاعرهم الحزينة التي يندبون بها حياتهم في مقالات أو كتب أو أشعار تجسم شقوتهم وحيرتهم وألمهم ، لتكون سلوى لمن كان على مثل ما كانوا عليه ، ولكنها في الحقيقة داء يضاف إلى الداء ، فيزيد المريض مرضاً ، ولا يجلب له الشفاء . وبعض الذين يكفرون بالبعث والنشور يسارعون إلى اقتناص الملذات والشهوات كأنما هم في صراع مع الزمن يخشون أن تمضي أيامهم ولما يشبعوا من مباهج الحياة .

إن فترة وجودنا القصيرة في هذه الدنيا ذات قيمة كبيرة في مسارنا فيما بعد حياتنا هذه ، وإن طريق السعادة الأبدي الذي يوصل إلى الخلود في دار الخلود مرهون بتحقيقنا الرقي الحقيقي في أنفسنا وفي الآخرين ، وهذا الرقي الذي يُصَفِّي أرواحنا ، ويُقَوِّم أعمالنا ، ويهذب أخلاقنا ، له منهج أصيل واضح بين فيما جاءتنا به الرسل الكرام ، وما تضمنته الكتب السماوية .

ولما كان الارتباط بين حياتنا هذه وحياتنا الأخرى وثيقا ، إذ كانت هذه الحياة بمثابة الحرث والزرع ، وكانت تلك بمثابة الجنى والحصاد ، كان لابد للإنسان من أن يعلم عن حياته الآخرة ما يدعوه للاستعداد لها ، وإقامة حياته الدنيا على النمط الذي يحقق له في الآخرة خيرا وفضلا .

ولما كانت الحياة الأخرى غيب لا يستطيع أصحاب العقول الثاقبة ، والقلوب المبصرة اختراق حجبها فضلا عمن هم دونهم ، فإن الله تولى إخبارهم عن مسارهم في رحلتهم بعد الحياة ، وعن مصيرهم المحتوم ، ومزج الحديث عن الحياة الأخرى بالحديث عن هذه الحياة مزجا يجعلهما متداخلتين ، تحقيقا لاصلاح النفوس وتقويمها ، في عالم تدأب فيه مخلوقات كثيرة بشرية وجنيَّة على العمل لاضلال العباد وإبعادهم عن جادة الصواب .

والعلوم التي عرَّفنا الله بها عن اليوم الغائب المستور الذي سنلقاه فيه لا تصلح فيه الإشارات والرموز ، بل لابدَّ من حديث واضح مفصل ، يرى فيه الانسان ما يجعله يقف على اليقين ، فلا يخالطه ريب ، ولا ينازعه شك ، ومن طالع ما دوناه في كتابنا هذا عن اليوم الآخر فإنه سيرى الكم الهائل من نصوص الكتاب والسنة الصحيحة ، وهي نصوص تعطي صورة مفصلة لكثير من الأمور التي تكون بعد الموت وفي المعاد .

والمعاد غيب ، ولكنه غيب صادق ، ولا يكون كذلك إلا إذ صحت نسبة الخبر إلى الله أو إلى رسوله ﷺ ، ولذلك أعرضت في هذا المؤلف عن الأخبار التي لم يصح إسنادها إلى الرسول ﷺ ، كما أعرضت عن منهج الذين يرفضون الاحتجاج بما صح من الأحاديث إذا كانت آحاداً .

ورفضت أيضاً اتباع نهج المؤّولين المحرفين للنصوص ، أولئك الذين أقاموا من عقولهم حكما يقاضون إليه النصوص ، فقلبوا الميزان ، فأصبح الحاكم عندهم

محكوما ، فضلوا وأضلوا ، ووصل الحال ببعضهم إلى تكذيب كثير مما يجري في الآخرة مما صحت به الأخبار ، وعمدتهم في ذلك مقاييس عقلية ، لو دققوا النظر فيها لتبين لهم فسادها ، ولو تعمقوا في علوم الآخرة لبان لهم أن الآخرة غير الدنيا ، وإن مقاييس وموازين الآخرة مخالفة لما عليه الحال في الدنيا .

لقد طال البحث في بيان هذا الأصل الاعتقادي العظيم ، ولذا احتجنا إلى أن نقسمه إلى ثلاثة أقسام ، كل قسم منها يصدر في كتاب :

القسم الأول : موضوعه القيامة الصغرى وأشراط القيامة الكبرى .

القسم الثاني : القيامة الكبرى .

القسم الثالث : الجنة والنار .

وهذا هو الكتاب الأول ، وهو يتكون من بابين كما يدل عليه عنوانه ، الباب الأول يبحث في القيامة الصغرى ، ونعني بها الموت ، فهو في الموت وأهواله وسكراته ، والقبر وفتنته ، ونعيمه وعذابه ، ثم في الروح ومصيرها في البرزخ .

والباب الثاني في علامات الساعة ، وعلامات الساعة الدالة على قرب وقوعها كثيرة ، ومن هذه العلامات ما هو كبير ، ومنها ما هو صغير ، والعلامات الصغرى منه ما وقع ومضى ، ومنها ما لم يقع بعد ، والعلامات الكبرى لم تقع بعد ، وهذا الباب حديث عن ذلك كله .

وفي الختام أسأله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب ، وأن يجعله خالصا لوجهه ، وصلى الله عليه وسلم على عبده ورسوله محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

د ـ عمر سليمان الأشقر
الكويت في السادس من رمضان ١٤٠٦
١٩٨٦/٥/١٤

الباب الأول

القيامة الصغرى

الفصل الأول

تعريف وبيان

يطلق على المرحلة التي يمر بها الإنسان بعد هذه الحياة الدنيا عدة أسماء ، منها : القيامة الصغرى ، والبرزخ ، والموت .

وسنعرض لهذه الثلاثة بشيء من التفصيل فيما يأتي .

المبحث الأول

تعريف القيامة الصغرى

القيامة الصغرى هي الموت ، فكل من مات فقد قامت قيامته ، وحان حينه ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة قالت : كان رجال من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسألونه عن الساعة ، فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول : « إن يعش هذا ، لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم »(١) .

قال ابن كثير : « والمراد انخرام قرنهم ، ودخولهم في عالم الآخرة ، فإن كل من مات فقد دخل في حكم الآخرة ، وبعض الناس يقول : من مات فقد قامت قيامته ، وهذا الكلام بهذا المعنى صحيح »(٢) .

وقد أشار ابن كثير إلى أن هذا القول يقوله الفلاسفة ، ويريدون به معنى

---

(١) مشكاة المصابيح : (٣/٤٨) .

(٢) النهاية لابن كثير : (١/٢٤) .

فاسدا . فإن الملاحدة يريدون أن الموت هو القيامة ولا قيامة بعدها . يقول ابن كثير : « وقد يقول هذا بعض الملاحدة ، ويشيرون به إلى شيء آخر من الباطل ، فأمّا الساعة العظمى ، وهي وقت اجتماع الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فهذا ما استأثر الله بعلم وقته »(١) .

وتسمى القيامة الصغرى أيضا بالمعاد الأول ، كما تسمى بالبرزخ .

يقول ابن القيم : « الموت بعث ومعاد أول » ، فإن الله جعل لابن آدم معادين وبعثين يجزي فيهما الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى . فالبعث الأول : مفارقة الروح للبدن ، ومصيرها إلى دار الجزاء الأول »(٢) .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) الروح ، لابن القيم : ص ١٠٣ .

المبحث الثاني

البرزخ

البرزخ في كلام العرب الحاجز بين الشيئين، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾[1] ، أي حاجزا والبرزخ في الشريعة : الدار التي تعقب الموت إلى البعث . قال تعالى :﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[2] . قال مجاهد : هو مابين الموت والبعث ، وقيل للشعبي : مات فلان ، قال : ليس هو في دار الدنيا ، ولا في الآخرة[3] .

وقال ابن القيم : « عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه ، وهو ما بين الدنيا والآخرة، قال تعالى : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[4] وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة » .

---

(١) سورة الفرقان : ٥٣ .

(٢) سورة المؤمنون : ١٠٠ .

(٣) تذكرة القرطبي : ١٧٧ .

(٤) سورة المؤمنون : ١٠٠ .

المبحث الثالث

الموت

المطلب الأول

الموت في اللغة والاصطلاح

الحياة والموت متناقضان تناقض النور والظلام والبرودة والحرارة ، ولذا فإن معاجم اللغة العربية تُعرِّف كل واحد منهما بأنه نقيض الآخر ، ففي تعريف الحياة تقول : « الحياة نقيض الموت ، والحي من كلِّ شيء : نقيض الموت ، والجمع أحياء »(١) ، وفي تعريف الموت تقول : « الموت والمَوَتان ضد الحياة »(٢) ، وأصل الموت في لغة العرب : السكون ، وكل ما سكن فقد مات(٣) ، فتراهم يقولون : « ماتت النار موتا : إذا برد رمادها ، فلم يبق من الجمر شيء ، ومات الحر والبرد إذا باخ ، وماتت الريح : ركدت وسكنت ، وماتت الخمر : سكن غليانها ، والموت مالا روح فيه »(٤) .

وإذا كان السكون أصل الموت في لغتنا ، فإن الحركة أصل الحياة ، ففي لسان العرب : « الحي كل متكلم ناطق ، والحي من النبات ما كان طريا يهتز »(٥) ، والحياة الإنسانية تتحقق بنفخ الروح في جسد الجنين في رحم أمّه ، والموت « انقطاع تعلق الروح بالبدن ، ومفارقته وحيلولة بينهما ، وتبدل حال ، وانتقال من دار إلى دار »(٦) .

---

(١) لسان العرب ، لابن منظور : (١/ ٧٧٤) .
(٢) لسان العرب : (٣/٥٤٧) .
(٣) لسان العرب : (٣/٥٤٧) .
(٤) لسان العرب : (٣/٥٤٧) .
(٥) لسان العرب : (١/٧٧٣) .
(٦) التذكرة للقرطبي : ٤ .

المطلب الثاني

الوفاة الكبرى والوفاة الصغرى

النوم شبيه المـوت ، ولذلك يسميه علماؤنا بالوفاة الصغرى، فالنوم وفاة، والقيام من النوم بعث ونشور﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾(١) وفي النوم تقبض أرواح العباد ، ومن شاء الحق أن يمسك روحه في حال نومه أمسكها ، ومن شاء بقاءها ردها إلى الأجل الذي حدده الحق ، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾(٢) . « فقد أخبر الحق أنَّ كلا من النفسين الممسكة والمرسلة توفيتا وفاة النوم ، وأمّا التي توفيت وفاة الموت فتلك قسم ثالث ، وهي التي قدمها بقوله : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾(٣) . . . فإن الله ذكر توفيتين: توفى الموت ، وتوفى النوم ، وذكر إمساك المتوفاه ، وإرسال الأخرى .

ومعلوم أنه يمسك كل ميتة سواء ماتت في النوم أو قبل ذلك ، ويرسل من لم تمت ، وقوله : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾(٤) يتناول ما ماتت في اليقظة وما ماتت في النوم ، فلما ذكر التوفيتين ذكر أنه يمسكها في إحدى التوفيتين ويرسلها في الأخرى ، وهذا ظاهر اللفظ بلا تكلف »(٥) .

---

(١) سورة الأنعام : ٦٠ .

(٢) سورة الزمر : ٤٢ .

(٣) سورة الزمر : ٤٢ .

(٤) سورة الزمر : ٤٢ .

(٥) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٥/٤٥٢) .

المطلب الثالث

الموت حتم لازم

الموت حتم لازم لا مناص منه لكل حي من المخلوقات ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(١)، وقال : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾(٢) . وقال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾(٣) .

ولو نجا أحد من الموت لنجا منه خيرة الله من خلقه محمد ﷺ ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾(٤) ، وقد واسى الله رسوله بأن الموت سنته في خلقه ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾(٥) .

والموت حق على الإنس والجن ، ففي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لايموت ، والإنس والجن يموتون » .

---

(١) سورة القصص : ٨٨ .

(٢) سورة الرحمن : ٢٧ .

(٣) سورة آل عمران : ١٨٥ .

(٤) سورة الزمر : ٣٠ .

(٥) سورة الأنبياء : ٣٤ .

المطلب الرابع
للموت أجل محدد

للموت وقت يأتي فيه ، فلا يستطيع أحد أن يتجاوز الأجل الذي ضربه الله ، وقد قدر الله آجال العباد ، وجرى بذلك القلم في اللوح المحفوظ ، وكتبته الملائكة الكرام والمرء في بطن أمه ، فلا يتأخر المرء عما كتب له ولا يتقدم ، وكل إنسان مات أو قتل أو غرق أو سقط من طائرة أو سيارة أو احترق أو غير ذلك من الأسباب ، فإنه قد مات بأجله الذي قدره الله وأمضاه ، وقد دلت على ذلك نصوص كثيرة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾[1] ، وقال : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[2] .

وقال : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[3] وقال : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ﴾[4] ، وقال : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾[5] .

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن مسعود قال : قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ ، ورضي الله عنها : « اللهم أمتعني بزوجي رسول الله ، وبأبي أبي سفيان ، وبأخي معاوية » .

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٥ .

(٢) سورة النساء : ٧٧ .

(٣) سورة الأعراف : ٣٤ .

(٤) سورة الجمعة : ٨ .

(٥) سورة الواقعة : ٦٠ .

قال : فقال النبي ﷺ : « لقد سألت الله لآجل مضروبة ، وأيام معدودة ، وأرزاق مقسومة . لن يعجل شيء قبل أجله ، ولن يؤخر الله شيئا بعد أجله ، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب النار ، وعذاب في القبر كان خيرا وأفضل »[1] .

المطلب الخامس
وقت الموت مجهول لنا

لا علم للعباد بالوقت الذي يحضر فيه الموت ، وينزل بهم ، فإن علم ذلك لله وحده ، وهو واحد من مفاتح الغيب التي استأثر الله بعلمها ، قال تعالى : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[2]،وقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾[3] .

وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[4][5] وقد روى أحمد والترمذي وغيرهما عن جماعة من الصحابة قالوا : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها ـ أو قال : بها ـ حاجة » .

(١) رواه مسلم في كتاب القدر من صحيحه ، وأحمد في المسند : (١/ ٣٩٠ ، ٤١٣ ، ٤٤٥) .
(٢) سورة الأنعام : ٥٩ .
(٣) سورة لقمان : ٣٤ .
(٤) سورة لقمان : ٣٤ .
(٥) رواه البخاري في كتاب الاستسقاء وفي كتاب التفسير .

الفصل الثاني

الاحتضار

المبحث الأول

حضور ملائكة الموت

إذا حان الأجل وشارفت حياة الإنسان على المغيب أرسل الله رسل الموت لسل الروح المدبِّرة للجسد والمحركة له ، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[1] ، وملائكة الموت تأتي المؤمن في صورة حسنة جميلة ، وتأتي الكافر والمنافق في صورة مخيفة ، ففي حديث البراء بن عازب أن الرسول ﷺ قال : « إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء ، بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنّة ، وحنوط[2] من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدَّ بصره ، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام ، حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة (وفي رواية : المطمئنة) اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان . قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء ، فيأخذها . . .

---

(١) سورة الأنعام : ٦١ .

(٢) بفتح الحاء ، ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة .

وإن العبد الكافر (وفي رواية الفاجر) إذا كان في انقطاع من الآخرة، وإقبال من الدنيا ، نزل إليه من السماء ملائكة [غلاظ شداد] سود الوجوه ، معهم المسوح(١) [من النار] فيجلسون منه مدَّ البصر ، ثمَّ يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب . قال : فتفرق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السفود [الكثير الشعب] من الصوف المبلول ، [فتقطع معها العروق والعصب](٢) » .

وما يحدث للميت حال موته لا نشاهده ولا نراه ، وإن كنا نرى آثاره ، وقد حدثنا ربنا تبارك وتعالى عن حال المحتضر فقال : ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾(٣): والمتحدَّث عنه في الآية الروح عندما تبلغ الحلقوم في حال الاحتضار ، ومَنْ حوله ينظرون إلى ما يعانيه من سكرات الموت ، وإن كانوا لا يرون ملائكة الرحمن التي تسل روحه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾(٤) كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾(٥) .

---

(١) جمع المسح ، بكسر الميم ، هو ما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفا ، وقهرا للبدن .

(٢) جمع الشيخ ناصر الدين الألباني جميع روايات هذا الحديث ، وساقه سياقا واحدا ضاما إليه جميع الزوائد والفوائد التي وردت في جميع طرقه الثابتة في كتابه القيم : (أحكام الجنائز : ص ٥٩) ، وقد عزاه الشيخ إلى أبي داود (٢ / ٢٨١) والحاكم (١ / ٣٧-٤٠) والطيالسي (رقم ٧٥٣) وأحمد(٤ / ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦) والسياق له ، والآجري في الشريعة (٣٦٧ - ٣٧٠) وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، وأقره الذهبي ، وهو كما قالا ، وصححه ابن القيم في اعلام الموقعين (١ / ٢١٤) وتهذيب السنن (٤ / ٣٣٧) ، ونقل فيه تصحيحه عن أبي نعيم وغيره » .

(٣) سورة الواقعة : ٨٣ - ٨٥ .

(٤) سورة الواقعة : ٨٥ .

(٥) سورة الأنعام : ٦١ .

وقال في الآية الأخرى : ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾[1] والتي تبلغ التراقي هي الروح ، والتراقي جمع ترقوه وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق .

وقد صرح الحديث بأن ملك الموت يبشر المؤمن بالمغفرة من الله والرضوان ، ويبشر الكافر أو الفاجر بسخط الله وغضبه ، وهذا قد صرحت به نصوص كثيرة في كتاب الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾[2] .

وهذا التنزُّل - كما قال طائفة من أئمة التفسير منهم مجاهد والسدى - إنما يكون حالة الاحتضار[3] ، ولا شك أن الإنسان في حالة الاحتضار يكون في موقف صعب ، يخاف فيه من المستقبل الآتي ، كما يخاف على من خلَّف بعده ، فتأتي الملائكة لتؤمنه مما يخاف ويحزن ، وتُطَمْئِنُ قلبه ، وتقول له : لا تخف من المستقبل الآتي في البرزخ والآخرة ، ولا تحزن على ما خلفت من أهل وولد أو دَيْنٍ ، وتبشره بالبشرى العظيمة ، ﴿ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[4] ، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾[5] ، وما دام العبد قد تولى الله وحده ،

---

(١) سورة القيامة : ٢٦ - ٣٠ .

(٢) سورة فصلت : ٣٠ - ٣٢ .

(٣) تفسير ابن كثير : (٦/١٧٤) .

(٤) سورة فصلت : ٣٠ .

(٥) سورة فصلت : ٣٢ .

فإن الله يتولاه دائما ، وخاصة في المواقف الصعبة ، ومن أشقها هذا الموقف ، ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾[١].

أما الكفرة الفجرة فإن الملائكة تتنزل عليهم بنقيض ذلك ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[٢] ، وقد نزلت هذه الآية كما أخرج البخاري عن ابن عباس في فريق أسلم ولكنه لم يهاجر فأدركه الموت ، أو قتل في صفوف الأعداء[٣] ، فإن الملائكة تقرِّع هؤلاء في حال الاحتضار وتوبخهم ، وتبشرهم بالنار .

وقد حدثنا ربنا عن توفي الملائكة للكفرة في معركة بدر ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[٤] .

قال ابن كثير في تفسير الآيات : «**ولو ترى يا محمد حال توفي الملائكة أرواح** الكفار لرأيت أمرا عظيما فظيعا منكرا ، إذ يضربون وجوههم وأدبارهم ويقولون ذوقوا عذاب الحريق »[٥] .

وقد أشار المفسر المدقق العلامة ابن كثير إلى أن هذا وإن كان في وقعة بدر ، ولكنه عام في حق كل كافر ، ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر ، بل قال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ . . ﴾[٦] .

---

(١) سورة فصلت : ٣١ .

(٢) سورة النساء : ٩٧ .

(٣) تفسير ابن كثير : (٢/٣٦٩) .

(٤) سورة الأنفال : ٥٠ ـ ٥١ .

(٥) تفسير ابن كثير : (٣/٣٣٥) .

(٦) تفسير ابن كثير : (٣/٣٣٥) .

وهذا الذي قاله ابن كثير صحيح يدل عليه أكثر من آية في كتاب الله تعالى ، كقوله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الأعراف : ٣٧ .

(٢) سورة النحل : ٢٨ .

(٣) سورة محمد : ٢٥ ـ ٢٧ .

المبحث الثاني

سكرات الموت

للموت سكرات يلاقيها كل إنسان حين الاحتضار ، كما قال تعالى : ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[1] ، وسكرات الموت كرباته وغمراته ، قال الراغب في مفرداته : « السكر حالة تعرض بين المرء وعقله ، وأكثر ما تستعمل في الشراب المسكر ، ويطلق في الغضب والعشق والألم والنعاس والغشى الناشيء عن الألم وهو المراد هنا »[2] وقد عانى الرسول ﷺ من هذه السكرات ، ففي مرض موته صلوات الله وسلامه عليه كان بين يديه ركوة أو علبة فيهاماء، فجعل يدخل يده في الماء فيمسح بها وجهه ، ويقول : « لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات »[3] ، وتقول عائشة رضي الله عنها في مرض رسول الله ﷺ : « ما رأيت الوجع على أحد أشدَّ منه على رسول الله ﷺ »[4]وقد دخلت عائشة رضي الله عنها على أبيها أبي بكر رضي الله عنه في مرض موته ، فلما ثقل عليه ، تمثلت بقول الشاعر :

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى   إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

---

(١) سورة ق : ١٩ .

(٢) فتح الباري : (٣٦٢/١١) .

(٣) هذا الحديث أخرجه البخاري عن عائشة في كتاب الرقاق ، باب سكرات الموت ، فتح الباري : (٣٦١/١١) .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، انظر جامع الأصول : (٦٩/١١) .

فكشف عن وجهه ، وقال رضي الله عنه ، ليس كذلك ، ولكن قولي : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾[1][2]» .

ولا شك أن الكافر والفاجر يعانيان من الموت أكثر مما يعاني منه المؤمن ، فقد سقنا طرفا من حديث البراء بن عازب وفيه : أن روح الفاجر والكافر تفرق في جسده عندما يقول لها ملك الموت : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، وأنه ينتزعها كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبلول ، فتقطع معها العروق والعصب ، ووصف لنا القرآن الكريم الشدة التي يعاني منها الكفرة ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾[3] .

وهذا الذي وصفته الآية يحدث ـ كما يقول ابن كثير ـ إذا بشر ملائكة العذاب الكافر بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن ، فتتفرق روحه في جسده وتعصي وتأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾[4] ، وقد فسر ابن كثير بسط الملائكة أيديهم في قوله : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾[5] بالضرب ، ومعنى الآية هنا

---

(١) سورة ق : ١٩ .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا ، وقد قال ابن كثير في تفسيره (٦/ ٤٠١) بعد سياقه له : لهذا الأثر طرق كثيرة .

(٣) سورة الأنعام : ٩٣ .

(٤) سورة الأنعام : ٩٣ .

(٥) سورة الأنعام : ٩٣ .

كمعناها في قوله ﴿ لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ﴾[1] ، وقـوله : ﴿ وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ ﴾[2] وقد يُحدِّث العقلاء في حال الاحتضار عما يعانونه من شدة الموت وسكراته ، وممن حدَّث بهذا عمرو بن العاص ؛ فعندما حضرته الوفاة ، قال له ابنه : يا أبتاه ! إنك لتقول : يا ليتني ألقى رجلا عاقلا لبيبا عند نزول الموت حتى يصف لي ما يجد ، وأنت ذلك الرجل ، فصف لي ، فقال : يا بني ، والله كأن جنبي في تخت ، وكأني أتنفس من سمّ إبرة ، وكأن غصن شوك يجذب من قدمي إلى هامتي ، ثم أنشأ يقول :

ليتني كنت قبل ما قد بدالي   في تلال الجبال أرعى الوعولا[3]

الذي يخفف عنه سكرات الموت

أخبرنا الرسول ﷺ أن الشهيد الذي يسقط في المعركة تخفف عنه سكرات الموت ، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الشهيد لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم ألم القرصة » رواه الترمذي والنسائي والدارمي ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب[4] .

---

(١) سورة المائدة : ٢٨ .

(٢) سورة الممتحنة : ٢ .

(٣) التذكرة ، للقرطبي : ص ١٩ .

(٤) مشكاة المصابيح : (٢/٣٥٨) ورقم الحديث : (٣٨٣٦) ، وقال محقق المشكاة : إسناده حسن .

المبحث الثالث

تمني الإنسان الرجعة عند الاحتضار

إذا نزل الموت بالإنسان تمنى العودة إلى الدنيا ، فإن كان كافرا لعله يسلم ، وإن كان عاصيا فلعله يتوب ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾(1) ،والإيمان لا يقبل إذا حضر الموت ، والتوبة لا تنفع إذا غرغر العبد ، ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(2) ، وقد ساق الحافظ ابن كثير من الأحاديث ما يدل على أن الله يقبل توبة العبد إذا حضره الموت مالم يصل إلى درجة الغرغرة « إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر » رواه الترمذي وابن ماجة(3) ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب ، ولكن شرط التوبة الإخلاص والصدق ، وقد لايتمكن المرء من التوبة في تلك الأهوال ، فعلى المرء أن يسارع بالتوبة قبل حلول الأجل :

قدم لنفسك توبة مرجوة قبل الممات وقبل حبس الألسن
بادر بها غلق النفوس فإنها ذخر وغنم للمنيب المحسن

---

(1) سورة المؤمنون : ٩٩ ـ ١٠٠ .

(2) سورة النساء : (١٧ ـ ١٨) .

(3) تفسير ابن كثير : (٣/٢٢٤) .

المبحث الرابع

فرح المؤمن بلقاء ربه

إذا جاءت ملائكة الرحمن العبد المؤمن بالبشرى من الله ظهر عليه الفرح والسرور ، أما الكافر والفاجر فإنه يظهر عليه الضيق والحزن والتعب ، ومن ثمَّ فإن العبد المؤمن في حال الاحتضار يشتاق إلى لقاء الله ، والعبد الكافر أو الفاجر يكره لقاء الله تعالى ، فقد روى أنس بن مالك عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، قالت عائشة أو بعض أزواجه : إنا لنكره الموت ، قال : ليس كذلك ، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، فليس شيء أحب إليه مما أمامه ، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته ، فليس شيء أكره إليه مما أمامه ، فكره لقاء الله ، وكره الله لقاءه »[١] ولذلك فإن العبد الصالح يطالب حامليه بالإسراع به إلى القبر شوقا منه إلى النعيم ، بينما العبد الطالح ينادي بالويل من المصير الذاهب إليه، ففي صحيح البخاري وسنن النسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت صالحة قالت : قدموني ، وإن كانت غير صالحة قالت لأهلها ياويلها أين يذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلاّ الإنسان ، ولو سمع الإنسان لصعق »[٢] .

---

(١) رواه البخاري : كتاب الرقاق ، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، انظر فتح الباري (٣٥٧/١١) .

(٢) رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، قول الميت وهو على الجنازة : قدموني ، فتح الباري : (٣ /١٨٤) ، ورواه النسائي كتاب الجنائز ، باب السرعة في الجنازة : (٤١/٤) .

المبحث الخامس

حضور الشيطان عند الموت

إذا حضر الموت كان الشيطان حريصا على الإنسان حتى لا يفلت منه ، ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: « إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه ، حتى يحضره عند طعامه ، فإذا سقطت من أحدكم اللقمة ، فليمط ما كان بها من أذى ، ثم ليأكلها ، ولا يدعها للشيطان ، فإذا فرغ فليلعق أصابعه، فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة » ، وقد ذكر علماؤنا أن الشيطان يأتي الإنسان في تلك اللحظات الحرجة في صورة أبيه أو أمّه أو غيرهم ممن هو شفيق عليه ناصح له ، ويدعوه إلى اتباع اليهودية أو النصرانية أو غيرها من المبادئ المعارضة للإسلام ، فهناك يزيغ الله من كتبت له الشقاوة[1] ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾[2] وقد حدث عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل قال : حضرت وفاة أبي أحمد ، وبيدي خرقة لأشدَّ لحييه ، فكان يغرق ، ثم يفيق ، ويقول بيده : لا بعد ، لا بعد ، فعل هذا مرارا ، فقلت له : يا أبت أي شيء يبدو منك ؟ فقال : إن الشيطان قائم بحذائي عاض على أنامله ، يقول : يا أحمد فتني ، وأنا أقول : لابعد ، لابعد ، حتى أموت[3] .

---

(١) انظر تذكرة القرطبي : ٣٣ .

(٢) سورة آل عمران : ٨ .

(٣) تذكرة القرطبي : ٣٤ .

وقال القرطبي : سمعت شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر القرطبي ، يقول : حضرت أخا شيخنا أبي جعفر أحمد بن محمد القرطبي بقرطبة ، وقد احتضر ، فقيل له : قل لا إله إلا الله ، فكان يقول : لا لا ، فلما أفاق ، ذكرنا له ذلك ، فقال : أتاني شيطانان عن يميني وعن شمالي ، يقول أحدهما : مت يهوديا فإنه خير الأديان ، والآخر يقول : مت نصرانيا فإنه خير الأديان ، فكنت أقول لهما : لالا . . . »[1] .

ولكن هذا ليس لازما لكل أحد كما يقول ابن تيمية ، بل من الناس من تعرض عليه الأديان قبل موته ، ومنهم من لا تعرض عليه ، وقد وقع ذلك لأقوام ، وهذا كله من فتنة المحيا والممات التي أمرنا أن نستعيذ بها في صلاتنا[2] ، وقد ذكر الشيخ ابن تيمية أن الشيطان أحرص ما يكون على إغواء الإنسان وقت موته ، لأنه وقت الحاجة ، واستدل بالحديث الذي في الصحيح : « الأعمال بخواتيمها » ، وقال ﷺ : « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنّة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن العبد ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة ، فيدخلها » ، ولهذا روي : « أن الشيطان أشد ما يكون على ابن آدم حين الموت ، يقول لأعوانه : دونكم هذا فإنه إن فاتكم لن تظفروا به أبدا »[3] .

---

(١) التذكرة للقرطبي : ٣٤ .
(٢) مجموع الفتاوي : (٤/٢٥٥) .
(٣) مجموع الفتاوي : (٤/٢٥٦) .

المبحث السادس
أسباب سوء الخاتمة

بعض الذين يظهرون الإسلام ويعملون به يختم لهم والعياذ بالله بخاتمة سيئة ، وقد تبدو تلك الخاتمة من بعض من حضرهم الموت ، وقد تحدث صديق حسن خان عن سوء الخاتمة فقال : « وله أسباب يجب على المؤمن أن يحترز عنها »[1] ، ثم ذكر هذه الأسباب فقال :

١ ــ **منها الفساد في الاعتقاد** : وإن كان مع كمال الزهد والصلاح ، فإن كان له فساد في اعتقاده مع كونه قاطعاً به متيقناً له غير ظان أنه أخطأ فيه قد ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده من الاعتقادات الحقة مثل هذا الاعتقاد باطل لا أصل له إن لم يكن عنده فرق بين اعتقاد واعتقاد ، فيكون انكشاف بطلان بعض اعتقاداته سبباً لزوال بقية اعتقاداته ، فإن خروج روحه في هذه الحالة قبل أن يتدارك ويعود إلى أصل الإيمان يختم له بالسوء ويخرج من الدنيا بغير إيمان ، فيكون من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾[2] وقال في آية أخرى : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[3] .

فإن كل من اعتقد شيئاً على خلاف ماهو عليه إما نظراً برأيه وعقله أو أخذاً

---

(١) يقظة أولي الاعتبار : ٢١١ .
(٢) سورة الزمر : ٤٧ .
(٣) سورة الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٤ .

ممن هذا حاله فهو واقع في هذا الخطر ، ولا ينفعه الزهد والصلاح ، وإنما ينفعه الاعتقاد الصحيح المطابق لكتاب الله وسنة رسوله ، لأن العقائد الدينية لا يعتد بها إلا ما أخذت منهما .

٢ ــ **ومنها الإصرار على المعاصي** ، فإن من له إصرار عليها يحصل في قلبه إلفها ، وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره عند موته ، فإن كان ميله إلى الطاعات أكثر يكون أكثر ما يحضره عند الموت ذكر الطاعات ، وإن كان ميله إلى المعاصي أكثر يكون أكثر ما يحضره عند الموت ذكر المعاصي ، فربما يغلب عليه حين نزول الموت به قبل التوبة شهوة ومعصية من المعاصي فيتقيد قلبه بها وتصير حجابا بينه وبين ربه ، وسبباً لشقاوته في آخر حياته لقوله ﷺ : « المعاصي بريد الكفر » .

والذي لم يرتكب ذنباً أصلا ، أو ارتكب وتاب فهو بعيد عن هذا الخطر ، وأما الذي ارتكب ذنوباً كثيرة حتى كانت أكثر من طاعاته ولم يتب عنها . بل كان مصراً عليها ، فهذا الخطر في حقه عظيم جداً إذ قد يكون غلبة الإلف بها سبباً لأن يتمثل في قلبه صورتها ، ويقع منه ميل إليها وتقبض روحه عليها فيكون سبباً لسوء خاتمته .

ويعرف ذلك بمثال ، وهو أن الإنسان لاشك أنه يرى في منامه من لأحوال التي ألفها طول عمره ، حتى أن الذي قضى عمره في العلم يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء ، والذي قضى عمره في الخياطة يرى من الأحوال المتعلقة بالخياطة والخياط ، إذ لا يحضر في حال النوم إلا ما حصل له مناسبة مع قلبه لطول الألف.والموت وإن كان فوق النوم لكن سكراته وما يتقدمه من الغشى قريب من النوم ، فطول الإلف بالمعاصي يقتضي تذكرها عند الموت وعودها في القلب وتمثلها فيه وميل النفس إليها ، وإن قبض روحه في تلك الحالة يختم له بالسوء » .

قال الذهبي في الكبائر : « قال مجاهد : ما من ميت يموت إلا مُثِّل له جلساؤه الذين كان يجالسهم ، فاحتضر رجل ممن كان يلعب بالشطرنج ، فقيل له : قل : لا إله إلا الله . فقال : شاهك . ثم مات . فغلب على لسانه ما كان يعتاده حال حياته في اللعب ، فقال عوض كلمة التوحيد : شاهك .

وهذا كما جاء في إنسان آخر ممن كان يجالس شراب الخمر أنه حين حضره الموت ، فجاءه إنسان يلقنه الشهادة ، فقال له : اشرب واسقني . ثم مات ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم »[1] .

٣ ــ **ومنها العدول عن الاستقامة** :[2] فإن من كان مستقيما في ابتدائه ثم تغير عن حاله وخرج مما كان عليه في ابتدائه يكون سبباً لسوء خاتمته ، كإبليس الذي كان في ابتدائه رئيس الملائكة ومعلمهم وأشدهم اجتهاداً في العبادة، ثم لما أمر بالسجود لآدم أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وكبلعام بن باعور الذي آتاه الله آياته فانسلخ بإخلاده إلى الدنيا ، واتبع هواه وكان من الغاوين ، وكبرصيصا العابد الذي قال له الشيطان اكفر ، فلما كفر ، قال : إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ، فإن الشيطان أغراه على الكفر ، فلما كفر تبرأ منه مخافة أن يشاركه في العذاب ولم ينفعه ذلك ، كما قال تعالى :
﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3] .

٤ ــ **ومنها ضعف الإيمان** : فإن كان في إيمانه ضعف يضعف حب الله تعالى فيه ، ويقوى حب الدنيا في قلبه ، ويستولي عليه بحيث لا يبقى فيه موضع لحب الله

---

(١) الكبائر للذهبي : ص ٩١ .
(٢) يقظة أولي الاعتبار : ص ٢١٢ .
(٣) سورة الحشر : ١٧ .

تعالى ، إلا من حيث حديث النفس بحيث لا يظهر له أثره في مخالفة النفس ، ولا يؤثر في الكف عن المعاصي ، ولا في الحث على الطاعات ، فينهمك في الشهوات وارتكاب السيئات ، فتتراكم ظلمات الذنوب على القلب ، فلا تزال تطفي مافيه من نور الإيمان مع ضعفه ، فإذا جاءت سكرات الموت يزداد حب الله ضعفا في قلبه لما يرى أنه يفارق الدنيا ، وهي محبوبة له ، وحبها غالب عليه لايريد تركها ، ويتألم من فراقها ، ويرى ذلك منه الله تعالى ، فيخشى أن يحصل في باطنه بغضه تعالى بدل الحب ، وينقلب ذلك الحب الضعيف بغضا ، فإن خروج روحه في اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة يختم له بالسوء ويهلك هلاكاً مؤبداً .

والسبب المفضي إلى هذه الخاتمة حب الدنيا ، والركون إليها ، والفرح بها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى ، وهو الداء العضال الذي قد عم أكثر الخلق ، فإن من يغلب على قلبه عند الموت أمر من أمور الدنيا يتمثل ذلك الأمر في قلبه ، ويستغرقه ، حتى لا يبقى لغيره متسع ، فإن خرج روحه في تلك الحالة يكون رأس قلبه منكوساً إلى الدنيا ، ووجهه مصروفاً إليها ، ويحصل بينه وبين ربه حجاب .

حكى أن سليمان بن عبدالملك لما دخل المدينة حاجا قال : هل بها رجل أدرك عدة من الصحابة ؟ قالوا نعم ، أبو حازم ، فأرسل إليه، فلما أتاه قال: يا أبا حازم مالنا نكره الموت ؟ قال: إنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة ، فتكرهون الخروج من العمران إلى الخراب ، قال : صدقت ، ثم قال : ليت شعري مالنا عند الله تعالى ؟ قال : اعرض عملك على كتاب الله ، قال فأين أجده ؟ قال في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[1] .

(١) سورة الانفطار : ١٣ ـ ١٤ .

قال : فأين رحمة الله ؟ قال : رحمة الله قريب من المحسنين .

قال : يا ليت شعري كيف العرض على الله تعالى غداً ؟ قال أما المحسن فكالغائب الذي يقدم على أهله ، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه ، فبكى سليمان حتى علا صوته وأشتد بكاؤه ثم قال : أوصني ، قال إياك أن يراك الله تعالى حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك » .

ونقل صديق حسن خان عن الغزالي في «الاحياء» أن سوء الخاتمة على رتبتين : إحداهما أعظم من الأخرى ، **فأما الرتبة العظيمة الهائلة فهي أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك وإما الجحود** ، فتقبض الروح على تلك الحالة فتكون حجاباً بينه وبين الله تعالى أبدا ، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد .

والثانية : وهي دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا أو شهوة من شهواتها ، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره ، فمهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا ، فالأمر مخطر، لأن المرء يموت على ما عاش عليه ، وعند ذلك تعظم الحسرة إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة يمحو عَنِ القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت ، فإن كان إيمانه في القوة إلى حد مثقال أخرجه من النار في زمان أقرب ، وإن كان أقل من ذلك طال مكثه في النار ، ولكن لو لم يكن إلا مثقال حبة فلابد وأن يخرجه من النار ، ولو بعد آلاف السنين ، وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئا على خلاف ماهو به إما تقليداً وإما نظراً بالرأي والمعقول فهو في هذا الخطر ، والزهد والصلاح لا يكفي لدفع هذاالخطر ، بل لا ينجي منه إلا الاعتقاد الحق على وفق الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، والبُلْهُ بمعزل عن هذا الخطر[1] .

---

(١) يقظة أولي الاعتبار : ص ٢١٦ .

المبحث السابع
تخيير الأنبياء عند الموت

عندما يحضر الأنبياء الموت فإن الله يريهم مالهم عنده من الثواب الجزيل والأجر العظيم ، ثم يخيرون بين البقاء في الدنيا والانتقال إلى ذلك المقام الكريم ، ولاشك أن كل رسول يفضل النعيم المقيم ، وقد حدث هذا لرسولنا ﷺ ، خُيِّر فاختار ؛ ففي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقول وهو صحيح : « إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنّة ثم يخيّر ، فلما نزل به ورأسه على فخذي غشي عليه ساعة ، ثم أفاق ، فأشخص بصره إلى السقف ثم قال : اللهمَّ الرفيق الأعلى ، قلت : إذن لا يختارنا ، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا به ، قالت : « فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها النبي ﷺ قوله :اللهم في الرفيق الأعلى »[1] وجاء في إحدى رواياته[2] : « فسمعت النبي ﷺ في مرضه الذي مات فيه : وأخذته بُحَّةٌ يقول : ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[3] قالت فظننت أنه خيِّر يومئذ .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب من أحب لقاء الله ، فتح الباري : (١١/٣٥٧) ، وقد أخرجه أيضا مسلم في صحيحه ، ومالك في موطئه ، والترمذي في سننه ، وقد ساق روايات الحديث عن عائشة ابن الأثير في جامع الأصول : (١١/٦٧) .

(٢) وهي عند جميعهم .

(٣) سورة النساء : ٦٩ .

الفَصل الثالث

رحلة الرّوح إلى السماء نزعها

عن أبي هريرة عند مسلم قال : « إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان ـ يصعدانها » قال حماد[1] « فذكر من طيب ريحها ، وذكر المسك » قال : « ويقول أهل السماء : روح طيبة جاءت من قبل الأرض ، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه ، فينطلق به إلى ربه عز وجل ، ثم يقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل » .

قال : « وإن الكافر إذا خرجت روحه ـ قال حماد وذكر من نتنها ، وذكر لعنا ـ ويقول أهل السماء : روح خبيثة من قبل الأرض ، قال : فيقال : انطلقوا به آخر الأجل »[2] .

وقد ذكر الرسول ﷺ في حديث البراء التكريم الذي يكون لروح العبد الصالح بعد خروجها من جسده ، حيث تصلي ملائكة الله على تلك الروح الطيبة ، وتفتح لها أبواب السماء ، وتجعل في كفن من الجنة وحنوط من الجنّة ، وتخرج منها روائح طيبة عطرة تفوق رائحة المسك ، ثم تأخذها الملائكة في رحلة علويّة كريمة ، وتفتح لها أبواب السماء ، أما الروح الخبيثة ، فتلعنها ملائكة السماء

---

(١) أحد رواة حديث أبي هريرة عند مسلم .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت ، (٢٢٠٢/٤) حديث رقم : (٢٨٧٢) .

عند خروجها ، وتغلق أبواب السماء دونها ، ويدعو كل فريق من ملائكة الرحمن على باب ألا تعرج من قبلهم ، وتجعل تلك الروح الخبيثة في حنوط من النار وكفن من النار ، وتفوح منها الروائح الخبيثة التي تؤذي ملائكة الرحمن ، ويعرج بها إلى السماء فلا تفتح لها أبواب السماء ، فتلقى روحه من شاهق ، ففي حديث البراء بن عازب الذي يصف الرسول ﷺ فيه رحلة الإنسان من الموت إلى البرزخ قال : « حتى إذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل ملك في السماء ، وفتحت له أبواب السماء ، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن يعرج من قبلهم ، فإذا أخذها (يعني ملك الموت) لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط ، [فذلك قوله تعالى : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾](1) ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، قال : فيصعدون بها ، فلا يمرون - يعني - بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان ابن فلان - بأحسن أسمائه التي كان يسمونه بها في الدنيا ، حتى ينتهوا إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح لهم ، فيشيعه من كل سماء مقربوها ، إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين ، ﴿ وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾(2) ،فيكتب كتابه في عليين ، ثم يقال : أعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى . . » .

وتحدث الرسول ﷺ عن الروح الخبيثة التي نزعت من العبد الكافر أو الفاجر ، فقال عنها بعد نزعها : « [فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل

---

(1) سورة الأنعام : ٦١ .

(2) سورة المطففين : ١٩ - ٢١ .

ملك في السماء ، وتغلق أبواب السماء ، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ألا تعرج روحه من قبلهم] ، فيأخذها ، فإذا أخذها ، لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان ابن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا ، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا ، فيستفتح له ، فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾[1] ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين ، في الأرض السفلى [ثم يقول : أعيدوا عبدي إلى الأرض ، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى ، فتطرح روحه من السماء ، طرحا [حتى تقع في جسده] ، ثم قرأ : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[2] ، فتعاد روحه إلى جسده . »[3] .

وروى ابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « إن الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل صالحا ، قال : اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، وربّ غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقول : فلان ، فيقال : مرحبا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، ادخلي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير

---

(١) سورة الأعراف : ٤٠ .

(٢) سورة الحج : ٣١ .

(٣) حديث صحيح ، سبق تخريجه ص : ٢٠ .

غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله تبارك وتعالى[1] ، فإذا كان الرجل السوء : قال : اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمة ، وأبشري بحميم وغسّاق ، وآخر من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال ، من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقال : لا مرحبا بالنفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة ، فإنها لا تفتح لك أبواب ، فترسل من السماء ، ثم تصير إلى القبر . . . »[2] .

---

(١) ليس المراد أن السماء تحوي الله وتحصره ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، بل الله فوق سماواته بائن من خلقه ، وقد قال الحق في كرسيه ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ سورة البقرة : ٢٥٥ . وأخبر الرسول ﷺ أن السموات في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض ، والكرسي في العرش، كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ سورة طه : ٧١ وقوله : ﴿ فسيحوا في الأرض ﴾ سورة براءة : ٢ ليس المراد أنهم في جوف النخل ، وجوف الأرض ، بل معنى ذلك أنه تبارك وتعالى فوق السموات وعليها ، وهذا الحديث مثل قوله تبارك وتعالى : ﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض ﴾ سورةالملك /١٦ أي في العلو ، ومثل قول الرسول ﷺ للجارية « أين الله ؟ قالت : في السماء ، قال عليه السلام : أعتقها فإنها مؤمنة » والحديث رواه مسلم في صحيحه .

(٢) رواه ابن ماجة في سننه وقد صححه الشيخ ناصر في صحيح الجامع الصغير : (٢/ ـ ١٦٩) .

الفصل الرابع
القبر

المبحث الأول
هول القبر وفظاعته

روى هانىء مولى عثمان بن عفان ، قال : كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى ، حتى يبل لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي ، وتذكر القبر فتبكي ؟ فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشدُّ منه ، قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : ما رأيت منظرا قط إلّا القبر أفظع منه »[1] أخرجه الترمذي[2] ، ولما كان مابعد القبر أيسر منه لمن نجا فإن العبد المؤمن إذا رأى في قبره ما أعد الله له من نعيم يقول : « رب عجل قيام الساعة ، كيما أرجع إلى أهلي ومالي »[3] والعبد الكافر الفاجر إذا رأى ما أعدّ الله له من العذاب الشديد فإنه يقول

---

(١) أفظع : الفظيع : الشديد الشنيع .

(٢) رواه الترمذي ، وابن ماجه ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب ، انظر مشكاة المصابيح : (٤٨/١) وجامع الأصول : (١٦٤/١١) ، وقال الشيخ ناصر في تعليقه على المشكاة : « وسنده حسن » ، وانظر صحيح الجامع الصغير : (٨٥/٢) .

(٣) هذه قطعة من حديث البراء ، وقد سبق تخريجه في ص : ٢٠ .

على الرغم مما هو فيه من عذاب : « رب لا تقم الساعة »[1] ، لأن الآتي أشدُّ وأفظع .

ظلمة القبر

ماتت امرأة كانت تَقُمُّ المسجد في عهد الرسول ﷺ ، ففقدها الرسول ﷺ ، فأخبروه أنها ماتت من الليل ، ودفنوها ، وكرهوا إيقاظه ، فطلب من أصحابه أن يدلوه على قبرها ، فجاء إلى قبرها فصلى عليها ، ثمَّ قال : « إن هذه القبور مليئة ظلمة على أهلها ، وإن الله عز وجل منورها لهم بصلاتي عليهم » رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة والبيهقي وأحمد[2] .

---

(١) هذه قطعة من حديث البراء ، انظر تخريجه في ص ٢٠

(٢) أحكام الجنائز : ص ٨٧ .

المبحث الثاني
ضمة القبر

عندما يوضع الميت في القبر فإنه يضمه ضمة لا ينجو منها أحد كبيرا كان أو صغيرا، صالحا أو طالحا، فقد جاء في الأحاديث أن القبر ضم سعد بن معاذ، وهو الذي تحرك لموته العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفا من الملائكة، ففي سنن النسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: « هذا الذي تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفا من الملائكة، لقد ضم ضمة، ثمَّ فرج عنه »[1] وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عمر أيضا أن الرسول ﷺ قال: « إن للقبر ضغطة لو كان أحد ناجيا منها نجا سعد بن معاذ » رواه أحمد في مسنده[2] وفي مسندي الطبراني الكبير والأوسط عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن الرسول ﷺ قال: « لو نجا أحد من ضمة القبر، لنجا سعد بن معاد، ولقد ضمَّ ضمَّة، ثم روخي عنه »[3]. ومما يدل على أن ضمة القبر لازمة لكل إنسان أن الصبيان لا ينجون منها، ففي مسند الطبراني الكبير عن أبي أيوب الأنصاري بإسناد صحيح وهو في مسنده الأوسط، وفي الكامل لابن عدي عن أنس أن الرسول ﷺ قال: « لو أفلت أحد من ضمة القبر لنجا هذا الصبي »[4].

---

(١) رواه النسائي، في كتاب الجنائز، باب ضمة القبر وضغطته، (٤/١٠٠)، وقال الشيخ ناصر الدين الألباني في مشكاة المصابيح، (١/٤٩): وسنده صحيح على شرط مسلم.

(٢) قال الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع (٢/٢٣٦) إسناده صحيح.

(٣) قال في صحيح الجامع (٥/٧١) إسناد صحيح.

(٤) صحيح الجامع: (٥/٥٦).

المبحث الثالث
فتنة القبر

المطلب الأول
كيف تكون فتنته

إذا وضع العبد في قبره جاءته ملائكة على صورة منكرة، ففي سنن الترمذي « إذا قبر الميت ـ أو قال : أحدكم ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما : المنكر ، وللآخر : النكير ، فيقولان ، ماكنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : ماكان يقول ، هو عبدالله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله . . وإن كان منافقا قال : سمعت الناس يقولون قولا ، فقلت مثله ، لا أدري . . . »(١) .

وجاء في الحديث الذي يرويه البراء بن عازب عن الرسول ﷺ : « فيأتيه ملكان [شديدا الانتهار]فـ[ينتهرانه ، و] يجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن ، فذلك حين يقول الله عز وجل : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾(٢)، فيقول : ربي

---

(١) رواه الترمذي ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر ، (٣/٣٨٣) وقال الترمذي : حديث حسن غريب ، وقال محقق الكتاب الشيخ أحمد شاكر : لم يخرجه من أصحاب الكتب الستة سوى الترمذي ، وقد رمز له الشيخ ناصر الدين الألباني بالحسن في صحيح الجامع الصغير : (١/٢٥٩) ، وأورده في سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم (١٣٩١) .

(٢) سورة إبراهيم : ٢٧ .

الله ، وديني الإسلام ، ونبيي محمد ﷺ ، فينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي » وقال في العبد الكافر أو الفاجر : « ويأتيه ملكان [شديدا الانتهار ، فينتهرانه ، و] يجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه ، هاه لا أدري ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول هاه ، هاه لا أدري ، فيقولان : فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فلا يهتدي لاسمه ، فيقال : محمد ، فيقول : هاه ، هاه ، لا أدري ، [سمعت الناس يقولون ذاك ، قال : فيقولان : لا دريت] [ولا تلوت][1] فينادي منادي أن كذب عبدي][2] .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن العبد إذا وضع في قبره ، وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع نعالهم ، إذا انصرفوا : أتاه ملكان ، فيقعدانه ، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ، محمد ؟ فأمّا المؤمن ، فيقول : أشهد أنه عبدالله ورسوله . . . وأما الكافر أو المنافق ، وفي رواية : وأما الكافر والمنافق ـ فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس فيه ، فيقال : لا دريت ، ولا تليت . . . » رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي[3] .

ولم يكن الرسول ﷺ يعلم في أول الأمر أن هذه الأمة تفتن في قبورها ، ثم أوحى الله له بهذا العلم ، فقد حدَّث عروة بن الزبير عن خالته عائشة ، قالت : دخل عليَّ رسول ﷺ ، وعندي امرأة من اليهود ، وهي تقول : هل شعرت أنكم تفتنون في القبور ؟ قالت : فارتاع رسول الله ﷺ ، وقال : « إنَّما تفتن اليهود » ، قالت عائشة : فلبثنا ليالي ، ثم قال رسول الله ﷺ : « هل شعرت أنه أوحي إلى

---

(١) أي لا دريت ولا تبعت الناس بأن تقول شيئا يقولونه .
(٢) حديث صحيح ، وسبق تخريجه في ص ٢٠ .
(٣) جامع الأصول : (١١/١٧٣) .

تفتنون في القبور » قالت عائشة : فسمعت رسول الله ﷺ ، بعد : يستعيذ من عذاب القبر[1] .

المطلب الثاني
هل يفتن الكافر في قبره

دلت الأحاديث التي سقناها على أن الكفار يفتنون في قبورهم ، وقد خالف في ذلك الحكيم الترمذي وابن عبد البر والسيوطي[2] ، واحتج الحكيم الترمذي على عدم السؤال بأن الأمم الماضية إن رفضت الاستجابة لرسلها عوجلت بالعذاب ، بخلاف هذه الأمة ، فقد أمسك عنها العذاب ، وبعث الرسول ﷺ بالسيف ، فمن دخل في الإسلام مخافة القتل ، ثم نافق عذب في قبره ، وهذا الذي قاله فيه نظر ، فإن الله لم يهلك مكذبي الأمم بعد نزول التوراة[3] ، واحتج ابن عبدالبر بقوله عليه السلام في الحديث الصحيح : إن هذه الأمة تبتلى في قبورها ، ومنهم من يرويه . تسأل[4] ، والأحاديث الصحيحة ترد هذا الفهم ، وتدل على أن هذا ليس خاصا بالمؤمنين ، وليس خاصا بهذه الأمة .

وقد ذهب إلى أن السؤال عام عبدالحق الإشبيلي ، وابن القيم ، والقرطبي ، والسفاريني وغيرهم[5] .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر ، حديث رقم (٥٨٤) ، (١/ ٤١٠) .
(٢) لوامع الأنوار البهية : (٢/ ١٠) .
(٣) انظر لوامع الأنوار البهية للسفاريني : (٢/ ١٠) .
(٤) لوامع الأنوار البهية للسفاريني : (٢/ ١٠) ، وتذكرة القرطبي : (١٤٧) .
(٥) لوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢/ ١٠) ، وتذكرة القرطبي : (١٤٧) .

المطلب الثالث
هل يفتن غير المكلفين

الفتنة عامة لجميع المكلفين إلا النبيين فقد اختلف فيهم[1] ، وإلا الشهداء والمرابطين ونحوهم ممن جاءت النصوص دالة على نجاتهم من الفتنة كما سيأتي بيانه .

واختلف في غير المكلفين من الصبيان والمجانين ، فذهب جمع من العلماء إلى أنهم لا يفتنون منهم القاضي أبو يعلي وابن عقيل ، ووجهة نظر هؤلاء أن المحنة تكون لمن كلف ، أما من رفع عنه القلم فلا يدخل في المحنة ، إذ لا معنى لسؤاله عن شيء لم يكلف به .

وقال آخرون : بل يفتنون ، وهذا قول أبي الحكيم الهمداني ، وأبي الحسن ابن عبدوس ، ونقله عن أصحاب الشافعي ، وقد روى مالك وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ صلى على طفل ، فقال : « اللهُمّ قه عذاب القبر وفتنة القبر » ، وهذا القول موافق لقول من قال : إنهم يمتحنون في الآخرة ، وأنهم مكلفون يوم القيامة ، كما هو قول أكثر أهل العلم وأهل السنة من أهل الحديث والكلام ، وهو الذي ذكره أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة واختاره ، وهو مقتضى نصوص الإمام أحمد[2] .

---

(١) مجموع الفتاوي : (٢٥٧/٤) .

(٢) راجع مجموع الفتاوي ، لشيخ الإسلام ابن تيمية : (٢٥٧/٤ ، ٢٧٧) .

المبحث الرابع
عذاب القبر ونعيمه

المطلب الأول
أحاديث عذاب القبر ونعيمه متواترة

يقول شارح الطحاوية : « وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلا ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به ، ولا نتكلم في كيفيته ، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته ، لكونه لا عهد له به في هذه الدار ، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول بل إن الشرع قد يأتي بما تحار فيه العقول ، فإن عودة الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا ، بل تعاد إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا[1] » .

وقال في موضع آخر : « واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه ، قبر أولم يقبر ، أكلته السباع أو احترق حتى صار رمادا ونسف في الهواء ، أو صلب أو غرق في البحر ، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور، وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك ، فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير »[2] .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية : (٤٥٠) .
(٢) شرح العقيدة الطحاوية : (٤٥١) .

وأنكرت الملاحدة ومن تمذهب بمذهب الفلاسفة من الإسلاميين عذاب القبر ، وقالوا : ليس له حقيقة ، واحتجوا لذلك بأنهم يفتحون القبور فلا يرون شيئا مما أخبرت به النصوص(١) .

وأنكره أيضا الخوارج وبعض المعتزلة كضرار بن عمرو وبشر المريسى ، وخالفهم جميع أهل السنة ، وأكثر المعتزلة(٢) .

وهؤلاء كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وقد ظن هؤلاء أن أبصارهم يمكن أن ترى كل شيء ، وأن أسماعهم يمكن أن تسمع كل شيء ، ونحن اليوم نعلم من أسرار الكون ماكانت أسماعنا وأبصارنا عاجزة عن سماعه ورؤيته ، ومن آمن بالله صدَّق خبره .

وقد وردت إشارات في القرآن تدل على عذاب القبر ، وقد ترجم البخاري في كتاب الجنائز لعذاب القبر ، فقال : باب ما جاء في عذاب القبر ، وساق في الترجمة قوله تعالى : ﴿ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾(٣) ، وقوله تعالى : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾(٤) . وقوله تعالى : ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾(٥) .

والآية الأولى التي ساقها البخاري إنما هي في تعذيب الملائكة الكفار في حال الاحتضار كما سبق بيانه ، والآية الثانية تدل على أن هناك عذابين سيصيبان

---

(١) انظر تذكرة القرطبي : (١٢٥) .

(٢) فتح الباري : (٢٣٣/٣) .

(٣) سورة الأنعام : ٩٣ .

(٤) سورة التوبة : ١٠١ .

(٥) سورة غافر : ٤٥ .

المنافقين قبل عذاب يوم القيامة ، العذاب الأول ما يصيبهم الله به في الدنيا إمّا بعقاب من عنده وإما بأيدي المؤمنين ، والعذاب الثاني عذاب القبر ، قال الحسن البصري : « سنعذبهم مرتين : عذاب الدنيا ، وعذاب القبر »(١) ، وقال الطبري : «والأغلب أن إحدى المرتين عذاب القبر، والأخرى تحتمل أحد ما تقدم ذكره من الجوع أو السبي أو القتل والإذلال أو غير ذلك »(٢) .

والآية الثالثة حجّة واضحة لأهل السنة الذين أثبتوا عذاب القبر ، فإن الحق تبارك وتعالى قرر أن آل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشيا ، وهذا قبل يوم القيامة ، لأنه قال بعد ذلك : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾(٣) ، قال القرطبي : « الجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ ، وهو حجّة في تثبيت عذاب القبر »(٤) .

ومن الإشارات القرآنية الواضحة الدالة على فتنة القبر وعذابه قوله تبارك وتعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾(٥) ففي الحديث الذي يرويه البراء بن عازب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « إذا أقعد المؤمن في قبره أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾(٦) ، وفي رواية أخرى : وزاد ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾(٧) نزلت في عذاب القبر »(٨) .

(١) فتح الباري : (٣/٢٣٣) .
(٢) فتح الباري : (٣/٢٣٣) .
(٣) سورة غافر : ٤٦
(٤) فتح الباري : (١١/٢٣٣) .
(٥) سورة إبراهيم : ٢٧ .
(٦) سورة إبراهيم : ٢٧ .
(٧) سورة إبراهيم : ٢٧ .
(٨) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر ، فتح الباري : (٣/٢٣١) .

وقـد روت لنا السيدة عائشة رضي الله عنها « أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر ، فقالت لها :, أعاذك الله من عذاب القبر ، فسألت عائشة الرسول ﷺ عن عذاب القبر ، فقال : نعم ، عذاب القبر . قالت عائشة رضي الله عنها : فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى إلّا تعوذ من عذاب القبر » زاد غندر : « عذاب القبر حق » رواه البخاري(١) .

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : « دخلت عليَّ عجوزان من عُجُز يهود المدينة ، فقالتا : إن أهل القبور يعذبون في قبورهم ، قالت : فكذبتهما ، ولم أنعم(٢) أن أصدقهما ، فخرجتا ، ودخل رسول الله ﷺ ، فقلت له : يا رسول الله ! إن عجوزين من عجز يهود المدينة دخلتا عليَّ ، فزعمتا أن أهل القبور يعذبون في قبورهم ، فقال : « صدقتا ، إنهم يعذبون عذابا تسمعه البهائم » قالت : فما رأيته بعد في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر »(٣) .
ولعظم هذا الأمر وخطورته كان الرسول ﷺ يعلمه لأصحابه ، بل وخطب فيهم مرة به ، ففي صحيح البخاري عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها : قالت : « قام رسول الله ﷺ خطيباً فذكر فتنة القبر التي يفتن فيها المرء فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة » رواه البخاري(٤) والنسائي ، وزاد النسائي : « حالت بيني وبين أن أفهم كلام رسول الله ﷺ ، فلما سكنت ضجتهم ، قلت لرجل قريب مني : أي بارك الله لك ، ماذا قال رسول الله ﷺ آخر قوله ؟ قال : قد أوحى إلي : أنكم تفتنون في القبور قريبا من فتنة الدجال »(٥) .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر ، فتح الباري : (٣/٢٣١) .
(٢) (لم أنعم) أي لم تطب نفسي أن أصدقهما .
(٣) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر : (١/٤١١) .
(٤) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر ، فتح الباري : (٣/٢٣٢) .
(٥) رواه النسائي ، انظر جامع الأصول : (١١/١٧٠) .

سماع الرسول ﷺ أصوات المعذبين

وقد أعطى الله رسوله القدرة على سماع المعذبين في قبورهم ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : « بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار ، على بغلة له ، ونحن معه ، إذ حادت به[1] ، فكادت تلقيه ، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة ، فقال : من يعرف أصحاب هذه الأقبر ؟ فقال رجل : أنا ، قال : فمتى مات هؤلاء ؟ قال : ماتوا في الإشراك ، فقال : إن هذه الأمّة تبتلى في قبورها فلولا أن لا تدافنوا[2] ، لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه »[3] وفي صحيحي البخاري ومسلم وسنن النسائي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : « خرج رسول الله ﷺ بعدما غربت الشمس ، فسمع صوتا ، فقال : يهود تعذب في قبورها »[4] .

ويدل على سماع الرسول ﷺ للمعذبين في قبورهم الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم في صحيحهما عن ابن عباس وفيه أن الرسول ﷺ مرّ بقبرين ، فقال « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير . . . » الحديث ، وسيأتي ذكره بتمامه إن شاء الله .

---

(١) حادت به : أي مالت عن الطريق ونفرت .

(٢) لا تدافنوا : أي مخافة أن لا تدافنوا .

(٣) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ، (٢١٩٩/٤) .

(٤) جامع الأصول : (١٧٢/١١) .

سماع غير الرسول ﷺ أصوات المعذبين

لم يزل بعض الناس يتحدثون عن سماعهم أو رؤيتهم للمعذبين في قبورهم ، ومن هؤلاء ثقات أعلام لا مطعن في دينهم وأمانتهم ، يقول ابن تيمية في ذلك : « قد يكشف لكثير من أبناء زماننا يقظة ومناماً ، ويعلمون ذلك ويتحققونه ، وعندنا من ذلك أمور كثيرة »[(١)] .

وقال في موضع آخر في معرض رده على المكذبين بعذاب القبر : « وإذا عرف أن النائم يكون نائما وتقعد روحه وتقوم وتمشي ، وتذهب وتتكلم وتفعل أفعالا وأمورا بباطن بدنه مع روحه ، ويحصل لبدنه وروحه بها نعيم وعذاب ، مع أن جسده مضطجع ، وعينيه مغمضة ، وفمه مطبق ، وأعضاؤه ساكنة ، وقد يتحرك لقوة الحركة الداخلة ، وقد يقوم ويمشي ويتكلم ويصيح ، لقوة الأمر في باطنه ، كان هذا مما يعتبر به أمر الميت في قبره ، فإن روحه تقعد ، وتجلس ، وتسأل ، وتنعم، وتعذب، وتصيح وذلك متصل ببدنه، مع كونه مضطجعا في قبره، وقد يقوى ذلك حتى يظهر ذلك في بدنه ، وقد يرى خارجا من قبره ، والعذاب عليه ، وملائكة العذاب موكلة به ، فيتحرك بدنه ، ويمشي ويخرج من قبره ، وقد سمع غير واحد أصوات المعذبين في قبورهم ، وقد شوهد من يخرج من قبره وهو معذب ، ومن يقعد بدنه أيضا إذا قوي الأمر ، لكن ليس هذا لازما في حق كل ميت ، كما أن قعود بدن النائم لما يراه ، ليس لازما لكل نائم ؛ بل هو بحسب قوة الأمر[(٢)] » .

---

(١) مجموع الفتاوي : (٢٤/٣٧٦) .

(٢) مجموع الفتاوي : (٥/٥٢٥) .

المطلب الثاني

صفة نعيم القبر وعذابه

ذكر الرسول ﷺ في حديث البراء بن عازب أن الملائكة تسأل العبد المؤمن في قبره فيحسن الإجابة وعند ذاك « ينادي مناد في السماء : أن صدق عبدي ، فافرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنّة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة ، قال : فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مدّ بصره ، قال : ويأتيه [وفي رواية : يمثل له] رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرك ، [أبشر برضوان من الله ، وجنات فيها نعيم مقيم] هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له : [وأنت فبشرك بخير] من أنت ؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح [فوالله ما علمتك إلا كنت سريعا في طاعة الله ، بطيئا في معصية الله ، فجزاك الله خيرا] ، ثم يفتح له باب من الجنّة ، وباب من النار ، فيقال : هذا منزلك لو عصيت الله ، أبدلك الله به هذا ، فإذا رأى مافي الجنّة ، قال : رب عجل قيام الساعة ، كيما أرجع إلى أهلي ومالي ، [فيقال له اسكن] » .

وذكر صلوات الله عليه وسلامه أن العبد الكافر(١) أو الفاجر بعد أن يسيء الإجابة « ينادي منادي في السماء أن كذب ، فافرشوا له من النار ، وافتحوا له بابا إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه في قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه (وفي رواية : ويمثل له) رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول : [وأنت فبشرك الله بالشرّ] ، من أنت ؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر ،

---

(١) هذا اللفظ ومثله كثير في الأحاديث يرد على ابن عبدالبر والسيوطي والحكيم الترمذي ومن ذهب مذهبهم من القائلين بأن عذاب القبر لعصاة المؤمنين دون الكفار .

فيقول : أنا عملك الخبيث ، [فوالله ما علمتك إلا كنت بطيئا عن طاعة الله ، سريعا إلى معصية الله] ، [فجزاك الله شرّا ، ثم يقيض الله له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة ، لو ضرب بها جبل كان ترابا ، فيضربه حتى يصير بها ترابا ، ثم يعيده كما كان ، فيضربه ضربة أخرى ، فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين ، ثم يفتح له باب من النار ، ويمهد من فرش النار] ، فيقول : رب لا تقم الساعة »[1] .

وفي حديث أنس أن العبد المؤمن إذا أجاب الإجابة الصادقة في قبره ، « يقال له : انظر إلى مقعدك من النار ، أبدلك الله به مقعدا من الجنة ، قال النبي ﷺ : فيراهما جميعا ، قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره » وذكر في حديث أنس أن الكافر والمنافق بعد أن يجيب في قبره تلك الإجابة الكاذبة ، يقال له : « لا دريت ، ولا تليت ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين » أخرجه البخاري ومسلم ولفظ الحديث للبخاري ، ولمسلم : « إن العبد إذا وضع في قبره ، ثم ذكر نحوا مما تقدم إلى قوله : وذكر لنا : أنه يفسح فيه سبعين ذراعا ، ويملأ عليه خضرا إلى يوم تبعثون » ، وفي رواية لأبي داود أن العبد المؤمن بعد أن يسأل ويجيب ، « ينطلق به إلى بيت كان له في النار ، فيقال له : هذا كان لك ، ولكن الله عصمك ، فأبدلك به بيتا في الجنّة ، فيراه ، فيقول : دعوني حتى أذهب فأبشر أهلي ، فيقال له : اسكن »[2] .

وهذا الذي أشارت إليه الأحاديث من أنَّ كل إنسان يعرض عليه مقعده بعد أن يسأل في قبره مستمر طيلة بقائه في القبر ، وقد صرح بذلك الرسول ﷺ ، ففي

---

(١) حديث صحيح ، سبق تخريجه في ص ٢٠ .

(٢) انظر هذه الروايات في جامع الأصول : (١١/١٧٣) .

الحديث الذي يرويه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، « أن النبي ﷺ قال : إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنّة فمن أهل الجنّة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة »(١) .

وفي سنن الترمذي عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ أخبر أن الملكين يقولان للعبد المؤمن بعد أن يجيب الإجابة السديدة : « قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين ، ثم ينور له فيه ، ثم يقال له : نم ، فيقول : أرجع إلى أهلي فأخبرهم ، فيقولان : نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » . وأنهما يقولان للمنافق : « قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ، فيقال للأرض : التئمي عليه ، فتلتئم عليه ، فتختلف أضلاعه ، فلا يزال معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك »(٢) .

المطلب الثالث
هل يعذب المسلمون في قبورهم

قال القرطبي : « قال أبو محمد عبدالحق : اعلم أن عذاب القبر ليس مختصا بالكافرين ، ولا موقوفا على المنافقين ، بل يشاركهم فيه طائفة من المؤمنين ، وكل على حاله من عمله ، وما استوجبه من خطيئته وزلله »(٣) ، والأدلة على أن المؤمن قد يعذب في قبره بسبب ذنوبه كثيره ، وسيأتي ذكر طائفة منها في المبحث التالي .

(١) رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب الميت يعرض عليه مقعده في الغداة والعشى ، فتح الباري : (٢٤٣/٣) ، ورواه مسلم في كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار ، (٢١٩٩/٤) حديث رقم (٢٨٦٦) .

(٢) حديث حسن رواه الترمذي في سننه . كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر : (٣٨٣/٣) ، حديث رقم : (١٠٧١) .

(٣) تذكرة القرطبي : ١٤٦ .

المطلب الرابع
أسباب عذاب القبر

« الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور على قسمين : مجمل ومفصّل ، أمّا المجمل فأنهم يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم معاصيه »[1] .

أما المفصل فإن النصوص ذكرت منه الكثير ، وسنشير إلى ما اطلعنا على ذكره في الأحاديث :

١ ، ٢ ـ عدم الاستتار من البول والنميمة :

روى البخاريُّ ومسلم في صحيحهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « مرّ النبي ﷺ على قبرين ، فقال : إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، ثم قال : بلى ، أمّا أحدهما فكان يسعى بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله ، ثم قال : ثم أخذ عودا رطبا فكسره باثنتين ، ثم غرز كل واحد منهما على قبر ، ثمَّ قال : لعله يخفف عنهما ، مالم ييبسا »[2] .

وروى النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت : « دخلت عليَّ امرأة من اليهود ، فقالت : إن عذاب القبر من البول ، فقلت : كذبت ، فقالت : بلى ، إنا لنقرض منه الجلد والثوب ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة ، وقد ارتفعت أصواتنا ، فقال : ما هذا ؟ فأخبرته بما قالت فقال : صدقت . قالت : فما صلى

---

(١) لوامع الأنوار البهية : (١٧/٢) .

(٢) رواه البخاري واللفظ له في كتاب الجنائز ، باب عذاب القبر من الغيبة والبول ، فتح الباري : (٢٤٢/٣) ، ورواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الدليل على نجاسة البول ، (٢٤٠/١) ، حديث رقم (٢٩٢) ، ورواه النسائي : (١٠٦/٤) .

بعد يومئذ إلا قال دبر كل صلاة : ربّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل أعذني من حرّ النار وعذاب القبر »[1] .

وهذا الذي أشار إليه الحديث من أن بني إسرائيل كانوا يقرضون من البول الجلد والثوب ـ هو من الدين الذي شرعه الله لهم ، ولذلك لما نهاهم من نهاهم عن فعل ذلك عذب في قبره بسبب نهيه ، ففي حديث عبدالرحمن بن حسنة أن رسول الله ﷺ ، قال : « ألم تعلموا ما لقي صاحب بني إسرائيل ، كانوا إذا أصابهم البول قطعوا ما أصابه البول منهم ، فنهاهم عن ذلك ، فعذب في قبره »[2] .

وقد أخبر الرسول ﷺ أن عامة عذاب القبر من البول ، فقد روى أنس رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال : « تنزهوا من البول ، فإن عامة عذاب القبر منه » ، ورواه ابن عباس بلفظ « عامة عذاب القبر من البول فتنزهوا منه » ورواه أبو هريرة بلفظ « أكثر عذاب القبر من البول »[3] .

٣ ـ الغلول :

ومن الذنوب التي يعذب صاحبها في القبر الغلول ، وقد صح في ذلك أكثر من حديث ، فعن أبي هريرة ، قال : أهدى رجل لرسول الله ﷺ غلاما يقال له :

---

(١) رواه النسائي في سننه ، انظر جامع الأصول : (١١/١٦٧) .

(٢) عزاه في صحيح الجامع (١/٤١٦) إلى أبي داود والترمذي ، وابن ماجة وابن حبان والحاكم .

(٣) وقد خرجه الشيخ ناصر في « إرواء الغليل » ، وقال : صحيح ، وعزا رواية أنس إلى الدارقطني ورواية ابن عباس إلى الدار قطني والحاكم والبزار والطبراني ورواية أبي هريرة إلى ابن أبي شيبة وابن ماجة والآجري والحاكم وأحمد ، انظر إرواء الغليل : (١/٣١١) ، حديث رقم (٢٨٠) .

مِدْعم ، فبينما مدعم يحط رحلا لرسول الله ﷺ إذ أصابه سهم عائر[1] ، فقتله ، فقال الناس . هنيئا له الجنّة ، فقال الرسول ﷺ : « كلا ، والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم ، لتشتعل عليه نارا » ، فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بشراك أو شراكين إلى النبي ﷺ ، فقال : « شراك من نار أو شراكين من نار » متفق عليه[2] .

وعن عبدالله بن عمرو ، قال : كان على ثقل[3] النبي ﷺ رجل يقال له كركرة ، فمات ، فقال رسول الله ﷺ : «هو في النار» فذهبوا ينظرون فوجدوا عباءَة قد غلّها » رواه البخاري[4] .

٤ ـ ٧ ـ الكذب ، هجر القرآن ، الزنا ، الربا :

أرى الله رسوله ﷺ أنواعا مما يعذب به بعض العصاة ، ففي صحيح البخاري عن سمرة بن جندب قال : « كان النبي ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال : من رأى منكم الليلة رؤيا ؟قال : فإن رأى أحد قصها ، فيقول ما شاء الله » .

فسألنا يوماً فقال : هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ قلنا : لا قال : لكني رأيت الليلة رجلين أتياني ، فأخذا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة ، فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حديد ـ قال بعض أصحابنا عن موسى : كلوب من حديد يدخله في شدقه ـ حتى يبلغ قفاه ، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك ،

---

(١) عائر : لا يدري من رماه .

(٢) مشكاة المصابيح : (٢/٤٠١) .

(٣) الثقل : المتاع المحمول على الدابة .

(٤) مشكاة المصابيح : (٢/٤٠٢) .

ويلتئم شدقه هذا ، فيعود فيصنع مثله .

قلت : ماهذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ، ورجل قائم على رأسه بفهر أو صخرة ، فيشدخ به رأسه ، فإذا ضربه تدهده الحجر ، فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو ، فعاد إليه فضربه .

قلت : من هذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته نارا ، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا أن يخرجوا ، فإذا خمدت رجعوا فيها ، وفيها رجال ونساء عراة .

فقلت : من هذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم ، فيه رجل قائم ، على وسط النهر رجل بين يديه حجارة ـ قال يزيد ووهب بن جرير عن جرير بن حازم : وعلى شط النهر رجل ـ فأقبل الرجل الذي في النهر ، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فرده حيث كان ، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان .

فقلت : ماهذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة ، وفي أصلها شيخ وصبيان ، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها ، فصعدا بي في الشجرة وأدخلاني دارا لم أر قط أحسن منها ، فيها رجال شيوخ وشباب ونساء وصبيان ، ثم أخرجاني منها فصعدا بي الشجرة فأدخلاني داراً هي أحسن وأفضل ، فيها شيوخ وشباب .

قلت : طوفتماني الليلة فأخبراني عما رأيت . قالا : نعم . أما الذي رأيته يشق شدقه فكذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق ، فيصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة . والذي رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن ، فنام عنه

بالليل ولم يعمل فيه بالنهار ، يفعل به إلى يوم القيامة . والذي رأيته في الثقب فهم الزناة . والذي رأيته في النهر آكلوا الربا . والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام والصبيان حوله أولاد الناس . والذي يوقد النار مالك خازن النار . والدار الأولى التي دخلت دار عامة المؤمنين وأما هذه الدار فدار الشهداء . وأنا جبريل ، وهذا ميكائيل . فارفع رأسك . فرفعت رأسي فإذا فوقي مثل السحاب ، قالا : ذاك منزلك . قلت : دعاني أدخل منزلي . قالا : إنه بقي لك عمر لم تستكمله ، فلو استكملت أتيت منزلك »[(١)] .

حبس المدين في قبره بدينه

ومما يضر الميت في قبره ما عليه من دين ، فعن سعد بن الأطول رضي الله عنه : « أن أخاه مات وترك ثلاثمائة درهم ، وترك عيالا ، قال : فأردت أن أنفقها على عياله ، قال : فقال لي نبي الله ﷺ : « إن أخاك محبوس بدينه ، [فاذهب] فاقض عنه ، [فذهبت فقضيت عنه ، ثم جئت] ، قلت : يارسول الله ، قد قضيت عنه إلاّ دينارين ادعتهما امرأة ، وليست لها بَيِّنَه ، قال : أعطها فإنها محقة ، (وفي رواية صادقة)[(٢)] » .

فقد أخبر الرسول ﷺ أن ذلك الصحابي محبوس بسبب دينه ، ويمكن أن يُفَسِّر هذا الحبس الحديث الآخر حيث قال الرسول ﷺ : « إنه مأسور بدينه عن الجنة » ، ففي الحديث الذي يرويه سمرة بن جندب « أن النبي ﷺ صلى على

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز . فتح الباري : (٢٥١/٣) .

(٢) قال الشيخ ناصر الدين الألباني في أحكام الجنائز (ص : ١٥) : أخرجه ابن ماجة : (٨٢/٢) ، وأحمد : (١٣٦/٤ ، ٧/٥) ، والبيهقي : (١٤٢/١٠) ، وأحد إسناديه صحيح ، والآخر مثل إسناده عند ابن ماجة ، وصححه البوصيري في : (الزوائد) ، وسياق الحديث والرواية الثانية للبيهقي ، وهي والزيادات لأحمد في رواية .

جنازة،(وفي رواية صلى الصبح) ، فلما انصرف قال : أههنا من آل فلان أحد ؟ [فسكت القوم ، وكان إذا ابتدأهم بشيء سكتوا] ، فقال ذلك مرارا ، [ثلاث لا يجيبه أحد] ، [فقال رجل : هو ذا] ، قال : فقام رجل يجر إزاره من مؤخر الناس ، [فقال له النبي ﷺ : ما منعك في المرتين الأوليين أن تكون أجبتني ؟] أما إني لم أنوِّه باسمك إلا لخير ، إن فلانا ـ لرجل منهم ـ مأسور بدينه [عن الجنة ، فإن شئتم فافدوه ، وإن شئتم فأسلموه إلى عذاب الله] ، فلو رأيت أهله ومن يتحرَّون أمره قاموا فقضوا عنه ، [حتى ماأحد يطلبه بشيء] »(١) .

عذاب الميت ببكاء الحي

عندما طُعِن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل عليه صهيب يبكي ، يقول : واأخاه ، واصاحباه ، فقال عمر رضي الله عنه : يا صهيب أتبكي عليَّ وقد قال رسول الله ﷺ : « إن الميت يُعَذَّب ببعض بكاء أهله عليه »(٢) .

وقد أنكرت عائشة رضي الله عنها أن يكون الرسول ﷺ قد قال هذا الحديث ، ففي صحيح البخاري أن ابن عباس ذكر لعائشة ما قاله عمر بعد وفاته ، فقالت : رحم الله عمر ، والله ما حدَّث رسول الله ﷺ أن الله ليُعذب المؤمن ببكاء أهله عليه، ولكن رسول الله ﷺ قال : إن الله ليزيد الكافر عذابا

---

(١) قال الشيخ ناصر الدين الألباني في أحكام الجنائز (ص ١٥) : أخرجه أبو داود (٢/ ٨٤) ، والنسائي (٢/ ٢٣٣) ، والحاكم (٢/ ٢٥ ، ٢٦) ، والبيهقي (٦/ ٤/ ٧٦)والطيالسي في مسنده (رقم ٨٩١ ، ٨٩٢) وكذا أحمد (٥/ ١١ ، ١٣ ، ٢٠) بعضهم عن الشعبي عن سمرة ، وبعضهم أدخل بينهما سمعان بن مُشَنَّج ، وهو على الوجه الأول صحيح على شرط الشيخين ، كما قال الحاكم ووافقه الذهبي ، وعلى الوجه الثاني صحيح فقط ، وقد ذكر الشيخ هناك من أخرج الروايات والزيادات .

(٢) الحديث رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب قول النبي ﷺ : « يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه » فتح الباري : (٣/ ١٥١) ، ورواه مسلم أيضا ، انظر جامع الأصول : (١١/ ٩٢) .

ببكاء أهله عليه ، حسبكم القرآن ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[1][2] ، وقد أوّلت عائشة رضي الله عنها هذا الحديث أكثر من تأويل ، ورَدَ ذلك عنها في الصحاح والسنن[3] .

وهاهنا أمران : الأول هل قال الرسول ﷺ هذا الحديث ؟ قال القرطبي : « إنكار عائشة ذلك ، وحكمها على الراوي بالتخطئة أو النسيان أو على أنه سمع بعضا ، ولم يسمع بعضا بعيد ، لأن الرواة لهذا المعنى من الصحابة كثيرون ، وهم جازمون ، فلا وجه للنفي مع إمكان حمله على محمل صحيح »[4] .

الثاني : كيف يعذب ببكاء أهله عليه وليس ذلك من فعله ، والله يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[5] .

للعلماء في ذلك أجوبة أحسنها ما قاله البخاري في ترجمة الباب الذي وضع الحديث تحته ، قال رحمه الله تعالى : « باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض ما ينح عليه إذا كان النوح من سنته » لقول الله تعالى : ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾[6] ، وقال النبي ﷺ « كلكم راع ومسئول عن رعيته » ، فإذا لم يكن من سنته فهو كما قالت عائشة رضي الله عنها ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[7][8] وممن ذهب هذا المذهب الترمذي رحمه الله ، فإنه روى حديث عمر رضي الله عنه بلفظ

---

(١) سورة فاطر : ١٨ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، انظر فتح الباري : (١٥١/٣) .

(٣) إذا شئت الاطلاع على هذه التأويلات ارجع إلى فتح الباري : (١٥٢/٣) .

(٤) فتح الباري : (١٥٤/٣) .

(٥) سورة فاطر : ١٨ .

(٦) سورة التحريم : ٦ .

(٧) سورة فاطر : ١٨ .

(٨) انظر فتح الباري : (١٥٠/٣) .

« الميت يعذب ببكاء أهله عليه » ثم قال : « قال أبو عيسى (هو الترمذي) : حديث عمر حديث حسن صحيح ، وقد كره قوم من أهل العلم البكاء على الميت ، قالوا : الميت يعذب ببكاء أهله عليه ، وذهبوا إلى هذا الحديث ، وقال ابن المبارك : أرجو إن كان ينهاهم في حياته ، أن لا يكون عليه من ذلك شيء »(١) .

وهذا الفقه للحديث هو مذهب القرطبي رضي الله عنه ، فإنه قال: « قال بعض العلماء أو أكثرهم : إنما يعذب الميت ببكاء الحي إذا كان البكاء من سنة الميت واختياره ، كما قال :

إذا أنا مت فانعيني بما أنا أهله وشقي عليَّ الجيب يا ابنة معبد

وكذلك إذا وصى به(٢) .

وقد كان النواح ولطم الخدود وشق الجيوب من شأن أهل الجاهلية ، « وكانوا يوصون أهاليهم بالبكاء والنوح عليهم ، وإشاعة النعي في الأحياء ، وكان ذلك مشهورا من مذاهبهم ، وموجودا في أشعارهم كثيرا ، فالميت تلزمه العقوبة في ذلك لما تقدم إليهم في وقت حياته » كذا قال ابن الأثير(٣) .

وينبغي أن ينبه هنا إلى لفظ البخاري ، فقد جاء فيه : « يعذب ببعض بكاء أهله عليه » ، ولا يعذب بكل البكاء ، فالبكاء الذي تدمع فيه العين ، ولا شق ، ولا لطم ، ولا شق معه لا يؤاخذ صاحبه به ، وقد جاءت في ذلك نصوص كثيرة .

وقد تعرض العلامة ابن تيمية للمسألة وضعف مذهب البخاري والقرطبي وابن عبدالبر ومن سلك مسلكهم في فقه الأحاديث التي أخبرت أن الميت يعذب

---

(١) سنن الترمذي : (٣/٣٢٦) .

(٢) التذكرة ، للقرطبي : (١٠٢) .

(٣) جامع الأصول ، لابن الأثير : (١٠٢) .

ببكاء الحي ، فقد قال رحمه الله تعالى بعدأن ذكر النصوص الواردة في ذلك : « وقد أنكر ذلك طوائف من السلف والخلف ، واعتقدوا أن ذلك من باب تعذيب الإنسان بذنب غيره ، فهو مخالف لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[1] ، ثم تنوعت طرقهم في تلك الأحاديث الصحيحة .

فمنهم من غلَّط الرواة لها ، كعمر بن الخطاب وغيره ، وهذه طريقة عائشة والشافعي وغيرهما . ومنهم من حمل ذلك على ما إذا أوصى به فيعذب على إيصائه ، وهو قول طائفة ،كالمزني ، وغيره .

ومنهم من حمل ذلك على ماإذا كان عادتهم ، فيعذب على ترك النهي عن المنكر ، وهو اختيار طائفة منهم جدى أبو البركات ، وكل هذه الأقوال ضعيفة جداً[2] » وقد رد قول الذين ردوا هذه الأحاديث بنوع من التأويل ، فقال : « والأحاديث الصحيحة الصريحة التي يرويها مثل عمر بن الخطاب ، وابنه عبدالله ، وأبو موسى الأشعري وغيرهم ، لا ترد بمثل هذا ، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لها مثل هذا نظائر ، ترد الحديث بنوع من التأويل والاجتهاد لاعتقادها بطلان معناه ، ولا يكون الأمر كذلك ، ومن تدبر هذا الباب وجد هذا الحديث الصحيح الصريح الذي يرويه الثقة لا يرده أحد بمثل هذا إلا كان مخطئا[3] » .

ثم بين رحمه الله تعالى أن عائشة وقعت في مثل ما فرت منه ، قال : « وعائشة رضي الله عنها روت عن النبي ﷺ لفظين ـ وهي الصادقة فيما نقلته ـ فروت عن

---

(١) سورة فاطر : ١٨ .

(٢) مجموع الفتاوي (٢٤/ ٣٧٠) .

(٣) المصدر السابق : (٢٤/ ٣٧٠) .

النبي ﷺ قوله : « إن الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه » ، وهذا موافق لحديث عمر ، فإنه إذا جاز أن يزيده عذابا ببكاء أهله ، جاز أن يعذب غيره ابتداء ببكاء أهله ، ولهذا رد الشافعي في «مختلف الحديث» هذا الحديث نظراً إلى المعنى ، وقال الأشبه روايتها الأخرى : « إنهم يبكون عليه ، وإنه ليعذب في قبره »[1] .

ورد قول الذين ظنوا أن الحديث يفيد معاقبة الإنسان بذنب غيره ، فقال : « والذين أقروا هذا الحديث على مقتضاه ، ظن بعضهم أن هذا من باب عقوبة الإنسان بذنب غيره ، وأن الله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، واعتقد هؤلاء أن الإنسان يعاقب بذنب غيره ، فجوزوا أن يدخل أولاد الكفار النار بذنوب آبائهم »[2] وبعد أن أطال النفس في هذه المسألة : مسألة دخول أولاد الكفار النار بذنوب آبائهم ، وأن هذا ليس بصواب من القول، وأن الحق أن الله لا يعذب إلا من عصاه ، وأن الذين لم يبتلوا يمتحنون في عرصات القيامة ، قال : « وأما تعذيب الميت : فهو لم يقل : إن الميت يعاقب ببكاء أهله عليه ، بل قال : « يعذب » ، والعذاب أعمُّ من العقاب ، فإن العذاب هو الألم ، وليس كل من تألم بسبب كان ذلك عقابا له على ذلك السبب ، فإن النبي ﷺ قال : « السفر قطعة من العذاب ، يَمْنَعُ أحدكم طعامه وشرابه » ، فسمى السفر عذابا ، وليس هو عقابا .

والإنسان يعذب بالأمور المكروهة التي يشعر بها ، مثل الأصوات الهائلة ، والأرواح الخبيثة ، والصور القبيحة ، فهو يتعذب بسماع هذا وشمّ هذا ، ورؤية هذا، ولم يكن ذلك عملا له عوقب عليه ، فكيف ينكر أن يعذب الميت بالنياحة ، وإن لم تكن النياحة عملا له ، يعاقب عليه ؟

---

(١) مجموع الفتاوي : (٢٤/٣٧١) .

(٢) المصدر السابق .

والإنسان في قبره يعذب بكلام بعض الناس ، ويتألم برؤية بعضهم ، وبسماع كلامه ، ولهذا أفتى القاضي أبو يعلى بأن الموتى إذا عمل عندهم المعاصي فإنهم يتألمون بها ، كما جاءت بذلك الآثار ، فتعذبهم بعمل المعاصي عند قبورهم كتعذيبهم بنياحة من ينوح عليهم ، ثم النياحة سبب العذاب[1] » .

وهذا الفقه الذي صار إليه الشيخ العلامة جاءت بعض الأحاديث دالة عليه ، فعن النعمان بن بشير ، قال : « أغمى على عبدالله بن رواحة رضي الله عنه ، فجعلت أخته عمرة تبكي : واجبلاه ، واكذا ، واكذا ، تعدد عليه ، فقال حين أفاق : ما قلت شيئا إلا قيل لي ، أنت كذلك ؟! فلما مات لم تبك عليه »[2] ؛ بل إن هذا المعنى ورد صريحا في الحديث الذي يرويه أبو موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « ما من ميت يموت ، فيقوم باكيه ، فيقول : واجبلاه ! واسيِّداه ! أو نحو ذلك ، إلاّ وكل به ملكان يلهزانه : أهكذا كنت » رواه الترمذي . وقال هذا حديث حسن غريب[3] ، وقال الحافظ في التلخيص بعد سياقه لهذا الحديث : « ورواه الحاكم وصححه ، وشاهده في الصحيح عن النعمان بن بشير[4] » .

وينبغي أن ينبه هنا أنه ليس كل ميت يناح عليه يعذب بالنياح عليه ، فقد يندفع حكم السبب بما يعارضه ـ كما يقول ابن تيمية ـ كما يكون في بعض الناس من القوة ما يدفع ضرر الأصوات الهائلة ، والأرواح والصور الخبيثة . ثم ذكر أن أحاديث الوعيد يذكر فيها السبب ، وقد يتخلف موجبه لموانع تدفع ذلك ، إما بتوبة مقبولة ، وإما بحسنات ماحية ، وإما بمصائب مكفرة ، وإما بشفاعة شفيع

---

(١) مجموع الفتاوي : (٢٤/٣٧٤) .

(٢) رواه البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة مؤتة .

(٣) سنن الترمذي ، كتاب الجنائز ، باب ماجاء في كراهية البكاء على الميت ، (٣/٣٢٦) . حديث رقم : (١٠٠٣) .

(٤) تلخيص الحبير لابن حجر : ٢/١٤٠ ، حديث رقم (٨٠٦) .

مطاع ، وإما بفضل الله ورحمته ومغفرته . وبين في الختام أن ما يصيب الميت المؤمن من عذاب في قبره بما نيح عليه يكفر الله به عن سيئاته[1] .

المطلب الخامس
المنجيات من فتنة القبر وعذابه

الذي ينجي المرء من عذاب القبر أن يكون مستعدا للموت ، مشمّرا له ، حتى إذا فاجأه الموت لم يعض أصبع الندم ، ومن الاستعداد للموت الإسراع في التوبة ، وقضاء الحقوق ، والإكثار من الأعمال الصالحة ، فإن الإيمان والصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد وبر الوالدين وصلة الأرحام وذكر الله عز وجل وغيرها من صالح الأعمال تحفظ العبد المؤمن ، وبها يجعل الله له من كل ضيق فرجا ومن كل همٍّ مخرجا .

وقد حدثنا الرسول ﷺ أن الأعمال الصالحة تحرس الإنسان في قبره ، يقول ابن تيمية : « في الحديث المشهور حديث محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، رواه أبو حاتم في صحيحه ، وقد رواه الأئمة قال : «إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، فإن كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه ، وكان الصيام عن يمينه ، وكانت الزكاة عن يساره ، وكان فعل الخيرات من الصدق والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه ، فيؤتى من عند رأسه ، فتقول الصلاة : ما قبلي مدخل ، ثم يؤتى عن يمينه ، فيقول الصيام : ما قبلي مدخل ، ثم يؤتى عن يساره ، فتقول الزكاة : ما قبلي مدخل ، ثم يؤتى من قبل رجليه، فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى

---

(١) مجموع الفتاوي : (٤/٣٧٥) .

الناس : ما قبلي مدخل ، فيقال له : اجلس ، فيجلس ، قد مثلت له الشمس وقد دنت للغروب ، فيقال له : ماهذا الرجل الذي كان فيكم ، ما تقول فيه ؟ فيقول : دعوني ، حتى أصلي ، فيقولون : إنك ستفعل ، أخبرناعما نسألك عنه ، فقال : عمَّ تسألوني ؟ فيقولون : ما تقول في هذا الرجل الذي كان فيكم ، ما تشهد به ؟ فيقول : أشهد أنه رسول الله ، وأنّه جاء بالحق من عند الله ، فيقال على ذلك حييت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله تعالى، ثم يفتح له باب من أبواب الجنّة ، فيقال له : ذلك مقَعدك منها ، وما أعدَّ الله لك فيها ، فيزداد غبطة وسرورا ، ثمَّ يفتح له باب من أبواب النار ، فيقال : ذلك مقعدك منها ، وما أعدَّ الله لك فيها ، [لو عصيت الله] ، فيزداد غبطة وسرورا ؛ ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا ، وينور له فيه ، ويعاد جسده كما بدىء ، وتجعل نسمته في نسم الطيب ، وهي طير تعلق في شجر الجنة » .

وفي لفظ : « وهو طير يعلق في شجر الجنّة » قال أبو هريرة : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾[1]، وفي لفظ : « ثم يعاد الجسد إلى ما بدىء منه » .

الاستعاذة بالله من فتنة القبر وعذاب القبر

لما كانت فتنة القبر وعذاب القبر من الأهوال الكبار ، والشدائد العظيمة فإن الرسول ﷺ كان يستعيذ من ذلك في صلاته وفي غير الصلاة ، وكان يأمر أصحابه بذلك .

---

(١) سورة إبراهيم : ٢٧ .

ففي حديث عائشة التي ذكرت فيه أمر اليهودية التي قالت لها : أعاذك الله من عذاب القبر ، فسألت الرسول ﷺ عن عذاب القبر ؟ فقال : نعم ، عذاب القبر ، قالت فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلاّ تعوذ من عذاب القبر ، زاد غندر : « عذاب القبر حق »[1] .

وعن أنس أن الرسول ﷺ كان يدعو فيقول : « اللهمَّ إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل والهرم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات »[2] .

وعن عائشة أن الرسول ﷺ كان يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم والمأثم والمغرم ، ومن فتنة القبر ، وعذاب القبر . . »[3] .

وكان الرسول ﷺ يقول لأصحابه : « تعوذوا بالله من عذاب القبر » فيقولون : « نعوذ بالله من عذاب القبر »[4] .

وكان يقول لهم :« استجيروا بالله من عذاب القبر ، فإن عذاب القبر حق »[5] وكان يأمرهم أن يستعيذوا من أربع فيقول : « استعيذوا بالله من عذاب القبر ، استعيذوا بالله من جهنم ، استعيذوا بالله من فتنة المسيح الدجال ، استعيذوا بالله من فتنة المحيا والممات »[6]

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز ، والسياق له ، باب عذاب القبر ، فتح الباري : (٢٣٢/١٣) ورواه مسلم ، كتاب المساجد ، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر : (٤١٠/١) .

(٢) قال الشيخ ناصر في صحيح الجامع (٤٠٦/١) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم .

(٣) عزاه في صحيح الجامع (٤٠٧/١) إلى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة .

(٤) رواه مسلم ، كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه : (٢١٩٩/٤)

(٥) رواه الطبراني بإسناد صحيح ، انظر صحيح الجامع : (٣١٧/١)

(٦) عزاه في صحيح الجامع (٣٢٠/١) إلى الترمذي والنسائي .

وكان يأمرهم بالاستعاذة في الصلاة بعد التشهد من عذاب القبر ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع . يقول : اللهمَّ إني أعوذ بك من عذاب جهنّم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شرّ فتنة المسيح الدجال »[1] .

وعن ابن عباس أن الرسول كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن « اللهمَّ إنا نعوذ بك من عذاب جهنّم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات »[2] .

المطلب السادس
الذين يعصمون من فتنة القبر وعذابه

بعض المؤمنين من الذين قاموا بأعمال جليلة ، أو أصيبوا بمصائب كبيرة يأمنون فتنة القبر وعذابه ، فمن هؤلاء :

١ ــ **الشهيد** : فقد روى المقدام بن معدي كرب ، قال : قال رسول الله ﷺ : « للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له في أول دفعه ، ويرى مقعده في الجنّة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ؛ الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين من أقربائه » رواه الترمذي وابن ماجه[3] .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب المساجد ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ، (٤١٢/١) حديث رقم : (٥٨٨) .

(٢) رواه مسلم ، كتاب المساجد ، باب ما يستعاذ به في الصلاة : (٤١٢/١) ، حديث رقم (٥٩٠) .

(٣) مشكاة المصابيح : (٣٥٨/٢) ، وإسناده صحيح كما قال محقق المشكاة الشيخ ناصر الدين الألباني .

وروى النسائي في سننه عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رجلا قال : يا رسول الله ! ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد ؟ قال كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة »[1] .

٢ ـ **الذي مات مرابطا[2] في سبيل الله** ، فقد روى فضالة بن عبيد ، عن رسول الله ﷺ ، قال : « كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطا في سبيل الله ؟ فإنّه ينمي له عمله يوم القيامة ، ويأمن فتنة القبر » رواه الترمذي وأبو داود[3] .

٣ ـ **الذي يموت يوم الجمعة** ، ففي الحديث عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ ، قال : « ما من مسلم يموت يوم الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر » رواه أحمد والترمذي ، والحديث صحيح بمجموع طرقه أو حسن[4] .

٤ ـ **الذي يموت بداء البطن** ، وقد ثبت في حديث يرويه عبدالله بن يسار ، قال : « كنت جالسا وسليمان بن صرد وخالد بن عرفطه ، فذكروا أن رجلا توفي ؛ مات ببطنه ، فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهدا جنازته ، فقال أحدهما للآخر : ألم يقل رسول الله ﷺ : من يقتله بطنه فلن يعذب في قبره » ؟ فقال الآخر : بلى ، وفي رواية : صدقت[5] .

---

(١) وسنده صحيح ، انظر أحكام الجنائز للشيخ ناصر الدين الألباني : (٣٦) وصحيح الجامع : (١٦٤/٤) .

(٢) الرباط : هو الملازمة في سبيل الله مأخوذة من ربط الخيل، ثم سمى كل ملازم لثغرمن ثغور المسلمين مرابطا فارسا كان أو راجلا ، واللفظة مأخوذة من الرباط .

(٣) مشكاة المصابيح : (٣٥٥/٢) ، وإسناده صحيح كما قال محقق المشكاة .

(٤) رواه أحمد ، والترمذي ، والحديث بمجموع طرقه صحيح أوحسن ، أحكام الجنائز (٣٥) .

(٥) قال الشيخ ناصر في أحكام الجنائز : أخرجه النسائي : والترمذي وحسنه ، وابن حبان في صحيحه ، والطيالسي، وأحمد ، وسنده صحيح ، (أحكام الجنائز ص ٣٨) .

المَبحث الخامس

عِظَة الموت

المطلب الأول

الموت أعظم واعظ

سقنا إليك طرفا من النصوص التي تحدث عن الموت وسكراته ، والقبر وأهواله ، والعاقل من اعتبر ، فإن الموت أكبر واعظ ، وقد قيل لبعض الزهاد : ما أبلغ العظات ؟ قال : النظر إلى الأموات[1] ، وقد أحسن القرطبي في وصف الموت حيث يقول : « اعلم أن الموت هو الخطب الأفظع ، والأمر الأشنع ، والكأس الذي طعمها أكره وأبشع ، وأنه الأهذم للذات ، والأقطع للراحات ، والأجلب للكريهات ، فإن أمرا يقطع أوصالك ، ويفرق أعضاءك ، ويهدم أركانك ، لهو الأمر الفظيع ، والخطب الجسيم ، وإن يومه لهو اليوم العظيم »[2] .

المطلب الثاني

التفكر في الموت

كما أن الحياة آية من آيات الله فالموت كذلك آية أخرى تضاد الحياة ، ولكنها لا تقل عنها عجبا ، ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[3]

---

(١) التذكرة للقرطبي : ٩٩ .

(٢) التذكرة للقرطبي : ٢٤ .

(٣) سورة البقرة : ٢٨

والتفكر في هذه الآية تفكر في خلق من خلق الله وعجائبه الدال على عظيم قدرة الله ، وعجيب أمره ، يروى أن أعرابيا كان يسير على جمل له ، فخر ميتا ، فنزل الأعرابي عنه ، وجعل يطوف به ، ويتفكر فيه ، ويقول : مالك لا تقوم ؟ مالك لا تنبعث ؟

هذه أعضاؤك كاملة ، وجوارحك سالمة . ما شأنك ؟ ما الذي كان يحملك ؟ ما الذي كان يبعثك ؟ما الذي صرعك ؟ ما الذي عن الحركة منعك ؟

ثم انصرف متفكرا في شأنه ، متعجبا من أمره[1] .

وأُنْشِدَ في بعض الشجعان مات حتف أنفه[2] :

جاءته من قبل المنون إشارة   فهوى صريعا لليدين وللفم
ورمى بمحكم درعه وبرمحه   وامتد ملقى كالفتيق الأعظم
لا يستجيب لصارخ إن يدعه   أبدا ولا يرجى لخطب معظم
ذهبت بسالته ومرَّ مراره   لما رأى حبل المنية يرتمى
ياويحه من فارس ما باله   ذهبت مرارته ولما يُكْلَم
هذي يداه وهذه أعضاؤه   ما منه عضو غدا بمثلم
هيهات ما حبل الردى محتاجه   للمشرفي ولا اللسان اللهذم
هي ويحكم أمر الإله وحكمه   والله يقضي بالقضاء المحكم

---

(١) التذكرة للقرطبي : ص ٤

(٢) التذكرة للقرطبي : ص ٥

المطلب الثالث
نماذج من عظات الواعظين

وعظ الله رسوله بالموت فقال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[1] وفي الحديث الذي يرويه الطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم في مستدركه ، وغيرهم عن علي قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريل ، فقال : يا محمد ، عش ما شئت ، فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به ، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل ، وعزه استغناؤه عن الناس »[2] .

وقد سقنا كثيرا من النصوص التي وعظنا الله ورسوله فيها بالموت، وقد كان هذا دأب الصالحين يعظون أنفسهم بالموت ، ويعظون الناس به ، يقول علي ابن أبي طالب رضي الله عنه : « ارتحلت الدنيا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكل واحدة بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل » رواه البخاري في ترجمة باب : الأمل وطوله[3] .

ومن عظات العلماء ماجاء في تذكرة القرطبي : «تفكر يا مغرور في الموت وسكرته ، وصعوبة كأسه ومرارته ، فيا للموت من وعد ما أصدقه ، ومن حاكم ما أعدله ، كفى بالموت مفزعا للقلوب ، ومبكيا للعيون ، ومفرقا للجماعات ، وهادما للذات ، وقاطعا للأمنيات .

---

(١) سورة الزمر : ٣٠

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، (٢/٥٠٥) ، ورقم الحديث : (٨٣١)

(٣) مشكاة المصابيح : (٢/٦٥٩) ، ورقم الحديث (٥٢١٥) .

فهل تفكرت يا ابن آدم في يوم مصرعك ، وانتقالك من موضعك ، إذا نقلت من سعة إلى ضيق ، وخانك الصاحب والرفيق ، وهجرك الأخ والصديق ، وأخذت من فراشك وغطائك إلى غرر ، وغطوك من بعد لين لحافها بتراب ومدر ، فيا جامع المال ، والمجتهد في البنيان ، ليس لك من مالك والله إلا الأكفان ، بل هي للخراب والذهاب ، وجسمك للترائب والمئاب .

فأين الذي جمعته من المال ؟ فهل أنقذك من الأهوال ، كلا بل تركته لمن لا يحمدك ، وقدمت بأوزارك على من لا يعذرك »[1] .

ونقل القرطبي رحمه الله عن يزيد الرقاشي أنه كان يقول لنفسه : « ويحك يا يزيد من ذا يصلي عنك بعد الموت ؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت ، من ذا يرضي عنك ربك بعد الموت ؟

ثم يقول : « يأأيها الناس ، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم ؟ مَنْ القبر طالبه ، والقبر بيته ، والتراب فراشه ، والدود أنيسه ، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر ، كيف يكون حاله ؟ »[2] .

وقال القرطبي رحمه الله في موضع آخر : « مَثِّلْ نفسك يا مغرور وقد حلت بك السكرات ، ونزل بك الأنين والغمرات ، فمن قائل يقول : إن فلانا قد أوصى ، وماله قد أحصى ، ومن قائل يقول : إن فلانا ثقل لسانه ، فلا يعرف جيرانه ، ولا يكلم إخوانه ، فكأني أنظر إليك تسمع الخطاب ، ولا تقدر على رد الجواب . فَخَيِّلْ لنفسك ، يا ابن آدم إذا أخذت لفراشك إلى لوح مغسلك ، فغسلك الغاسل ، وألبست الأكفان ، وأوحش منك الأهل والجيران ، وبكت

---

(١) التذكرة : ص ٩

(٢) التذكرة : ص ٩

عليك الأصحاب والإخوان ، وقال الغاسل : أين زوجة فلان تحالله ، وأين اليتامى ترككم أبوكم فما ترونه بعد هذا اليوم أبدا ، وانشدوا :

ألا أيها المغرور مالك تلعب تؤمل آمالا وموتك أقرب
وتعلم أن الحرص بحر مبعد سفينته الدنيا فإياك تعطب
وتعلم أن الموت ينقض مسرعا عليك يقينا طعمه ليس يعذب
كأنك توصي واليتامى تراهم وأمهم الثكلى تنوح وتندب
تغص بحزن ثم تلطم وجهها يراها رجال بعدما هي تحجب
وأقبل بالأكفان نحوك قاصد ويحثى عليك الترب والعين تسكب[1]

ومن عظات الصحابي الجليل أبي الدرداء قوله : « أضحكني ثلاث ، وأبكاني ثلاث : أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل ليس بمغفول عنه ، وضاحك بملء فيه ، وهو لا يدري أأرضى الله أم أسخطه .

وأبكاني فراق الأحبة محمد ﷺ وحزبه ،وهول المطلع عند غمرات الموت ، والوقوف بين يدي الله ، يوم تبدو السريرة علانية ، ثم لا يدري إلى الجنة أو إلى النار »[2] .

وقال أبو الدرداء أو أبو ذر : « تلدون للموت ، وتعمرون للخراب ، وتحرصون على ما يفنى ، وتذرون ما يبقى »[3] .

وقال القرطبي في تذكرته واعظا ناصحا :

« يا هذا ، أين الذي جمعته من الأموال ، وأعددته للشدائد والأهوال ، لقد

---

(١) التذكرة : ص ٢١
(٢) التذكرة : ص ٨٧
(٣) كتاب الزهد والرقائق ، لابن المبارك : ص ٨٨

أصبحت كفك منه عند الموت خانية صفرا ، وبدلت بعد غناك وعزك ذلا وفقرا ، فكيف أصبحت يا رهين أوزاره ، ويا من سلب من أهله ودياره ؟

ما كان أخفى عليك سبيل الرشاد ، وأقل اهتمامك لحمل الزاد إلى سفرك البعيد ، وموقفك الصعب الشديد ، أوما علمت يا مغرور أن لابدَّ من الارتحال إلى يوم شديد الأهوال ، وليس ينفعك ثمَّ قيل ولا قال ، بل يعد عليك بين يدي الملك الديان ما بطشت اليدان ومشت القدمان ، ونطق به اللسان ، وعملت الجوارح والأركان ، فإن رحمك الله فإلى الجنة ، وإن كانت الأخرى فإلى النيران .

يا غافلا عن هذه الأحوال إلى كم هذه الغفلة والتوان ؟ أتحسب أن الأمر صغيرا ، وتزعم أن الخطب يسيرا ؟ وتظن أن سينفعك حالك إذا آن ارتحالك ، أو ينقذك مالك حين توبقك أعمالك ، أو يغني عنك ندمك إذا زلت بك قدمك ، أو يعطف عليك معشرك حين يضمك محشرك ، كلا والله ساء ما تتوهم ، ولابدَّ أن ستعلم لا بالكفاف تقنع ، ولا من الحرام تشبع ولا للعظات تسمع ، ولا بالوعيد ترتدع ، دأبك أن تتقلب مع الأهواء ، وتخبط خبط العشواء ، يعجبك التكاثر بما لديك ، ولا تذكر ما بين يديك . يا نائما في غفلة ، وفي خبطة يقظان ، إلى كم هذه الغفلة والتوان ، أتزعم أن ستترك سدى ، وأن لا تحاسب غدا ، أم تحسب أن الموت يقبل الرشا ؟ أم تميز بين الأسد والرشا ؟

كلا والله ، لن يدفع عنك الموت مال ولا بنون ، ولا ينفع أهل القبول إلا العمل المبرور ، فطوبى لمن سمع ووعى ، وحقق ما ادعى ، ونهى النفس عن الهوى ، وعلم أن الفائز من ارعوى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، فانتبه من هذه الرقدة ، واجعل العمل الصالح لك عدة ، ولا تتمنَّ منازل الأبرار وأنت مقيم على الأوزار ، عامل بعمل الفجار ، وراقب الله في الخلوات ، ولا يغرنك الأمل ، فتزهد عن العمل . . وأنشدوا :

تـزود من معاشـك للمعـاد وقـم لله واعمـل خيـر زاد
ولا تجمع من الدنيـا كثيرا فـإن المـال يجمـع للنفـاد
أترضـى أن تكـون رفيق قـوم لهـم زاد وأنـت بغيـر زاد

وقال آخر :

إذا أنـت لـم ترحل بزاد من التقـى ولاقيـت بعد المـوت من قد تـزودا
ندمـت على أن لا تكـون مثلـه وأنـك لم ترصـد كما كـان أرصدا[1]

المطلب الرابع

نماذج من عظات الشعراء

وقد أكثر الشعراء من ذكر الموت والوعظ به فمن ذلك قول الشاعر :

لا شـيء مما تـرى تبقـى بشاشـته يبقـى الإلـه ويفنى المـال والولـد
لم تغـن عن هرمـز يومـا خزائنـه والخلـد قد حاولـت عـاد فمـا خلدوا
ولا سـليمان إذ تجـري الريـاح له والإنـس والجـن فيمـا بينها تـرد
أين الملـوك التي كانـت لعزتـها من كـل أوب إليهـا وافـد يفـد
حـوض هنالـك مـورود بلا كـذب لابـد من ورده يومـا كمـا وردوا

وقال الآخر :

مشـيناها خطـا كتبـت علينا ومـن كتبـت عليـه خطا مشـاها
وأرزاق لنـا متفـرقـات فمـن لم تأتـه منـا أتاهـا
ومن كتبـت منيتـه بـأرض فليـس يمـوت في أرض سـواهـا

---

(١) تذكرة القرطبي : ٩١ .

وقال آخر :

وإذا وليت قوما ليلة فاعلم بأنك بعدها مسئول
وإذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول

وقال آخر :

تزود من الدنيا فإنك لا تدري إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من عروس زينوها لزوجها وقد أخذت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صغار يرجى طول عمرهم وقد أدخلت أرواحهم ظلمة القبر
وكم من سليم مات من غير علة وكم من سقيم عاش حينا من الدهر
وكم من فتى يمسي ويصبح لاهيا وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
وكم من ساكن عند الصباح بقصره وعند المسا قد كان من ساكن القبر
فكن مخلصا واعمل الخير دائما لعلك تحظى بالمثوبة والأجر
وداوم على تقوى الإله فإنها أمان من الأهوال في موقف الحشر

وقال الآخر :

هب الدنيا تساق إليك عفوا أليس مصير ذاك إلى انتقال
وما دنياك إلا مثل فيء أظلك ثم آذن بالزوال

وقال آخر :

يا مقيما قد حان منه رحيل بعد ذاك الرحيل يوم عصيب
إن للموت سكرة فارتقبها لا يداويك إن أتتك طبيب
كم تواني حتى تصير رهينا ثم تأتيك دعوة فتجيب
وتذكر يوما تحاسب فيه إن من يذكر الممات ينيب
ليس من ساعة من الدهر إلا للمنايا عليك رقيب
كل يوم ترميك بسهم إن تخطى يوما فسوف تصيب

وقال آخر :

الموت في كل يوم ينشر الكفنا ... ونحن في غفلة عما يراد بنا
لا تطمئن إلى الدنيا وبهجتها ... وإن توشحت من أثوابها الحسنا
أين الأحبة والجيران ما فعلوا ... أين الذين هموا كانوا لنا سكنا
سقاهم الموت كأسا غير صافية ... فصيرتهم لأطباق الثرى رهنا

وقال آخر :

قدم لنفسك توبة مرجوة ... قبل الممات وقبل حبس الألسن
بادر بها غلق النفوس فإنها ... ذخر وغنم للمنيب المحسن

المطلب الخامس
أثر تذكر الموت في إصلاح النفوس

إن لتذكر الموت أثر كبير في إصلاح النفوس وتهذيبها ، ذلك أن النفوس تؤثر الدنيا وملذاتها ، وتطمع في البقاء المديد في هذه الحياة ، وقد تهفو إلى الذنوب والمعاصي ، وقد تقصر في الطاعات ، فإذا كان الموت دائما على بال العبد ، فإنه يصغر الدنيا في عينه ، ويجعله يسعى في إصلاح نفسه وتقويم المعوج من أمره، فقد روى البيهقي في شعب الإيمان ، وابن حبّان في صحيحه والبزار في مسنده بإسناد حسن عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا ذكر هاذم اللذات : الموت ، فإنه لم يذكره في ضيق من العيش إلا وسعه عليه ، ولا ذكره في سعة إلا ضيقها »[1] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (١/٣٨٨) ، ورقم الحديث : (١٢٢٢)

ويذكر ابن المبارك أن صالحا المرى كان يقول: «إن ذكر الموت إذا فارقني ساعة فسد على قلبي »[1] .

وقال الدقاق : « من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة : تعجيل التوبة ، وقناعة القلب ، ونشاط العبادة ، ومن نسى الموت عوجل بثلاثة : تسويف التوبة ، وترك الرضى بالكفاف ، والتكاسل في العبادة »[2] .

وقال القرطبي : « اعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية ، والتوجه في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية »[3] ويروى أن امرأة شكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة في قلبها ، فقالت لها : اكثري من ذكر الموت يرق قلبك ، ففعلت ذلك فرق قلبها »[4] .

وقال القرطبي : قال العلماء : تذكر الموت يردع عن المعاصي ، ويلين القلب القاسي ، ويذهب الفرح بالدنيا ويهون المصائب[5] .

وقال القرطبي أيضا : قال العلماء ـ رحمهم الله ـ ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور ، وخاصة إن كانت قاسية ، فعلى أصحابها أن يعالجوها بثلاثة أمور :
أحدها : الإقلاع عما هي عليه بحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكير والتخويف والترغيب وأخبار الصالحين، فإن ذلك مما يلين القلوب .
الثاني : ذكر الموت ، فيكثر من ذكر هاذم اللذات ، ومفرق الجماعات ، وميتم البنين والبنات .

---

(١) الزهد والرقائق ، لابن المبارك : ص (٨٨)
(٢) تذكرة القرطبي : ص ٩
(٣) تذكرة القرطبي : ص ٨
(٤) التذكرة : ص ١٢
(٥) التذكرة :ص ١٢

الثالث : مشاهدة المحتضرين ، فإن النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته ، وتأمل صورته بعد مماته ، مما يقطع عن النفوس لذاتها ، ويطرد عن القلوب مسراتها ، ويمسح الأجفان من النوم ، ، والأبدان من الراحة ، ويبعث على العمل ، ويزيد في الاجتهاد والتعب[1] .

وذكر عن الحسن البصري أنه دخل على مريض يعوده ، فوجده في سكرات الموت ، فنظر إلى كربه ، وشدة ما نزل به ، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم ، فقالوا له : الطعام يرحمكم الله ، فقال : يا أهلاه ، عليكم بطعامكم وشرابكم ، فوالله رأيت مصرعا لا أزال أعمل له حتى ألقاه .[2]

وقال أبوالدرداء : « من أكثر ذكر الموت قل فرحه ، وقل حسده »[3] .

---

(١) تذكرة القرطبي : ص ١٢

(٢) تذكرة القرطبي : ص ١٢

(٣) كتاب الزهد لابن المبارك : انظر آخر الكتاب : زوائد كتاب الزهد ، راويه نعيم بن حماد : ص ٣٧

الفصل الخامس
الروح والنفس

المبحث الأول
تعريف وبيان

لابدَّ للباحث في أمر الإنسان بعد موته من إعطاء فكرة عن الروح التي تنعم أو تعذب بعد موتها ، ما هي ؟ وهل لها كيفية تعلم ؟ وهل هي جزء من البدن ، أم شيء آخر غير البدن ؟ فإن كانت غيره فأين مسكنها فيه ؟ وهل هي مخلوقة ؟ وهل هي واحدة في الإنسان أم متعددة ؟ وهل تموت الأرواح ، وكيف موتها ؟ وأين مستقرها في البرزخ ، وهل تعلم الأرواح شيئا عما يجري في الدنيا من البرزخ ؟

يقول ابن تيميه : « والروح المدبرة للبدن التي تفارقه بالموت هي الروح المنفوخة فيه ، وهي النفس التي تفارقه بالموت »[١] ، وقد أخطأ الذين فرقوا بين الروح والنفس واعتقدوا أنهما أمران مختلفان ، ومن تأمل فيما سقناه في بحثنا من نصوص علم أن النفس هي التي تقبضها الملائكة ، وتصعد بها إلى السماء ، وتعود بها إلى الجسد ، وتسأل ، وتنعم وتعذب ، وهي الروح أيضا التي إذا خرجت من الجسد تبعها البصر كما ثبت في الأحاديث .

---

(١) رسالة العقل والروح ، مجموعة الرسائل المنيرية : ٣٦/٢ ، وانظر شرح العقيدة الطحاوية : ٤٤٥ .

وهذا المخلوق الذي تكون به الحياة ، وتفقد الحياة بفقده يسمى روحا ونفسا ، ولا يمنع هذا أن تطلق كل من الروح والنفس اطلاقات أخرى ، يقول ابن تيمية : « لفظ الروح والنفس يعبر بهما عن عدة معان : فيراد بالروح الهواء الخارج من البدن والهواء الداخل فيه ، ويراد بالروح البخار الخارج من تجويف القلب من سويداه الساري في العروق ، وهو الذي تسميه الأطباء الروح ، ويسمى الروح الحيواني ، فهذان المعنيان غير الروح التي تفارق بالموت التي هي النفس ، ويراد بنفس الشيء ذاته وعينه ، وقد يراد بلفظ النفس الدم الذي يكون في الحيوان ، كقول الفقهاء : « ماله نفس سائلة ، وما ليس له نفس سائلة » فهذان المعنيان بالنفس ليسا هما معنى الروح »(١) .

وتطلق الروح أيضا على جبرائيل ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾(٢) ، وتطلق على القرآن ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾(٣) .

ويلاحظ شارح الطحاوية أن الروح والنفس وإن أطلقا على تلك اللطيفة الربانية ، إلا أن « غالب ما يسمى نفسا إذا كانت الروح متصلة بالبدن ، وأمّا إذا أخذت مجردة فتسمية الروح أغلب عليها »(٤) .

ويقول ابن تيمية في هذا : « لكن تسمى نفسا باعتبار تدبيره للبدن ، وتسمى روحا باعتبار لطفه ، ولهذا يسمى الريح روحا ، وقال النبي ﷺ : « الريح من روح الله »(٥) أي من الروح التي خلقها الله(٦) .

---

(١) المصدر السابق : (٢/٣٩)
(٢) سورة الشعراء : (١٩٣)
(٣) سورة الشوري : (٥٢) .
(٤) شرح العقيدة الطحاوية : ص (٤٤٤)
(٥) رواه البخاري في الأدب المفرد ، وأبو داود والحاكم .
(٦) رسالة العقل والروح ، مجموعة الرسائل المنيرية : (٢/٣٧)

المبحث الثاني

هل للروح كيفية تعلم ؟

لما كانت الروح مخلوقة من جنس لا نظير له في عالم الموجودات فإننا لا نستطيع أن نعرف صفاتها ، فقد عرفنا الله أنها تصعد وتهبط ، وتسمع وتبصر وتتكلم إلى غير ذلك ، إلا أنَّ هذه الصفات مخالفة لصفات الأجسام المعروفة ، فليس صعودها وهبوطها وسمعها وبصرها وقيامها وقعودها من جنس ما نعرفه ونعلمه ، فقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الروح يصعد بها إلى السموات العلى ، ثم تعاد إلى القبر ، ساعة من الزمن ، وقد أخبرنا أنها تنعم أو تعذب في القبر ، ولا شك أن هذا النعيم على نحو مخالف لما نعلمه ونعرفه .

المبحث الثالث

استقلال الروح عن البدن

« يرى فريق من أهل الكلام المبتدع المحدث من الجهمية والمعتزلة أنَّ الروح جزء من أجزاء البدن ، أو صفة من صفاته ، كقول بعضهم : إنَّها النفس أو الريح التي تردد في البدن ، وقول بعضهم ؛ إنها الحياة أو المزاج أو نفس البدن »[1] .

« والفلاسفة المشاؤون يقرون بأن النفس تبقى إذا فارقت البدن ، لكن يصفون النفس بصفات باطلة فيدعون أنها إذا فارقت البدن كانت عقلا ، والعقل عندهم مجرد عن المادة وعلائق المادة ، والمادة عندهم هي الجسم ، والعقل عندهم قائم بنفسه لا يوصف بحركة ولا سكون ولا يتجدد له أحوال البتة »[2] .

وقد تخبط هؤلاء وهؤلاء في مقالاتهم في الروح ، فأهل الكلام المبتدع المذموم الذين قالوا : إنَّ الروح هي الحياة أو المزاج أو نفس البدن أنكر كثير منهم عذاب القبر ، فليس هناك روح تنعم أو تعذب بعد الموت في البرزخ . ورفضوا النصوص التي أثبتت ذلك .

والفلاسفة الذين زعموا أن الروح إذا فارقت البدن تصبح عقلا ، قالوا : **« إذا فارقت البدن لا يتجدد لها حال من الأحوال لا علوم ولا تصورات ، ولا سمع ولا بصر ، ولا إرادات ، ولا فرح ولا سرور ، ولا غير ذلك مما قد يتجدد ويحدث ،**

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : (٣١/٣) ، رسالة العقل والروح لابن تيمية ، انظر مجموعة الرسائل المنيرية : (٢١/٢) .

(٢) مجموعة الرسائل المنيرية ، رسالة العقل والروح : (٢١/٢)

بل تبقى عندهم على حال واحدة أزلا وأبدا ، كما يزعمونه في العقل والنفس »[1] .

وفريق من الفلاسفة يصفونها بما يصفون به واجب الوجود عندهم ، وهي أمور لا يتصف بها إلا ممتنع الوجود ، فيقولون لا هي داخل البدن ولا خارجه ، ولا مباينه له ، ولا مداخلة له ، ولا متحركة ولا ساكنة ، ولا تصعد ولا تهبط ، ولا هي جسم ولا عرض »[2] .

والسبب الذي أوقع كلا الفريقين في هذا الخطأ أنهم اعتمدوا على عقولهم وما وضعوه من مقاييس في البحث في أمر غيبي ، فالفريق الأول أنكر وجود روح مستقلة عن البدن ، وهذا تكذيب للنصوص المتواترة ، وإنكار لأمر معلوم من الدين بالضرورة ، والفلاسفة المشاؤون ومن سلك سبيلهم أثبتوا وجود الروح مستقلة عن البدن ، ولكن لما كانت هذه الروح «ليست من جنس هذا البدن ، ولا جنس العناصر والمولدات منها ، بل هي جنس آخر مخالف لهذه الأجناس »[3] صعب عليهم تعريفها وتصورها ، وضاقت تعبيراتهم ومقاييسهم عن حدها وتصورها، وقد هدى الله الذين استجابوا لله ورسوله، وآمنوا بما أخبرهم به، فعلموا أن « الروح جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس ، وهو جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ، ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد ، وسريان الدهن في الزيتون، والنار في الفحم ، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف ، بقي هذا الجسم اللطيف متشابكا بهذه الأعضاء ، وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة والإرادة ، وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها ، وخرجت عن

(١) المصدر السابق : (٢٢/٢)
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٣١/٣)
(٣) المصدر السابق : (٣٢/٣)

قبول تلك الآثار فارق الروح البدن ، وانفصل إلى عالم الأرواح »[1] .

وقد سقنا في تضاعيف بحثنا كثيرا من الأدلة التي تثبت أن الروح شيء مستقل عن البدن ، كقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ﴾[2] ، وقوله ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾[3] ، وقوله ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾[4] وقوله : ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾[5] ، وقوله : ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾[6] ، فالذي يمسك ، وتتوفاه الملائكة ، ويبلغ الحلقوم ، ويبلغ التراقي ، والذي يساق ـ لابدَّ أن يكون شيئا حقيقيا مخالفا للجسد .

وقد سقنا الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله ﷺ أنَّ ملك الموت يقبض الروح ، وأنَّ الملائكة تضع تلك الروح في كفن من الجنة أو النار بحسب فلاحها أو فسادها ، وأنَّه يذهب بها في رحلة علوية سماوية ، حيث تفتح لها أبواب السماء إن كانت صالحة ، وتغلق دونها إن كانت طالحة ، وأنها تعاد إلى الجسد ، وتسأل

---

(١) هذا تعريف ابن القيم للروح في كتابه :الروح ، وقد نقله عنه السفاريني في لوامع الأنوار البهية : (٢٩/٢) ، وعزاه إليه ، وذكره بنصه شارح الطحاوية من غير عزو ، انظر شرح الطحاوية : ص (٤٣٣) ، وقد قال ابن القيم بعد سياقه لهذا التعريف : « وهذا القول هو الصواب في المسألة ، وهو الذي لا يصح غيره ، وكل الأقوال سواه باطلة ، وعليه دل الكتاب والسنة واجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة ، وذكر مائة وخمسة عشر دليلا فأجاد وأفاد وزيف كلام ابن سينا وابن حزم وأمثالهما .

(٢) سورة الزمر : ٤٢

(٣) سورة الأنفال : ٥٠

(٤) سورة الأنعام : ٩٣ .

(٥) سورة القيامة : ٢٦ ـ ٣٠ .

(٦) سورة الواقعة : ٨٣ ـ ٨٤

وتعذب أو تنعم ، وأن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، وأرواح المؤمنين طير يعلق شجر الجنة ، وأن الروح إذا قبض تبعه البصر ، إلى غير ذلك من النصوص الدالة في مجموعها دلالة قاطعة على أن الأرواح شيء آخر غير الأبدان ، وأنها تبقى بعد مفارقة البدن .

المبحث الرابع

مسكن الروح في الجسد

الروح تسري في بدن الإنسان كله ، يقول ابن تيمية : « لا اختصاص للروح بشيء من الجسد ، بل هي سارية في الجسد كما تسري الحياة التي هي عرض في جميع الجسد ، فإن الحياة مشروطة بالروح ، فإذا كانت الروح في الجسد كان فيه حياة ، وإذا فارقته الروح فارقته الحياة . »[1] .

---

(١) رسالة العقل والروح ، مجموعة الرسائل المنيرية : (٢/٤٧) .

المَبحث الخامس
الرُّوح مخلوقة

ذهب فريق من الفلاسفة إلى أن الروح غير مخلوقة بل هي قديمة أزلية ، ولكنها ليست من ذات الرب ، ومقالتهم في الروح هي مقالتهم في العقول والنفوس الملكية ، ويزعم من دخل من أهل الملل فيهم أنها هي الملائكة .

وذهب صنف آخر من زنادقة هذه الأمّة وضلالها من المتكلمة والمتصوفة والمحدثة إلى أن الروح من ذات الله ، وهؤلاء ـ كما يقول ابن تيمية ـ أشرُّ قولا من أولئك ، وهؤلاء جعلوا الآدمي نصفين : نصف لاهوت ، وهو روحه ، ونصف ناسوت وهو جسده : نصفه رب ونصفه عبد(١) .

والحق الذي لا ينبغي أن يخالف فيه أن الروح مخلوقة مبتدعة ، ويدل على ذلك أمور :

١ ـ الإجماع :

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « روح الآدمي مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة ، وقد حكى إجماعَ العلماء على أنها مخلوقة غيرُ واحد من أئمة المسلمين ، مثل محمد بن نصر المروزي ، الإمام المشهور ، الذي هو أعلم أهل زمانه بالإجماع والاختلاف ، أو من أعلمهم .

وكذلك أبو محمد بن قتيبة ، قال في « كتاب اللقط » لما تكلم على خلق

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٢٢٢) .

الروح ، قال : النسم الأرواح ، قال : وأجمع الناس أن الله خالق الجثة وباريء النسمة ، أي الروح .

وقال أبو إسحاق بن شاقلا فيما أجاب به في هذه المسألة : سألت رحمك الله عن الروح مخلوقة أو غير مخلوقة ، قال : هذا مما لايشك فيه من وفق للصواب ، إلى أن قال : والروح من الأشياء المخلوقة ، وقد تكلم في هذه المسألة طوائف من أكابر العلماء والمشايخ ، وردوا على من يزعم أنها غير مخلوقة .

وصنف الحافظ أبو عبدالله بن منده في ذلك كتاباً كبيراً في (الروح والنفس) وذكر فيه من الأحاديث والآثار شيئاً كثيرا ، وقبله الإمام محمد بن نصر المروزي وغيره ، والشيخ أبو يعقوب الخراز ، وأبو يعقوب النهرجوري ، والقاضي أبو يعلي ، وغيرهم ، وقد نص على ذلك الأئمة الكبار ، واشتد نكيرهم على من يقول ذلك في عيسى بن مريم ، لاسيما في روح غيره كما ذكره أحمد في كتابه في « الرد على الزنادقة والجهمية »[1] .

٢ ــ الكتاب والسنة :

الأدلة من الكتاب والسنة الدالة على خلقها كثيرة ، مثل قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2] ، يقول شارح الطحاوية عقب استدلاله بهذه الآية : « فهذا عام لا تخصيص فيه بوجه ما »[3] ومن ذلك قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[4] ، وقوله جلَّ وعلا لزكريا : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٢١٦/٤) .
(٢) سورة الرعد : ١٦ ، وسورة الزمر : ٦٢ .
(٣) شرح الطحاوية : ص (٤٤٢) .
(٤) سورة الأنسان : ١ .

قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾(١) ، والإنسان اسم لروح الإنسان وبدنه ، وخطاب الله لزكريا لروحه وبدنه ، يقول ابن تيمية : « الإنسان عبارة عن البدن والروح معا ، بل هو بالروح أخص منه بالبدن ، وإنما البدن مطية للروح ، كما قال أبو الدرداء : إنما بدني مطيتي ، فإن رفقت بها بلغتني ، وإن لم أرفق بها لم تبلغني ، وقد رواه ابن مندة وغيره عن ابن عباس ، قال لاتزال الخصومة يوم القيامة بين الخلق حتى تختصم الروح والبدن ، فتقول الروح للبدن : أنت عملت السيئات ، فيقول البدن للروح ، أنت أمرتني ، فيبعث الله ملكا يقضي بينهما ؛ فيقول : إنما مثلكما كمثل مقعد وأعمى دخلا بستانا ، فرأى المقعد فيه ثمرا معلقا ؛ فقال للأعمى : إني أرى ثمرا ولكن لا أستطيع النهوض إليه ، وقال الأعمى : لكني أستطيع النهوض إليه ، ولكني لا أراه ، فقال المقعد : تعال فاحملني حتى أقطفه ، فحمله وجعل يأمره فيسير به إلى حيث يشاء فقطع الثمرة ، قال الملك : فعلى أيهما العقوبة ؟ قالا : عليهما جميعا ، قال : فكذلك أنتما »(٢) .

٣ ـ ذكرنا في بحثنا هذا كثيرا من النصوص عن النبي ﷺ أن الأرواح تقبض ، وتوضع في كفن وحنوط تأتي بهما الملائكة ، ويصعد بها ، وتنعم وتعذب ، وتمسك في النوم ، وترسل ، وكل هذا شأن المخلوق المحدث .

٤ ـ لو لم تكن مخلوقة مربوبة لما أقرت بالربوبية ، وقد قال الله للأرواح حين أخذ الميثاق على العباد وهم في عالم الذر ألست بربكم ؟ قالوا بلى ، وذلك ما قرره الحق في قوله : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ... ﴾(٣) ، وما دام هو ربهم فإنهم مربون مخلوقون .

---

(١) سورة مريم : ٩ .

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٢٢٢/٤) .

(٣) سورة الأعراف : ١٧٢ .

٥ ـ لو لم تكن الأرواح مخلوقة فإن النصارى لا لوم عليهم في عبادتهم عيسى ، ولا في قولهم إنه ابن الله ، أو هو الله .

٦ ـ لو كانت الروح غير مخلوقة فإنها لاتدخل النار ولا تعذب ، ولا تحجب عن الله ، ولا تغيب في البدن ، ولا يملكها ملك الموت ، ولما كانت صورة توصف ، ولم تحاسب ولم تعذب ، ولم تتعبد ولم تخف ، ولم تَرج ، ولأن أرواح المؤمنين تتلألأ ، وأرواح الكفار سود مثل الفحم[١] .

(١) الأدلة الثلاثة الأخيرة استدل بها أبو سعيد الخراز ، أحد أكابر المشايخ الأئمة من أقران الجنيد فيما نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية ، انظر مجموع الفتاوي (٤/ ٢٢٠) .

المبحث السادس

شبهات الذين زعموا أن الروح غير مخلوقة

الذين قالوا إن الروح غير مخلوقة احتجوا بمثل قوله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾(١) ، والجواب عن هذا من وجوه :

الأول : أن الروح هنا ليست روح الآدمي ، وإنما هو اسم ملك ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ﴾(٢) ، وقال : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾(٣) ، وقال : ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾(٤) ، وهذا قول معروف مشهور عند علماء السلف في تفسير الآية .

الثاني : وإذا قلنا إن المراد بالروح هنا روح الآدمي ـ كما هو قول جمع من علماء السلف في الآية ـ فليس فيها ما يدل على أن الروح غير مخلوقة ، وأنها جزء من ذات الله تعالى كما يقال هذه الخرقة من هذا الثوب ، بل المراد أنها تنسب إلى الله لأنها بأمره تكونت ، أو لأنها بكلمته كانت ، والأمر في القرآن يذكر ويراد به المصدر تارة ، ويراد به المفعول تارة أخرى وهو المأمور به ، كقوله تعالى : ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾(٥) ، أي المأمور به ، ويمكن أن يقال أيضا :أن لفظه (من) في قوله :

---

(١) سورة الإسراء : ٨٥ .

(٢) سورة النبأ : ٣٨

(٣) سورة المعارج : ٤

(٤) سورة القدر : ٤

(٥)سورة النحل : ١ .

(من أمر ربي) لإبتداء الغاية ، ومعلوم أن (من) تأتي لبيان الجنس ، كقولهم : باب من حديد ، وتأتي لإبتداء الغاية ، كقولهم : خرجت من مكة ، فقوله :(من أمر ربي) ليس نصا في أن الروح بعض الأمر ومن جنسه ، بل هي لابتداء الغاية إذ كونت بالأمر ، وصدرت عنه ، وهذا معنى جواب الإمام أحمد في قوله : وروح منه حيث قال : (وروح منه) يقول من أمره كان الروح ، كقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾(١)، ونظير هذا أيضا قوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾(٢) .

فإذا كانت المسخرات والنعم من الله ، ولم تكن بعض ذاته ، بل منه صدرت ، لم يجب أن يكون معنى قوله في المسيح : روح منه ، أنها بعض ذاته(٣) .

الشبهة الثانية : قوله تعالى في آدم ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾(٤) ، وقوله في عيسى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾(٥) ، قالوا : فقد أضاف الله الروح إلى نفسه ، وقد أجاب عن هذه الشبهة شارح الطحاوية فقال : « ينبغي أن يعلم أن المضاف إليه الله تعالى نوعان : صفات لاتقوم بأنفسها ، كالعلم والقدرة ، والكلام والسمع والبصر ، فهذه إضافة صفة إلى موصوف بها ، فعلمه وكلامه وقدرته وحياته صفات له ، وكذا وجهه ويده سبحانه .

والثاني : إضافة أعيان منفصلة عنه ، كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح كقوله : ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾(٦) وقوله : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ

---

(١) سورة الجاثية : ١٣ .
(٢) سورة النحل : ٥٣ .
(٣) للتوسع في هذا المبحث راجع : مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٢٢٦ - ٢٣٥) .
(٤) سورة الحجر : ٢٩ .
(٥) سورة الأنبياء : ٩١ .
(٦) سورة الشمس : ١٣ .

عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾[1] وقوله : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ . . ﴾[2] فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه ، لكن إضافة تقتضى تخصيصا وتشريفا ، يتميز بها المضاف إلى غيره »[3] .

---

(١) سورة الفرقان : ١ .

(٢) سورة الحج : ٢٦ .

(٣) شرح الطحاوية : ص ٤٤٢ ، وراجع رسالة الروح ، مجموعة الرسائل المنيرية : (٣٨/٢) .

المبحث السابع

أنواع النفوس

أخبرنا الحق أن النفوس ثلاثة أنواع : النفس الأمارة بالسوء ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾[1] ، والنفس اللوامة ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[2] ، والنفس المطمئنة ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[3] ، وليس المراد أن لكل إنسان ثلاثة نفوس ، وإنما المراد أن هذه صفات وأحوال لذات واحدة ، فإذا غلب على النفس هواها بفعلها للذنوب والمعاصي فهي النفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة هي التي تذنب وتتوب ، سميت لوامة ، لأنها تلوم صاحبها على الذنوب ، ولأنها تتلوم أي تتردد بين فعل الخير والشر ، والنفس المطمئنة هي التي تحب الخير والحسنات وتريدها ، وتبغض الشر والسيئات وتكره ذلك ، وقد صار ذلك لها خلقا وعادة وملكة[4] .

وقال شارح الطحاوية بعد أن ذكر أنواع النفوس : « والتحقيق : أنها نفس واحدة ، لها صفات ، فهي أمارة بالسوء ، فإذا عارضها الإيمان صارت لوامة ، تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها ، وتلوم بين الفعل والترك ، فإذا قوى الإيمان صارت مطمئنة »[5] .

---

(١) سورة يوسف : ٥٣ .

(٢) سورة القيامة : ٢ .

(٣) سورة الفجر : ٢٧ .

(٤) راجع رسالة العقل والروح لابن تيمية ، مجموعة الرسائل المنيرية : (٢/٤١) .

(٥) شرح الطحاوية : ص ٤٤٥ .

المبحث الثامن

هل تموت النفوس

يقول ابن تيمية : « والأرواح مخلوقة بلاشك ، وهي لا تعدم ولا تفنى ، ولكن موتها بمفارقة الأبدان ، وعند النفخة الثانية تعاد الأرواح إلى الأبدان »[1] .

وقد تعرض شارح الطحاوية لهذه المسألة ، فقال : « واختلف الناس هل تموت الروح أم لا ؟ فقالت طائفة : تموت لأنها نفس ، وكل نفس ذائقة الموت ، . . . وإذا كانت الملائكة تموت ، فالنفوس البشرية أولى بالموت ، وقال آخرون ، لاتموت الأرواح ، فإنها خلقت للبقاء ، وإنما تموت الأبدان ، قالوا : وقد دل على ذلك الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها ، والصواب أن يقال : موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها ، فإن أريد بموتها هذا القدر ، فهي ذائقة الموت ، وإن أريد أنها تعدم وتفنى بالكلية فهي لاتموت بهذا الاعتبار ، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب ، . . . وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾[2]، وتلك الموتة هي مفارقة الروح الجسد »[3] .

---

(١) مجموع الفتاوي : (٤/ ٢٧٩) .

(٢) سورة الدخان : ٥٦ .

(٣) شرح الطحاوية : ص (٤٤٦) .

المبحث التاسع

مستقر الأرواح في البرزخ

أرواح العباد في البرزخ متفاوتة في منازلها ، وقد استقرأنا النصوص الواردة في ذلك فأفادتنا التقسيم التالي :

أولا : أرواح الأنبياء ، وهذه تكون في خير المنازل في أعلى عليين ، في الرفيق الأعلى ، وقد سمعت السيدة عائشة الرسول ﷺ في آخر لحظات حياته يقول : « اللهمَّ الرفيق الأعلى »[١] .

الثاني : أرواح الشهداء ، وهؤلاء أحياء عند ربهم يرزقون ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[٢] ، وقد سأل مسروق عبدالله بن مسعود عن هذه الآية ، فقال : « إنا قد سألنا عن ذلك ، فقال : « أرواحهم في أجواف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنّة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل » رواه مسلم في صحيحه[٣] . وهذه أرواح بعض الشهداء لاكل الشهداء ، لأن منهم من تحبس روحه عن دخول الجنّة لدين عليه ، كما في المسند عن عبدالله بن جحش أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، مالي إن قتلت في سبيل الله ؟ قال : « الجنّة » ، فلما وّلى ، قال : « إلا الدين ، سارني به جبريل آنفا »[٤] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب من أحب لقاء الله ، فتح الباري : (٣٥٧/١١) .

(٢) سورة آل عمران : ١٦٩ .

(٣) مشكاة المصابيح : (٣٥١/٢) ، وللحديث تتمة .

(٤) قال الشيخ ناصر الدين الألباني في تعليقه على شرح الطحاوية : ص ٤٤٥ « صحيح » ، وقد سقنا من قبل أكثر من حديث في هذا المعنى .

الثالث : أرواح المؤمنين الصالحين : تكون طيورا تعلق شجر الجنّة ، ففي الحديث الذي يرويه عبدالرحمن بن كعب بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إنما نسمة المسلم طير يعلق في شجر الجنّة ، حتى يرجعها الله إلى جسده إلى يوم القيامة » رواه أحمد[1] .

والفرق بين أرواح المؤمنين وأرواح الشهداء ، أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح متنقلة في رياض الجنّة ، وتأوي إلى قناديل معلقة في العرش ، أما أرواح المؤمنين فإنها في أجواف طير يعلق ثمر الجنة ولا ينتقل في أرجائها . وكون أرواح المؤمنين طيرا يعلق شجر الجنّة لايشكل عليه الحديث الآخر الذي يرويه أبو هريرة عن الرسول ﷺ ، وفيه أن الملائكة تقبض روح العبد المؤمن، وترقى به إلى السماء ، فتقول الملائكة : « ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض ، فيأتون به أرواح المؤمنين ، فلهم أشدُّ فرحا من أحدكم بغائبه يقدم عليه ، فيسألونه : ماذا فعل فلان ؟ ماذا فعل فلان ؟ فيقولون : دعوه ، فإنه كان في غم الدنيا ، فيقول : قدمات ، أما أتاكم ؟ قالوا : ذهب به إلى أمه الهاوية »[2] ، فإن روح المؤمن تلتقي بأرواح المؤمنين في الجنّة .

الرابع : أرواح العصاة : سبق أن أوردت النصوص التي تبين ما يلاقيه العصاة من العذاب ، فمن ذلك أن الذي يكذب الكذبة تبلغ الآفاق يعذب بكلوب من حديد يدخل في شدقه حتى يبلع قفاه ، والذي نام عن الصلاة المكتوبة يشدخ رأسه بصخرة ، والزناة والزواني يعذبون في ثقب مثل التنور ضيق أعلاه

---

(١) أورده الشيخ ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/٧٣٠) ، حديث رقم (٩٩٥) ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ورواه ابن ماجه في سننه ، ومالك في موطئه ، والنسائي بلفظ :«إن أرواح المؤمنين في أجواف طير خضر ، تعلق بشجر الجنة» .

(٢) رواه النسائي ، كتاب الجنائز ، باب ما يلقى المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه : (٤/٨) .

وأسفله واسع ، توقد النار من تحته ، والمرابي يسبح في بحر من دم ، وعلى الشط من يلقمه حجارة(١) . وقد ذكرنا الأحاديث التي تتحدث عن عذاب الذي لم يكن يستنزه من بوله ، والذي يمشي بالنميمة بين الناس ، والذي غلَّ من الغنمية ونحو ذلك .

الخامس : أرواح الكفار : في حديث أبي هريرة عند النسائي بعد وصف حال المؤمن إلى أن يبلغ مستقره في الجنة ، ذكر حال الكافر ، وما يلاقيه عند النزع ، وبعد أن تقبض روحه « تخرج منه كأنتن ريح ، حتى يأتون به باب الأرض ، فيقولون : ما أنتن هذه الريح ، حتى يأتون به أرواح الكفار »(٢) .

---

(١) سبق أن سقنا هذا الحديث بطوله ، والحديث رواه البخاري في صحيحه .

(٢) رواه النسائي ، كتاب الجنائز ، باب ما يلقى المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه ، (٤/٨) .

المَبحَث العَاشر
إشكال وجوابه

قد يقال : سقت من النصوص ما يدل على أن الأرواح تعاد إلى الإبدان ، ثم تُسأل ، وبعد ذلك ينعم المؤمن ، ويعذب الكافر ، فكيف تقول بعد ذلك إن نسم المؤمنين في الجنة ، ونسم الكفار في النار ؟

حاول ابن حزم أن يضعف الأحاديث التي تذكر إعادة الروح إلى البدن في القبر ، ولكن ليس الأمر كذلك ، فإن ما ضعفه ابن حزم وهو حديث زادان عن البراء حديث صحيح ، وهناك أحاديث كثيرة صحيحة متواترة تدل على عود الروح إلى البدن كما يقول ابن تيمية[1] ، وفي التوفيق بين النصوص يقول ابن تيمية : «وأرواح المؤمنين في الجنّة ، وإن كانت مع ذلك قد تعاد إلى البدن ، كما أنها قد تكون في البدن ، ويعرج بها إلى السماء كما في حال النوم ، أما كونها في الجنّة ففيه أحاديث عامّة ، وقد نص على ذلك أحمد وغيره من العلماء ، واحتجوا بالأحاديث المأثورة العامة وأحاديث خاصة في النوم وغيره »[2] ثم ذكر بعض هذه الأحاديث التي سقناها من قبل ، وأورد حديث أبي هريرة الذي رواه ابن حبان وغيره ، والذي يذكر فيه أن المؤمن يرى بعد السؤال مقعده من الجنة ، ومقعده من النار لو كان كافرا ، قال : « ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا ، وينور له فيه ، ويعاد جسده كما بدىء ، وتجعل نسمته في نسم طيب ، وهي طير تعلق في شجر الجنّة » ، وفي لفظ « وهو طير يعلق في شجر الجنّة » ، وفي لفظ : « ثم يعاد جسده

---

(١) مجموع الفتاوي : (٥/٤٤٦) .

(٢) المرجع السابق : (٥/٤٤٧) .

إلى ما بديء منه »[1] فالروح - كما يدل عليه الحديث تعاد إلى الجسد بعد الرحلة إلى السماء ، ثم تسأل ، ثم تكون طيرا يعلق شجر الجنة إلى أن يبعث العباد ، ومع كونها في الجنّة فإنه يبقى لها تعلق بالجسد ، كحال الإنسان في النوم ، فإنها تجول في ملكوت السموات والأرض ، مع أن لها تعلق بالجسد ، وفقه هذا مبني على معرفة أن الروح مخالفة للأجساد وللمعهود من حال المخلوقات الدنيوية ، يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى بعد أن ذكر أن مستقر أرواح المؤمنين الجنّة : « ومع ذلك تتصل بالبدن متى شاء الله تعالى ، وهي في تلك[2] اللحظة بمنزلة نزول الملك ، وظهور الشعاع في الأرض وانتباه النائم »[3] .

---

(١) انظر مجموع الفتاوي : (٥/٤٤٨) .

(٢) في الأصل : وذلك في اللحظة .

(٣) مجموع الفتاوي : (٢٤/٣٦٥) .

المبحث الحادي عشر
هل العذاب في البرزخ على الروح أم على البدن أم على كليهما

الفرق الإسلامية في هذا الموضوع على أقوال :

الأول : مذهب أهل السنة والجماعة أنه للروح منفصلة عن الجسد ، ومتصلة به ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعا باتفاق أهل السنة والجماعة ، تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن ، وتعذب متصلة بالبدن ، والبدن متصل بها ، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين ، كما يكون للروح منفردة عن البدن » .

الثاني : قول كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم الذين ينكرون النعيم والعذاب في البرزخ مطلقا ، والسر في ذلك أنهم ينكرون وجود روح مستقلة عن الجسد ، فالروح عندهم هي الحياة ، ولا تبقى الروح في نظرهم بعد الموت[1] ، فلا نعيم ولا عذاب حتى يبعث الله العباد ، قال بذلك بعض المعتزلة والأشاعرة كالقاضي أبي بكر ، وهذا قول باطل لاشك في بطلانه خالفه أبو المعالي الجويني ، وقد نقل غير واحد من أهل السنة الإجماع على أن الروح تبقى بعد فراق البدن وأنها منعمة أو معذبة .

الثالث :قول الفلاسفة الذين يرون أنّ النعيم والعذاب على الروح وحدها ،

---

(١) هؤلاء وإن أنكروا عذاب القبر إلا أنهم يثبتون معاد الأبدان .

وأن البدن لاينعم ولا يعذب[1] ، وقد قال بهذا القول من أهل السنة ابن ميسرة ، وابن حزم .

الرابع : قول من قال من علماء الكلام أن الذي ينعم ويعذب في القبر البدن وحده ، وقال بذلك طائفة من أهل الحديث منهم ابن الزاعوني[2] .

---

(١) وهؤلاء وإن أثبتوا عذابا ونعيما للروح بعد فراقها للبدن إلا أنهم ينكرون المعاد .

(٢) راجع في هذه المسألة مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية : (٢٦٢/٤ ، ٢٨٢) .

المبحث الثاني عشر
هل يعلم الإنسان شيئاً عن أحوال الدنيا بعد موته

ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الميت يسمع قرع نعال أصحابه، بعد وضعه في قبره ، فعن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن العبد إذا وضع في قبره ، وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع نعالهم . . »[1] ووقف الرسول ﷺ بعد ثلاثة أيام من معركة بدر على قتلى بدر من المشركين فنادى رجالا منهم ، فقال : « يا أبا جهل بن هشام ، يا أميّة بن خلف ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا » فقال عمر بن الخطاب : « يارسول الله ! كيف يسمعوا أني يجيبوا وقد جيفوا »[2] قال : « والذي نفسي بيده ! ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا ثم أمر بهم فسحبوا ، فألقوا في قليب بدر »[3] .

وقد ساق ابن تيمية جملة من الأحاديث التي تدل على أن الموتى يسمعون ، ثم قال : « فهذه النصوص وأمثالها تُبين أن الميت يسمع في الجملة كلام الحي ، ولا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٤/٢٢٠٣) حديث رقم (٢٨٧٤) .

(٢) اي أنتنوا ، وصاروا جيفا .

(٣) رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر ، ورواه مسلم في كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٤/٢٢٠٠) . حديث رقم (٢٨٧٠) ورواه أبو داود والنسائي أيضا ، انظر جامع الأصول : (١١/١٨٠) .

يجب أن يكون السمع له دائما ، بل قد يسمع في حال دون حال ، كما قد يعرض للحي ، فإنه يسمع أحيانا خطاب من يخاطبه ، وقد لا يسمع لعارض يعرض له »[1] . وقد أجاب شيخ الإسلام على إشكال من يقول : إن الله نفى السماع عن الميت في قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[2] ، وكيف تزعمون أن الموتى يسمعون ؟ فقال : « وهذا السمع سمع إدراك ، ليس يترتب عليه جزاء ، ولا هو السمع المنفي بقوله : ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[3] ، فإن المراد بذلك سمع القبول والامتثال ، فإن الله جعل الكافر كالميت الذي لا يستجيب لمن دعاه ، وكالبهائم التي تسمع الصوت ، ولا تفقه المعنى ، فالميت وإن سمع الكلام وفقه المعنى ، فإنه لا يمكنه إجابة الداعي ، ولا امتثال ما أمر به ، ونهى عنه ، فلا ينتفع بالأمر والنهي ، وكذلك الكافر لا ينتفع بالأمر والنهي ، وإن سمع الخطاب ، وفهم المعنى ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾[4][5] وقد جاءت النصوص دالة أيضا على أن الميت مع سماعه يتكلم ، فإن منكرا ونكيرا يسألونه ، فالمؤمن يوفق للجواب الحق ، والكافر والمنافق يضل عن الجواب ، ويتكلم أيضا في غير سؤال منكر ونكير ، وكل هذا مخالف لما عهده أهل الدنيا من كلام ، فإن الذي يسأل ويتكلم الروح ، وهي التي تجيب وتقعد وتعذب وتنعم ، وإن كان لها نوع اتصال بالجسد ، وقد سبق القول أن بعض الناس قد يسمعون الكلمة من الميت ، وأن الرسول ﷺ كان يسمع من هذا شيئا كثيرا .

---

(١) مجموع الفتاوي : ٣٦٤/٥ .

(٢) سورة النمل : ٨٠ .

(٣) سورة النمل : ٨٠

(٤) سورة الأنفال : ٢٣ .

(٥) مجموع الفتاوي : (٣٦٤/٥) .

البَابُ الثَّانِي

أشراط الساعة

الفصل الأول
وقت الساعة

المبحث الأول
الساعة آتية لاريب فيها

الإيمان بيوم القيامة أصل من الأصول ، لايتم الإيمان إلا به ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾[1] ، ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[2] .

وقد ساق القرآن ضروبا متنوعة من الأساليب البيانية الراقية كي يؤكد وقوعها في نفوس العباد : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[3] . ففي بعض المواضع يكون الحديث عنها خبرا مجردا ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[4] ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾[5] .

ومرة يؤكد وقوعها « بإن » كقوله : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾[6] ، ومرة

---

(١) سورة البقرة : ١٧٧ .

(٢) سورة النساء : ١٦١ .

(٣) سورة الرعد : ٢ .

(٤) سورة الروم : ١١ .

(٥) سورة النور : ٦٤ .

(٦) سورة طه : ١٥ .

« بإن » واللام ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[1] . ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[2] . وفي بعض المواضع ينفي الريب والشك عن وقوعها ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[3] .

وفي بعض الآيات يقسم الحق على أنها آتية واقعة مرة بنفسه ، ومرة بمخلوقاته العظيمة ، فمن إقسامه بنفسه ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[4] ، ومن إقسامة بالعظيم من مخلوقاته قوله : ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾[5] ، وقوله : ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾[6]. وفي بعض المواضع يأمر رسوله في مجال الحجاج والخصام بالإقسام بربه مؤكدا وقوعها ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[7] ، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾[8] وفي بعض الآيات يخبر بأنها حق ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾[9] ومن تتبع طريقة القرآن في تأكيد الإخبار بها تحصل عنده أنواع كثيرة ، وقد ذكرنا طائفة منها[10].

---

(١) سورة الحجر : ٨٥ .

(٢) سورة العنكبوت : ٥ .

(٣) سورة غافر : ٥٩ .

(٤) سورة النساء : ٨٧ .

(٥) سورة الذاريات : ١ - ٦ .

(٦) سورة الطور : ١ - ٨ .

(٧) سورة يونس : ٥٣ .

(٨) سورة سبأ : ٣ .

(٩) سورة لقمان : ٣٣ .

(١٠) قد يجتمع في الآية أكثر من مؤكد ، وإذا تأملت النصوص التي سقناها ظهر لك هذا وتبين .

المبحث الثاني

الساعة قريبة

أعلن رب العزة لعباده في كتابه المنزل منذ أربعة عشر قرنا أن الساعة قد اقتربت ، وآن أوان وقوعها ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾(١) ، وانشقاق القمر إحدى الأمارات الدالة على قرب وقوعها ، ولما كانت الساعة قد اقتربت قربا عظيما فإن القرآن يصور أنها أتت وحضرت ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾(٢) .

ولو كان البشر يوقنون بما أنزل الله بقلب مبصر ، وعقل حاضر مدرك لهالهم الأمر ، وملك عليهم نفوسهم ، ولذلك كان حالهم عجبا ، الخطر قريب قريب ، ومع ذلك فإنهم غافلون عن الهول الذي يكاد يطبق عليهم ، ويحيط بهم ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾(٣) ، ولذا فإنه قد كثر في القرآن تحذير العباد من الساعة ، والأمر بالاستعداد لها ، وعبر عنها بالغد ، وهو اليوم التالي لليوم الذي تعيش فيه ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾(٤) .

قد يقال : كيف يكون قريبا ما مضى على الإخبار بقرب وقوعه ألف وأربعمائة عام ؟ والجواب أنه قريب في علم الله وتقديره ، وإن كانت المقاييس البشرية تراه بعيدا ، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾(٥) .

---

(١) سورة القمر : ١ .

(٢) سورة النحل : ١ .

(٣) سورة الأنبياء : ١ ـ ٣ .

(٤) سورة الحشر : ١٨ .

(٥) سورة المعارج : ٦ ـ ٧.

والأمر الذي ينبغي أن ينتبه إليه أن الباقي من الدنيا قليل بالنسبة لما مضى منها ، فإنك إذا وضعت لمن لك عليه دين أجلاطويلا ، كأن تؤجله خمسين عاما مثلا ، فإذا انقضى من الخمسين خمسة وأربعون ، فيكون موعد السداد قد اقترب بالنسبة لما مضى من الموعد المضروب . والأحاديث النبوية الشريفة تشير إلى هذه الحقيقة التي بيناها هنا ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إنما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الأمم من صلاة العصر إلى مغرب الشمس » وفي لفظ : « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس » .

إن الحديث يمثل الوجود الإنساني بيوم من أيام الدنيا ، إبتدأ وجود الأمة الإسلامية فيه عند العصر ، فيكون الماضي من عمر الوجود الإنساني بنسبة ما مضى من ذلك اليوم من الفجر إلى العصر ، ويكون الباقي من عمر الزمن حتى تقوم الساعة كما بين العصر والمغرب ، ذلك أن النصوص صريحة الدلالة على أننا آخر الأمم وجودا ، وأن نهاية وجود هذه الأمة يتحقق بقيام الساعة .

وجاء في حديث آخر يرويه البخاري ومسلم عن سهل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت أنا والساعة كهاتين ، ويشير بأصبعيه فيمدهما » ، ورواه مسلم عن سهل بلفظ : « سمعت رسول الله ﷺ يشير بإصبعه التي تلي الإبهام والوسطى وهو يقول : « بعثت أنا والساعة هكذا »(١) .

والمعنى أننا لو قدرنا عمر الزمن بالأصبع الوسطى ، فإن ما بقي منه عند

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب قول النبي ﷺ : « بعثت أنا والساعة كهاتين » فتح الباري : (١١/٣٤٧) ، ورواه مسلم في كتاب الفتن ، باب قرب الساعة : (٤/٢٤٦٨) ورقمه : (٢٩٥٠) ، وقد رواه البخاري ومسلم أيضا عن أنس رضي الله عنه

مبعث الرسول ﷺ يكون بمقدار ما تزيد الوسطى عن السبابة ، وما مضى منه بمقدار السبابة من الأصبع الوسطى ، قد يكون الباقي في حس البشر طويلا ، لأن إدراكهم محدود ، ونظرتهم قاصرة ، ولكنه في ميزان الله قريب وقصير ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[1] ، ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾[2] وروى الإمام أحمد عن عتبة بن غزوان قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، قال : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم ، وولت حذاء ، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها ، وإنكم منتقلون منها إلى دار لازوال لها ، فانتقلوا منها بخير ما يحضرنكم . . . » انفرد به مسلم[3] .

---

(1) سورة النحل : ١ .

(2) سورة النحل : ٧٧ .

(3) تفسير ابن كثير : (٦/٤٦٨) .

المبحث الثالث

لا يعلم أحد وقت الساعة المعين

سئل الرسول ﷺ عن الساعة ، فقال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » وكان السائل جبريل متمثلا في صورة بشر ، فإذا كان أعلى الملائكة منزلة ، وهو جبريل ، وأعلى البشر منزلة وهو محمد ﷺ لا يعلمان متى تكون ـ فأحْرِ بأن لا يعرف أحد غيرهما وقت وقوعها .

وقد صرح القرآن أن وقت وقوعها من خصائص علم الله ، ولذا فإنه لم يطلع أحدا على وقت وقوعها ، لاملكا مقربا ، ولا نبيا مرسلا ، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١) ، وقال في الآية الأخرى : ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾(٢) ، وقال في سورة النازعات : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾(٣) وهذه الآيات واضحة الدلالة على أن معرفة الوقت الذي تكون فيه الساعة لا يعرفه إلا رب العزة ، وأنها تأتي بغتة ، وأن الرسول ﷺ لا يدري متى هي والساعة إحدى مفاتح الغيب الخمسة التي هي من مكنونات علم

(١) سورة الأعراف : ١٨٧ .

(٢) سورة الأحزاب : ٦٣ .

(٣) سورة النازعات : ٤٢ ـ ٤٤ .

الله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[1] ، وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ ، قال : « مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾[2] الآية »[3] .

---

(١) سورة لقمان : ٣٤ .

(٢) سورة لقمان : ٣٤ .

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب : ٣٧ .

المبحث الرابع

الحكمة من وراء إخفاء وقت وقوعها

قد يتساءل البشر قائلين : ما الحكمة من وراء إخفاء الوقت الذي تحل فيه الساعة ، وتقوم فيه القيامة ؟ والجواب أن إخفاءها له تعلق بصلاح النفس الإنسانية ، فوقوعها غيب ، والأمر العظيم الذي يستيقن المرء وقوعه ، ولكنه لا يدري متى يفجؤه، ويحل فيه بساحه ـ يجعل المرء مترقبا له باستمرار ، يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى : « والمجهول عنصر أساسي في حياة البشر ، وفي تكوينهم النفسي ، فلا بدَّ من مجهول في حياتهم يتطلعون إليه ، ولو كان كل شيء مكشوفا لهم وهم بهذه الفطرة ـ لوقف نشاطهم ، وأسنت حياتهم ، فوراء المجهول يجرون ، فيحذرون ، ويأملون ، ويجربون ، ويتعلمون . ويكشفون المخبوء من طاقاتهم وطاقات الكون من حولهم وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد يحفظهم من الشرود ، فهم لا يدرون متى تأتي الساعة ، فهم من موعدها على حذر دائم ، وعلى استعداد دائم ، ذلك لمن صحت فطرته واستقام ، فأما من فسدت فطرته واتبع هواه فيغفل ويجهل ، فيسقط ومصيره إلى الردى »[1] .

(١) اليوم الآخر في ظلال القرآن ، جمع واعداد أحمد فائز : ص ٩٨ .

المبحث الخامس
لا يجوز الاشتغال في تحديد وقتها

تساءل الناس عن وقت الساعة كثيرا ، ووجهوا أسئلتهم للرسول ﷺ ، وجاء الجواب من منزل الكتاب ، إن الساعة غيب ، ومعرفة الزمن الذي تقع فيه من خصائص علم الله ، ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾[1]. ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾[2]

إن هذا العلم لم يطلع الله عليه ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولذلك قال الرسول ﷺ لجبريل حينما سأله عن الساعة « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » .

فبالحث في هذا الأمر ، والزعم أن الساعة ستقع في عام بعينة تَقَوُّل على الله بغير علم ، والخائضون في ذلك مخالفون للمنهج القرآني النبوي الذي وجه الناس إلى ترك البحث في هذا الموضوع ، ودعاهم إلى الاستعداد لهذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح .

والذين يبحثون في هذا المجال يظنون أنه يمكنهم أن يعلموا مالم يعلمه الرسول ﷺ وجبريل عليه السلام ، وكفى بذلك واعظا ورادعا لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد ، ونحن نقول لهم : ينبغي أن يسعكم ما وسع الرسول

---

(١) سورة الأحزاب : ٦٣ .

(٢) سورة النازعات : ٤٢ ـ ٤٥ .

ﷺ وأصحابه وأئمة هذه الأمة على مدار التاريخ ، ولو كان في معرفة الوقت صلاح وخير للبشر ، لأخبر الله به البشر ، ولكنه حجب ذلك عنهم ، وفي ذلك صلاحهم .

وينبغي للاحقين أن يتعظوا بحال السابقين ، فبعض السابقين خاض في هذا الأمر ، وحدد للساعة أو بعض أشراطها القريبة من وقوعها أجلا ، وجاء الأجل الذي ضربه ، ولم يحدث شيء من ذلك ، لا الساعة ولا أشراطها المحددة ، فمن هؤلاء الطبري رحمه الله وغفر له ، فإنه استظهر من بعض النصوص أن فناء الدنيا يكون بعد خمسمائة عام من البعثة المحمدية[1] ، وها هو قد مرّ قرابة ألف عام على الأجل الذي ضربه ، ولم يصدق ظنه .

ومن هؤلاء العلامة السيوطي عفا الله عنه ، فإنه استظهر في جزء سماه « الكشف » أن الساعة ستقوم على رأس المائة الخامسة بعد الألف من البعثة النبوية[2] ، وها قد مضى على الموعد الذي حدده بضع سنين ، ولم تقع الساعة ، بل لم يقع كثير من أشراطها .

وجمع السهيلي الحروف المقطعة في أوائل السور ، وحذف المكرر منها ، وأخذ عددها بحساب الجمل ، وحدد بناء على ذلك أجلا لا يبلغ بضع مئات من السنين[3] .

وقد تَقَوّل كثير من الناس في هذا وخبطوا خبطا لا دليل عليه ، وإنما هي ظنون وتخرصات ، وآخر ما أطلعت عليه في ذلك ما كتبه دكتور بهائي مدعيا أن

---

(١) المقدمة لابن خلدون : ص ٥٩٠ .

(٢) لوامع الأنوار البهية : (٢/ ٦٦) .

(٣) المقدمة لابن خلدون : ص ٥٩١ .

الساعة ستقع في عام (١٧١٠) ، وقد زعم أنه استقى ذلك من الأرقام العددية للحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض سور القرآن ، ونحن نقول : إن هذا النهج قد ثبت خطؤه ، وقد اعتمد بعض من سبق على هذا النهج ، وحددوا أجلا غير أجله ، فوافقوه في النهج ، وخالفوه في تحديد الأجل ، وثبت كذب ما ذهبوا إليه .

وقد تعرض الشيخ العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وأجزل له المثوبة للذين بحثوا في هذا الأمر وخاضوا فيه ، وحددوا في ذلك أجلا ، فقال : « ومن تكلم في وقتها المعين مثل الذي صنف كتابا «سماه» « الدر المنظم في معرفة الأعظم » وذكر فيه عشر دلالات بين فيها وقتها ، والذين تكلموا على ذلك من حروف المعجم ، والذي تكلم في « عنقاء مُغْرب »[1] ، وأمثال هؤلاء ، فإنهم وإن كان لهم صورة عظيمة عند أتباعهم ، فغالبهم كاذبون مفترون[2] ، وقد تبين لديهم من وجوه كثيرة أنهم يتكلمون بغير علم ، وإن ادعوا في ذلك الكشف ومعرفة الأسرار ، وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[3][4] . ولا شك أن دعوى معرفة وقتها المحدد قول بلا علم .

(١) ابن عربي القائل بوحدة الوجود .

(٢) قال الشيخ : « غالبهم » لأن بعض الذي بحثوا في ذلك أخطؤوا ، ولم يقصدوا التضليل ، أمثال الطبري والسيوطي رحمهما الله .

(٣) سورة الأعراف : ٣٣ .

(٤) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٣٤٢/٤) .

المبحث السادس
إشكالات تتعلق بتحديد وقت الساعة

بينا فيما سبق أن وقت القيامة غيب لا يعلمه إلا الله ، ولكن يشكل على هذا أحاديث ظن بعض الناس أنها تحدد موعدها ، وهذه الأحاديث بعضها غير صحيح فلا يلتفت إليها ، ولا يجوز أن تعارض بها النصوص القطعية الثبوت القطعية الدلالة ، ومنها أحاديث صحيحة ، ولكن دلالتها على تحديد يوم القيامة غير صريحة .

فمن الأحاديث الباطلة المكذوبة المخالفة لصريح القرآن ـ كما يقول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى ـ حديث مقدار الدنيا « وأنها سبعة آلاف سنة ، ونحن في الألف السابعة » .

يقول ابن القيم : « وهذا من أبين الكذب ، لأنه لو كان صحيحا لكان كل أحد عالما أنه قد بقي من وقتنا هذا مئتان وواحد وخمسون سنة (أي في الوقت الذي كان يكتب فيه الشيخ ابن القيم مؤلفه) والله تعالى يقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾(١)(٢) .

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٧ .

(٢) المنار المنيف ، لابن القيم : ص ٨٠ .

أقول : ومما يدل على كذب هذا الحديث قطعا أن الألف السابعة هذه مضت وانقضت منذ أربعمائة سنة ، وكثير من أشراط الساعة لم يقع بعد .

ومن الأحاديث الصحيحة التي لا تدل على تحديد يوم القيامة ما رواه مسلم عن جابر بن عبدالله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قبل أن يموت بشهر : « تسألوني عن الساعة ، وإنما علمها عند الله ، وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مائة سنة وهي حيَّة يومئذ »[1] .

وفي الصحيحين عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة العشاء في آخر حياته ، فلما سلَّم قال : « أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد »[2] . إن التأمل في هذين الحديثين يدل دلالة واضحة على أن الرسول ﷺ لم يرد في أقواله هذه قيام الساعة ، وإنما أراد انقضاء القرن الذي هو فيه ، أي أنه بعد مائة عام يموت كل من كان حيًا عندما قال الرسول ﷺ ما قال ، وقد فقه هذا المعنى ابن عمر رضي الله عنه ، وفقَّه الناس به عندما ذهبوا مذاهب شتى في فهم معنى قول الرسول ﷺ ، ففي سنن الترمذي وسنن أبي داود بعد سياق عبدالله بن عمر لحديث الرسول ﷺ السابق ، قال : « فوهل الناس[3] في مقالة الرسول ﷺ تلك ، فيما يتحدثونه بهذه الأحاديث : نحو مائة سنة ، وإنما قال رسول الله ﷺ : « لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد ، يريد بذلك : أن ينخرم القرن »[4] .

وفي صحيح البخاري وصحيح مسلم عن عائشة ، قالت : « كان الأعراب

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٣٨٧) ، ورقم الحديث : (٧٨٩٠) ومعنى : نفس منفوسة : أي مولودة .
(٢) جامع الأصول : (١٠/٣٨٨) ، ورقم الحديث : (٧٨٩١) .
(٣) الوهل : الفزع ، أو ذهاب الفكر مذاهب بعيدة عن المراد .
(٤) صحيح الجامع : (١٠/٣٨٨) ، ورقم الحديث : (٧٨٩١) .

إذا قدموا على رسول الله ﷺ ، سألوه عن الساعة ، متى الساعة ؟ فينظر إلى أحدث إنسان منهم ، فيقول : إن يعش هذا ، إن يدركه الهرم ، حتى قامت عليكم الساعة » قال هشام : يعني موتهم[1] .

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، « أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : متى الساعة ؟ فسكت رسول الله ﷺ هنيهة ، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزدشنوأة ، فقال : إن عُمِّر هذا الغلام ، لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة ، قال أنس : وذلك الغلام من أترابي يومئذ »[2] . ومراد الرسول ﷺ في هذين الحديثين ساعة المخاطبين ، كما فسر ذلك هشام أحد رواة الحديث الأول : يعني موتهم ، فإنَّ ساعة كل إنسان موته ، وهذا الجواب من الرسول ﷺ يعرف بجواب الحكيم ، فإنه أرشدهم إلى الاستعداد للموت والتأهب له ، والموت قريب قريب .

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٣٨٩) . ورقمه (٧٨٩٢) .

(٢) جامع الأصول : (١٠/٣٨٩) ورقمه (٧٨٩٣) .

المبحث السابع

تعريف الأشراط والآيات

إذا كان الله قد أخفى وقت وقوع الساعة عن عباده ، فإنه أعلمهم بأمارات وعلامات تدل على قرب وقوعها .

وقد سمي القرآن هذه الأمارات بأشراط الساعة ، قال تعالى : ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾[1] .

و « الشَرَط » بفتحتين : العلامة ، وأشراطها : علاماتها[2] . وفي فتح الباري : « المراد بالأشراط : العلامات التي يعقبها قيام الساعة »[3] .

وقد أطلق بعض العلماء على هذه الأشراط اسم : « الآيات » .

و « الآيات » هي الأمارات الدالة على الشيء ، كالأمارات التي تنصب في الصحراء دالة على الطريق ، أو العلامات التي ترفع على شواطيء البحر ، تهدي السفن التي تمخض عباب الماء ، أو تلك التي توضع قريبا من المدن لتدل المسافر على قرب وصوله إلى الديار التي وضعت بقربها .

يقول الطيبي : « الآيات : إمارات للساعة ، إما على قربها ، وإما على حصولها . فمن الأول : الدجال ، ونزول عيسى ، ويأجوج ومأجوج ، والخسف . ومن الثاني : الدخان ، وطلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ، والنار التي تحشر الناس »[4] .

---

(١) سورة محمد : ١٨ .

(٢) مختار الصحاح : ٣٢٤ .

(٣) فتح الباري : (١٣/٧٩) .

(٤) فتح الباري : (١١/٣٥٢) .

المبحث الثامن

فائدة البحث في الأشراط والمغيبات المستقبلة

قد يقول قائل : لقد أتعبتم أنفسكم في النظر في أمور فائدتها قليلة ، والأولى بكم أن تهتموا بأمور المسلمين ومشكلاتهم ، بدلا من قضاء الأوقات الطوال في البحث عما يجري في مقبل الأزمان من الوقائع والحادثات . وقالوا : إنكم تهربون من الواقع الذي تعيشون فيه إلى عالم آخر تأملون أن تعيشوا فيه ، أو تخشوا أن يأتي عليكم ، وهذا هروب من مواجهة الحقائق والصعاب ونحن نقول لهم : ليس لنا خيار في دراسة الغيوب المستقبلة أو إهمالها ، فالأمر ليس لنا ، فالإطلاع على هذه الغيوب والتصديق بها من صميم الدين الذي جاء به رسولنا ﷺ ، أخبر ببعض منها القرآن ، وبعضها جاءت به السنة النبوية ، وَعَلِمَ ذلك كله الصحابة ، وشغلوا به أنفسهم ، واهتموا به اهتماما كبيرا ، وكان الإيمان بالغيب أول صفة مدح الله بها المتقين المهتدين الفائزين ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾(1) صحيح إن كثيرا من المسلمين شغلوا أنفسهم بالأخبار الغيبية التي لم يقم عليها دليل من الكتاب والسنة ، وأغرق في ذلك بعض الذين نسبوا إلى العلم ، ولكن الاشتغال بالنصوص الصحيحة هو جزء من هذا الدين الذي أنزله العليم الخبير .

ويمكننا أن نلوم الذين قعد بهم العمل من المسلمين انتظاراً لحدوث الواقعات التي أخبر بها الرسول ﷺ ؛ كالذين يتركون الجهاد انتظارا لخروج المهدي ، ولكن هذا

(1) سورة البقرة : ١ ـ ٣ .

خطأ يحتاج إلى تقويم ، ولا يوجب ترك النصوص الصحيحة ، فإن سلفنا الصالح مع إيمانهم بالغيب الصادق ، لم يقعدوا عن الجهاد ولم يتركوا العمل .

ويمكن أن يوجَّه لوم شديد للذين ينزلون ما أخبر به الرسول ﷺ من الغيوب على غير وقائعها ، فيحمِّلون النصوص مالا تحتمل ، ويدَّعون دعاوي يضلون بها العباد ، كالذين ادعوا المهدية على مدار التاريخ ، إلا أن هذا خطأ هؤلاء ، والخطأ يقوَّم ، ولا يدفعنا هذا الخطأ إلى انكار ما صحت به النصوص ، فالحق حق ، والباطل باطل ، ولا ندفع الباطل بإنكار الحق . والذين ينكرون علينا اشتغالنا بهذه النصوص الصحيحة في هذا الجانب نُوَجِّه أنظارهم إلى الجهود الهائلة التي يبذلها العلماء المعاصرون للكشف عن الغيب المجهول في الماضي البعيد ، والغيب المجهول في الحادثات المقبلة ، والغيب المجهول في الفضاء الذي يحيط بنا ، ولذلك نراهم يبحثون في آثار الماضيين ، وما أبقوه من كتابات وصنائع وخرائب ، ونراهم يهتمون بما يقوله المتنبئون والكهان والعرافون ، وما يقوله هؤلاء كذب لاتكاد تجد فيه للحقيقة مكان ، ونراهم يصنعون المناظر المكبرة ، والمراصد الهائلة ، بل ويرسلون الأقمار الصناعية لريادة الفضاء ، كي يعلموا ما لا يعلمون ، فإذا كان هذا هو حال البشر، يرغبون دائما في التعرف على ما لا يعرفون، ومعرفة الماضي والآتي ، ومعرفة الكون من حولهم ، أفلا يكون الاطلاع على حقائق الأمور من الجهة التي لا تكذب أبدا أولى وأحرى ! ! إن المعلومات التي جاءت بها النصوص في هذا المجال معلومات قيمة لا تقدر بثمن، ولكن البشرية تكابر كثيرا عندما ترفض الأخذ بخبر الوحي الصادق ، وتخسر كثيرا عندما تعرض عن هذه العلوم الطيبة ، ثم إن أقواما يريدوننا أن نبتعد عن دراسة هذا المجال من خلال نصوص الوحي ، بينما ـ هم ـ يلهثون وراء الأخبار التي يأتيهم بها علماء الغرب في هذا المجال ، وإن كان فيها خلط كثير ، وكذب كثير .

ويمكننا أن نوجز الفوائد التي نحصل عليها من وراء دراسة الأخبار التي تحدث بأشراط الساعة والمغيبات المستقبلة في الأمور التالية :

١ ــ الإيمان بهذه الأخبار ـ إذا تحققنا صدقها ـ هو من الإيمان بالله ، والإيمان برسوله ، إذ كيف نؤمن بالله ورسوله ثم لانصدق بخبرهما !! ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾(١) .

٢ ــ وقوع تلك المغيبات على النحو الذي حدثت به الأخبار يثبت الإيمان ويقويه ، فالمسلمون في كل عصر يشاهدون وقوع أحداث مطابقة لما أخبرت به النصوص الصادقة ، فقد شاهد الصحابة انتصار الروم على الفرس، ثم انتصر المسلمون على الفرس والروم ، وظهر الإسلام على جميع الأديان ، وشاهدوا فرقة الأمة في العام الذي حدده الرسول ﷺ ، وشاهدوا كثيرا من الأحداث على النحو الذي أخبرت به النصوص ، وكذلك الحال في كل عصر ، يشاهد المسلمون وقائع وأحداثاً جاءت بها الأخبار ، ولاشك أن هذا له أثر كبير في تثبيت المؤمن على إيمانه ، وقد يكون ذلك مدخلا لدعوة الآخرين إلى هذا الحق الذي جاءنا من ربنا .

٣ ــ تثبيت الإيمان بيوم القيامة ، فالقيامة وأهوالها من الغيب الذي أخبرنا به الله ورسوله ، والإيمان بها إحدى دعائم الإيمان ، ووقوع الوقائع في الدنيا على النحو الذي جاءت به النصوص دليل واضح بَيِّنٌ على صدق كل الأخبار ومنها أخبار الساعة . فالكل من عند الله تبارك وتعالى .

٤ ــ بعث الله رسوله دالا على الخير محذرا من الشر ،وقد دل الرسول ﷺ أصحابه على المنهج الأمثل الذي ينبغي أن يسلكوه في الوقائع التي وقعت في عصره .

---

(١) سورة البقرة : ٢ ، ٣ .

وفي إخباره بالمغيبات المقبلة توجيه للذين جاؤوا من بعده من أمته كيف يتصرفون حيال الأحداث التي قد يخفى عليهم وجه الحق فيها ، فعن عبدالله ابن عمرو بن العاص ، قال : « كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فنزلنا منزلا ، فمنا من يصلح خباءه ، ومنا من ينتضل ، ومنا من هو في جشرة ، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم ، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها ، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها ، وتجيء فتنة ، فيرقق بعضها بعضا ، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتي ، ثم تنكشف ، وتجيء الفتنة ، فيقول المؤمن : هذه ، هذه ، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت الناس الذي يحب أن يؤتى إليه ، ومن بايع إماما ، فأعطاه صفقة يده ، وثمرة قلبه ، فليطعه ما استطاع ، فإن جاء الآخر ينازعه ، فاضربوا عنق الآخر » رواه مسلم والسياق له والنسائي وابن ماجة وأحمد[1] .

ومن هذه التوجيهات التي كان لها أثر كبير في توجيه المسلمين إلى الحق تبشيره عثمان رضي الله عنه بالجنة على بلوى تصيبه ، وإخباره بأن عمارا تقتله الفئة الباغية ، وأمره أبا ذر بأن يعتزل الفتنة ، وأن لا يقاتل ولو قتل . ويمكن أن يستفاد هذا المعنى من حديث حذيفة حيث كان يسأل الرسول ﷺ عن الشر مخافة أن يدركه ، بينما أصحابه كانوا يسألون الرسول ﷺ عن الخير ، ومن هذا نهى الرسول ﷺ المسلمين عن أخذ شيء من جبل الذهب الذي ينحسر عنه الفرات في آخر الزمان ، وإخبارهم عن حقيقة الدجال ، وبيان ما يأتي به

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : حديث رقم (٢٤١) .

من الشبهات ، وغير ذلك من الكائنات التي يبصر الرسول ﷺ أمته بالتصرف الأمثل حيالها .

٥ ـ قد تمر بالمسلمين وقائع في مقبل الأيام تحتاج إلى بيان الحكم الشرعي فيها ، ولو ترك المسلمون إلى اجتهادهم ـ فإنهم قد يختلفون ، وقد لا يهتدون إلى الصواب ، بل قد يكون بيان الحكم الشرعي في تلك الأحداث واجب لا بدَّ منه ، وعدم البيان يكون نقصا تنزه الشريعة عنه . فمن ذلك أن الرسول ﷺ أخبر أن الدجال يمكث في الأرض أربعين يوما ، يوم من أيامه كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كأسبوع ، وبقية أيامه كأيامنا ، وقد سأل الصحابة الرسول ﷺ عن تلك الأيام الطويلة أتكفي في الواحد منها صلاة يوم ، قال الرسول ﷺ : لا ، اقدروا له قدره ، ولو وكل العباد إلى اجتهادهم لأقتصروا على الصلوات الخمس عند الأوقات المعروفة في غير هذه الأيام . وأخبر الرسول ﷺ أن عيسى بعد نزوله لا يقبل الجزية من اليهود والنصارى ، ولا يقبل منهم إلا الإيمان ، وهذا البيان من الرسول ﷺ ضروري ، لأن عيسى يحكم بهذا الشرع ، وهذا الشرع فيه قبول الجزية ممن بذلها إلى حين نزول عيسى بن مريم وحين ذاك توضع الجزية ، ويقتل كل من رفض الإيمان ، ولو بذل الجزية .

٦ ـ التطلع إلى ما يحدث في المستقبل أمر فطري فالإنسان يجد في نفسه رغبة شديدة في معرفة الوقائع والكائنات التي قد تحدث للجنس الإنساني ، أو تحدث للأمة التي هو منها ، أو قد تحدث له ، ولذلك فإن الزعماء والرؤساء بل والأفراد يلجؤون في معرفة ذلك إلى السحرة والكهان والمنجمين ، فجاءهم الله بالحق الذي يغني ويكفي ويشفي في هذا الجانب ، وقد تعرض ابن خلدون لهذه الفائدة في مقدمة تاريخه ، فقال :

« اعلم أن من خواص النفوس البشرية التشوُّف إلى عواقب أمورهم . وعلم ما يحدث لهم من حياة وموتٍ وخيرٍ وشرٍ ، سيما الحوادث العامة كمعرفة ما بقي من الدنيا ، ومعرفة مدد الدول أو تفاوتها ، والتطلع إلى هذا طبيعة للبشر مجبولون عليها . ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوفون إلى الوقوف على ذلك في المنام . والأخبار من الكهان لمن قصدهم بمثل ذلك من الملوك والسوقة معروفة . ولقد نجد في المدن صنفا من الناس ينتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه ، فينتصبون لهم في الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه . فتغدو عليهم وتروح نسوان المدينة وصبيانها ، وكثير من ضعفاء العقول ، يستكشفون عواقب أمرهم ، في الكسب والجاه والمعاش والمعاشرة والعداوة وأمثال ذلك ، مابين خط في الرمل ويسمونه المنجم ، وطرق بالحصى والحبوب ويسمونه الحاسب ، ونظر في المرايا والمياه ويسمونه ضارب المندل وهو من المنكرات الفاشية في الأمصار ، لما تقرر في الشريعة من ذم ذلك ، وأن البشر محجوبون عن الغيب إلا من أطلعه الله عليه من عنده في نومٍ أو ولاية .

وأكثر ما يعتني بذلك ويتطلع إليه الأمراء والملوك في آماد دولتهم ، ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم إليه . وكل أمةٍ من الأمم يوجد لهم كلامٌ من كاهن أو منجم أو ولي في مثل ذلك من ملك يرتقبونه أو دولة يحدثون أنفسهم بها ، وما يحدث لهم من الحرب والملاحم ، ومدة بقاء الدولة ، وعدد الملوك فيها ، والتعرض لأسمائهم ، ويسمى مثل ذلك الحدثان .

وكان في العرب الكهان والعرافون يرجعون إليهم في ذلك وقد أخبروا بماسيكون للعرب من الملك والدولة ، كما وقع لشق ، وسطيح في تأويل رؤيا ربيعة ابن نصر من ملوك اليمن ، أخبرهم بملك الحبشة بلادهم ، ثم رجوعها إليهم ، ثم ظهور الملك والدولة للعرب من بعد ذلك . وكذا تأويل سطيح لرؤيا الموبذان حين

بعث إليه كسرى بها مع عبدالمسيح ، وأخبرهم بظهور دولة العرب . وكذا كان في جيل البربر كهان من أشهرهم موسى بن صالح من بني يِفْرَنْ ، ويقال من غمرة ، وله كلمات حدثانية على طريقة الشعر برطانتهم وفيها حدثان كثير ، ومعظمه فيما يكون لزناته من الملك والدولة بالمغرب وهي متداولة بين أهل الجبل ، وهم يزعمون تارة أنه ولي ، وتارة أنه كاهن ، وقد يزعم بعض مزاعمهم أنه كان نبيا ، لأن تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير . والله أعلم »(١) .

---

(١) المقدمة لابن خلدون : ص ٥٨٧ ـ ٥٨٨ .

المبحث التاسع

أقسام علامات الساعة

وردت أحاديث كثيرة عدد فيها الرسول ﷺ جملة من أشراط الساعة ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة ، دعوتهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين ، كلهم يزعم أنه رسول الله ، وحتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ؛ ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج وهو القتل ، وحتى يكثر فيكم المال ، فيفيض حتى يُهِمَّ رب المال من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه ، فيقول الذي يعرضه عليه : لا أرب لي به ، وحتى يتطاول الناس في البنيان ، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل ، فيقول : يا ليتني مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ، ورآها الناس آمنوا أجمعين ، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت في إيمانها خيراً »[1].

وفي صحيح البخاري عن عوف بن مالك رضي الله عنه ، قال : « أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة أدم ، فقال : اعدد ستا بين يدي الساعة : موتي ، ثم فتح بيت المقدس ، ثم موتان يأخذ فيكم كقُعَاص الغنم[2] ، ثم

---

(١) رواه البخاري في كتاب الفتن ، حديث رقم (٧١٢٠) ، فتح الباري : (٨١/١٣) ، وقد رواه مسلم في صحيحه مفرقاً ، وقد جمع رواياته ابن الأثير في جامع الأصول : (٤٠٤/١٠) ، ورقم الحديث : (٧٩٢٠) .

(٢) الموتان بضم الميم : موت يقع في الماشية فيهلكها ، و (القُعاص) داء يأخذ الغنم ، لا يلبثها أن تموت .

استفاضة المال ، حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر ، فيغدرون ، فيأتونكم تحت ثمانين غاية(١) ، تحت كل غاية إثنا عشر ألفا »(٢) .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أشراط السّاعة الفُحش ، والتَفَحُّش ، وقطيعة الرحم ، وتخوين الأمين ، وإئتمان الخائن » رواه البزار ، ورواه الطبراني في الأوسط عن أنس ، ورواه أحمد والبزار عن ابن عمرو(٣) . وعن عبدالله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أشراط الساعة أن يمر الرجل في المسجد ، لا يصلي فيه ركعتين ، وأن لا يسلم الرجل إلا على من يعرف »(٤) رواه الطبراني .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من أشراط الساعة أن يتباهى الناس في المساجد » رواه أبو داود ، وأحمد في مسنده ، والدارمي ، وابن خزيمة(٥) .

وهذه الأشراط التي ذكرها الرسول ﷺ في هذه الأحاديث وفي أحاديث أخرى كثيرة قسمها أهل العلم إلى قسمين :

---

(١) الغاية : الراية .
(٢) رواه البخاري في صحيحه ، انظر جامع الأصول : (١٠/٤١١) ، رقم الحديث : (٧٩٢٧) .
(٣) صحيح الجامع الصغير : ٥/٢١٣ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) المصدر السابق .

علامات صغرى ، وعلامات كبرى .

والعلامات الصـغرى يمكن تقسيمها إلى قسمين : قسم وقع ، وقسم لم يقع بعد .

والذي وقع قد يكون مضى وانقضى ، وقد يكون ظهوره ليس مرة واحدة ، بل يبدو شيئا فشيئا ، وقد يتكرر وقوعه وحصوله ، وقد يقع منه في المستقبل أكثر مما وقع في الماضي .

ولذلك سنعقد لعلامات الساعة أربعة فصول :

الأول : العلامات الصغرى التي وقعت وانقضت .

الثاني : العلامات الصغرى التي وقعت ، ولاتزال مستمرة ، وقد يتكرر وقوعها .

الثالث : العلامات الصغرى التي لم تقع بعد .

الرابع : العلامات الكبرى .

الفصل الثاني

علامات الساعة التي وقعت

ونعني بها العلامات التي وقعت وانقضت ولن يتكرر وقوعها ، وهي كثيرة وسنذكر بعضا منها .

المبحث الأول

بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ووفاته

من أشراط الساعة بعثة الرسول ﷺ ووفاته ، ففي الحديث عند البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال : « رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا ، الوسطى والتي تلي الإبهام . وقال : بعثت أنا والساعة كهاتين » .

وفي رواية قال : « بعثت أنا والساعة كهاتين ، ويشير بأصبعيه ، يمدهما »[1] وفي صحيحي البخاري ومسلم وسنن الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت أنا والساعة كهاتين ، كفضل إحداهما على الأخرى ، وضم السبابة والوسطى »[2] .

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٣٨٤) .

(٢) جامع الأصول : (١٠/٣٨٤) .

وفي كتب السيرة أن اليهود كانوا يحدثون عن الرسول ﷺ أنه يبعث مع الساعة .

وقد مضى قريبا حديث عوف بن مالك عند البخاري الذي قال له الرسول ﷺ فيه : « اعدد ستا بين يدي الساعة : موتى » .

وقد روى الإمام أحمد في مسنده بإسناد صحيح عن أبي جبيرة عن رسول الله ﷺ قال : « بعثت في نسم الساعة »[1] .

« ونسم الساعة » كما يقول ابن الأثير : هو من النسيم أول هبوب الريح الضعيفة . أي بعثت في أول أشراط الساعة وضعف مجيئها .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/٤٦٧) . ورقم الحديث : ٨٠٨ .

المبحث الثاني

انشقاق القمر

اتفق العلماء على أن القمر قد انشق في عهد الرسول ﷺ ، وأن انشقاقه إحدى المعجزات الباهرات(١) ، وقد صرح القرآن بهذا في قوله تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾(٢) .

قال النووي : « قال القاضي : انشقاق القمر من أمهات معجزات نبينا ﷺ ، وقد رواها عدة من الصحابة رضي الله عنهم ، مع ظاهر الآية الكريمة وسياقها ، قال الزجاج : وقد أنكرها بعض المبتدعة المضاهين المخالفي الملة ، وذلك لما أعمى الله قلبه ، ولا إنكار للعقل فيها ، لأن القمر مخلوق لله تعالى يفعل فيه ما يشاء كما يفنيه ويكوّره في آخر أمره . . »(٣) .

وقد ساق ابن كثير الأحاديث الواردة في انشقاق القمر في تفسير سورة القمر ، وهي أحاديث صحيحة كثيرة(٤) ، وقد ساقها مسلم في صحيحه ، ومنها حديث أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر

---

(١) تفسير ابن كثير : (٦/٤٦٩) .

(٢) سورة القمر : ١ ، ٢ .

(٣) شرح النووي على مسلم : (١٧/١٤٣) .

(٤) تفسير ابن كثير : (٦/٤٦٩) .

مرتين[1] ، ومنها حديث عبدالله بن مسعود قال : « انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ بشقين ، فقال رسول الله ﷺ : « اشهدوا ، اشهدوا » وفي رواية أخرى عنه ، قال : « بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى إذ انفلق القمر فلقتين ، فكانت فلقة وراء الجبل ، وفلقة دونه ، فقال لنا رسول الله ﷺ : اشهدوا »[2] .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، باب انشقاق القمر ، (٤/٢١٥٩) ، حديث رقم (٢٨٠٢) .
(٢) رواه مسلم ، باب انشقاق القمر ، (٤/٢١٥٨) ، ورقم الحديث (٢٨٠٠) .

المبحث الثالث

نار الحجاز التي أضاءت أعناق الإبل ببصرى

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة ، حتى تخرج نارٌ من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى »[1] .

وهذه الآية العظيمة التي أخبر الصادق المصدوق بوقوعها في مقبل الزمان وقعت على الصورة التي أخبر بها الرسول ﷺ ، وقد كان خروجها في سنة (٦٥٤) للهجرة النبوية .

وقد تحدث العلامة المؤرخ ابن كثير في أحداث سنة (٦٥٤) عن هذه النار فقال :

فيها كان ظهور النار من أرض الحجاز التي أضاءت لها أعناق الإبل ببصرى ، كما نطق بذلك الحديث المتفق عليه ، وقد بسط القول في ذلك الشيخ الإمام العلامة الحافظ شهاب الدين أبو شامة المقدسي في كتابه « الذيل وشرحه » ، واستحضره من كتب كثيرة وردت متواترة إلى دمشق من الحجاز بصفة أمر هذه النار

---

(١) الحديث رواه البخاري ، كتاب الفتن ، باب خروج النار ، فتح الباري :(١٣/٧٨)، ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب لاتقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز ، حديث رقم (٢٩٠٢) (٤/٢٢٢٧) ، وبصرى كما يقول النووي (النووي على مسلم : (١٨/ ٣٠) : « مدينة معروفة بالشام ، وهي مدينة حوران ، بينها وبين دمشق ثلاث مراحل » وقد ذكر المؤرخون أن الأمر وقع كما أخبر الرسول ﷺ فقد أضاءت أعناق الإبل ببصرى ، وكان طلبة العلم يقرؤون على ضوئها في كثير من البلاد النائية عن المدينة .

التي شوهدت معاينة ، وكيفية خروجها وأمرها . وملخص ما أورده أبو شامة[1] أنه قال : وجاء إلى دمشق كتب من المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، بخروج نار عندهم في خامس جمادى الآخر من هذه السنة ، وكتبت الكتب في خامس رجب ، والنار بحالها ، ووصلت الكتب إلينا في عاشر شعبان ثم قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ورد إلى مدينة دمشق في أوائل شعبان من سنة أربع وخمسين وستمائة كتب من مدينة رسول الله ﷺ ، فيها شرح أمر عظيم حدث بها تصديق لما في الصحيحين من حديث أبي هريرة . قال قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى » فأخبرني من أثق به ممن شاهدها أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب . قال وكنا في بيوتنا تلك الليالي ، وكأن في دار كل واحد منا سراج ، ولم يكن لها حر ولفح على عظمها ، إنما كانت آية من آيات الله عز وجل » .

قال أبو شامة : وهذه صورة ما وقفت عليه من الكتب الواردة فيها :

« لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ظهر بالمدينة النبوية دوى عظيم ، ثم زلزلة عظيمة رجفت منها الأرض والحيطان والسقوف والأخشاب والأبواب ، ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور ، ثم ظهرت نار عظيمة في الحرة قريبة من قريظة نبصرها من دورنا من داخل المدينة كأنها عندنا ، وهي نار عظيمة إشعالها أكثر من ثلاث منارات ، وقد سالت أودية بالنار إلى وادي شظا مسيل الماء ، وقد سدت مسيل شظا وما عاد يسيل ، والله لقد طلعنا جماعة نبصرها فإذا الجبال تسيل نيرانا ، وقد سدت الحرة

---

(١) كان أبو شامة معاصرا لخروجها .

طريق الحاج العراقي ، فسارت إلى أن وصلت إلى الحرة ، فوقفت بعدما أشفقنا أن تجيء إلينا ، ورجعت تسيل في الشرق ، فخرج من وسطها سهود وجبال نيران تأكل الحجارة ، فيها أنموذج عما أخبر الله تعالى في كتابه ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ (١) .

وقد أكلت الأرض ، وقد كتبت هذا الكتاب يوم خامس رجب سنة أربع وخمسين وستمائة والنار في زيادة ما تغيرت ، وقد عادت إلى الحرار في قريظة طريق عير الحاج العراقي إلى الحرة كلها نيران تشتعل نبصرها في الليل من المدينة كأنها مشاعل الحاج . وأما أم النار الكبيرة فهي جبال نيران حمر ، والأم الكبيرة التي سالت النيران منها من عند قريظة ، وقد زادت وما عاد الناس يدرون أي شيء يتم بعد ذلك ، والله يجعل العاقبة إلى خير ، فما أقدر أصف هذه النار » .

قال أبو شامة : « وفي كتاب آخر :ظهر في أول جمعة من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ووقع في شرق المدينة المشرَّفة نار عظيمة بينها وبين المدينة نصف يوم : انفجرت من الأرض وسال منها واد من نار حتى حاذى جبل أحد ، ثم وقفت وعادت إلى الساعة ، ولا ندري ماذا نفعل، ووقت ما ظهرت دخل أهل المدينة إلى نبيهم عليه الصلاة والسلام مستغفرين تائبين إلى ربهم تعالى ، وهذه دلائل القيامة » .

قال « وفي كتاب آخر : لما كان يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة ، سنة أربع وخمسين وستمائة وقع بالمدينة صوت يشبه صوت الرعد البعيد تارة وتارة ، أقام على هذه الحالة يومين ، فلما كانت ليلة الأربعاء ثالث الشهر المذكور تعقب الصوت الذي كنا نسمعه زلازل ، فلما كان يوم الجمعة خامس الشهر المذكور انبجست

---

(١) سورة المرسلات : ٣٢ ـ ٣٣ .

الحرة بنار عظيمة يكون قدرها مثل مسجد رسول الله ﷺ ، وهي برأى العين من المدينة ، نشاهدها وهي ترمي بشرر كالقصر ، كما قال الله تعالى : وهي بموضع يقال له أجيلين . وقد سال من هذه النار واد يكون مقداره أربع فراسخ ، وعرضه أربعة أميال ، وعمقه قامة ونصف ، وهي تجري على وجه الأرض ويخرج منها أمهاد وجبال صغار ، وتسير على وجه الأرض وهو صخر يذوب حتى يبقى مثل الآنك . فإذا جمد صار أسود ، وقبل الجمود لونه أحمر ، وقد حصل بسبب هذه النار إقلاع عن المعاصي ، والتقرب إلى الله تعالى بالطاعات ، وخرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة إلى أهلها » .

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة ، « ومن كتاب شمس الدين بن سنان بن عبدالوهاب بن نميلة الحسيني قاضي المدينة إلى بعض أصحابه : لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة حدث بالمدينة بالثلث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها ، وباتت باقي تلك الليلة تزلزل كل يوم وليلة قدر عشر نوبات ، والله لقد زلزلت مرة ونحن حول حجرة رسول الله ﷺ اضطرب لها المنبر إلى أن أوجسنا منه إذ سمعنا صوتا للحديد الذي فيه ، واضطربت قناديل الحرم الشريف ، وتمت الزلزلة إلى يوم الجمعة ضحى ، ولها دوى مثل دوى الرعد القاصف ، ثم طلع يوم الجمعة في طريق الحرة في رأس أجيلين نار عظيمة مثل المدينة العظيمة ، وما بانت لنا إلا ليلة السبت ، وأشفقنا منها وخفنا خوفا عظيما ، وطلعت إلى الأمير كلمته وقلت له : قد أحاط بنا العذاب ، ارجع إلى الله تعالى ، فأعتق كل مماليكه ، ورد على جماعة أموالهم ، فلما فعل ذلك قلت اهبط الساعة معنا إلى النبي ﷺ ، فهبط وبتنا ليلة السبت والناس جميعهم والنسوان وأولادهم ، وما بقي أحد لا في النخيل ولا في المدينة إلا عند النبي ﷺ ، ثم سال منها نهر من نار ، وأخذ في وادي أجيلين وسد الطريق ، ثم طلع إلى بحرة الحاج وهو بحر نار يجري ، وفوقه جمر يسير إلى أن

قطعت الوادي وادي الشظا ، وما عاد يجيء في الوادي سيل قط لأنها حصرته نحو قامتين وثلث علوها .

والله يا أخي إن عيشتنا اليوم مكدرة والمدينة قد تاب جميع أهلها ، ولا بقي يسمع فيها رباب ولا دف ولا شرب ، وتمت النار تسيل إلى أن سدت بعض طريق الحاج وبعض بحرة الحاج ، وجاء في الوادي إلينا منها يسير ، وخفنا أنه يجيئنا فاجتمع الناس ودخلوا على النبي ﷺ وتابوا عنده جميعهم ليلة الجمعة ، وأما قتيرها الذي مما يلينا فقد طفيء بقدرة الله ، وأنها إلى الساعة وما نقصت إلا ترى مثل الجمال حجارة ، ولها دوى ، ما يدعنا نرقد ، ولا نأكل ، ولا نشرب ،وما أقدر أصف لك عظمها ولا مافيها من الأهوال .

وأبصرها أهل ينبع وندبوا قاضيهم ابن أسعد وجاء وعدا إليها ، وما أصبح يقدر يصفها من عظمها ، وكتب الكتاب يوم خامس رجب ، وهي على حالها ، والناس منها خائفون ، والشمس والقمر من يوم ما طلعت ما يطلعان إلا كاسفين ، فنسأل الله العافية » .

قال أبو شامة : وبان عندنا بدمشق أثر الكسوف من ضعف نورها على الحيطان ، وكنا حيارى من ذلك إيش هو ؟ إلى أن جاءنا هذا الخبر عن هذه النار .

قلت : وكان أبو شامة قد أرخ قبل مجيء الكتب بأمر هذه النار ، فقال : وفيها في ليلة الإثنين السادس عشر من جمادى الآخرة خسف القمر أول الليل ، وكان شديد الحمرة ثم انجلى ، وكسفت الشمس ، وفي غده احمرت وقت طلوعها وغروبها ، وبقيت كذلك أياماً متغيرة اللون ضعيفة النور ، والله على كل شيء قدير ، ثم قال : واتضح بذلك ما صوره الشافعي من اجتماع الكسوف والعيد ، واستبعده أهل النجامة .

ثم قال أبو شامة : « ومن كتاب آخر من بعض بني الفاشاني بالمدينة يقول فيه : وصل إلينا في جمادى الآخرة نجابة من العراق وأخبروا عن بغداد أنه أصابها غرق عظيم ، حتى طفح الماء من أعلى أسوار بغداد إليها ، وغرق كثير منها ، ودخل الماء دار الخلافة وسط البلد ، وانهدمت دار الوزير وثلثمائة وثمانون داراً ، وانهدم مخزن الخليفة ، وهلك من خزانة السلاح شيء كثير ، وأشرف الناس على الهلاك ، وعادت السفن تدخل إلى وسط البلدة ، وتخترق أزقة بغداد .

قال وأما نحن فإنه جرى عندنا أمر عظيم : لما كان بتاريخ ليلة الأربعاء الثالث من جمادى الآخرة ومن قبلها بيومين ، عاد الناس يسمعون صوتا مثل صوت الرعد ، فانزعج لها الناس كلهم ، وانتبهوا من مراقدهم وضج الناس بالاستغفار إلى الله تعالى، وفزعوا إلى المسجد وصلوا فيه ، وتمت ترجف بالناس ساعة بعد ساعة إلى الصبح ، وذلك اليوم كله يوم الأربعاء وليلة الخميس كلها وليلة الجمعة ، وصبح يوم الجمعة ارتجت الأرض رجة قوية إلى أن اضطرب منار المسجد بعضه ببعض ، وسمع لسقف المسجد صرير عظيم ، وأشفق الناس من ذنوبهم ، وسكنت الزلزلة بعد صبح يوم الجمعة إلى قبل الظهر .

ثم ظهرت عندنا بالحرة وراء قريظة على طريق السوارقية بالمقاعد مسيرة من الصبح إلى الظهر نار عظيمة تنفجر من الأرض ، فارتاع لها الناس روعة عظيمة ، ثم ظهر لها دخان عظيم في السماء ينعقد حتى يبقى كالسحاب الأبيض ، فيصل إلى قبل مغيب الشمس من يوم الجمعة ، ثم ظهرت النار لها ألسن تصعد في الهواء إلى السماء حمراء كأنها القلعة ، وعظمت وفزع الناس إلى المسجد النبوي وإلى الحجرة الشريفة ، واستجار الناس بها وأحاطوا بالحجرة ، وكشفوا رؤوسهم، وأقروا بذنوبهم ، وابتهلوا إلى الله تعالى ، واستجاروا بنبيه عليه الصلاة والسلام ، وأتى

الناس إلى المسجد من كل فج ومن النخل ، وخرج النساء من البيوت والصبيان ، واجتمعوا كلهم وأخلصوا إلى الله ، وغطت حمرة النار السماء كلها ، حتى بقي الناس في مثل ضوء القمر ، وبقيت السماء كالعلقة ، وأيقن الناس بالهلاك أو العذاب ، وبات الناس تلك الليلة بين مصل وتال للقرآن وراكع وساجد ، وداع إلى الله عز وجل ، ومتنصل من ذنوبه ومستغفر وتائب ، ولزمت النار مكانها وتناقص تضاعفها ذلك ولهيبها .

وصعد الفقيه والقاضي إلى الأمير يعظونه ، فطرح المكس وأعتق مماليكه كلهم وعبيده ، ورد علينا كل مالنا تحت يده ، وعلى غيرنا ، وبقيت تلك النار على حالها تلتهب التهابا ، وهي كالجبل العظيم ارتفاعا ، وكالمدينة عرضا ، يخرج منها حصى يصعد في السماء ، ويهوي فيها ، ويخرج منها كالجبل العظيم نار ترمي كالرعد . وبقيت كذلك أياما ثم سالت سيلاناً إلى وادي أجلين تنحدر مع الوادي إلى الشظا ، حتى لحق سيلانها بالبحرة بحرة الحاج ، والحجارة معها تتحرك وتسير حتى كادت تقارب حرة العريض ، ثم سكنت ووقفت أياماً، ثم عادت ترمي بحجارة خلفها وأمامها ، حتى بنت لها جبلين وما بقي يخرج منها من بين الجبلين لسان لها أياما ، ثم إنها عظمت وسناءها إلى الآن ، وهي تتقد كأعظم ما يكون ، ولها كل يوم صوت عظيم في آخر الليل إلى ضحوة ، ولها عجائب ماأقدر أن أشرحها لك على الكمال ، وإنما هذا طرف يكفي والشمس والقمر كأنهما منكسفان إلى الآن . وكتب هذا الكتاب ولهاشهر وهي في مكانها ما تتقدم ولا تتأخر » .

وقد قال فيها بعضهم أبياتاً :

يا كاشف الضر صفحاً عن جرائمنا ❊ لقد أحاطت بنا يا ربُ بأساء
نشكو إليكَ خطوباً لا نطيقُ لها ❊ حملاً ونحن بها حقاً أحقاءَ

زلازل تخشعُ الصُم الصلابُ لها * وكيف يقوى على الزلزالِ شماءُ
أقامَ سبعاً يرج الأرض فانصدعت * عن منظرٍ منه عينُ الشمسِ عشواءُ
بحرٌ من النارِ تجري فوقهُ سفنٌ * من الهضابِ لها في الأرضِ أرساءُ
كأنما فوقُه الأجبال طافيةٌ * موجٌ عليه لفرط البهج وعثاءُ
ترمى لها شرراً كالقصرِ طائشةً * كأنها ديمةٌ تنصب هطلاءُ
تنشقُ منها قلوبُ الصخرِ إن زفرت * رعباً وترعدُ مثلُ السعفِ أضواءُ
منها تكاثف في الجوِ الدخانَ إلى * أن عادت الشمسُ منه وهي دهماءُ
قد أثرت سفعةٌ في البدرِ لفحتها * فليلةُ التم بعدَ النورِ ليلاءُ
تحدث النيراتُ السبعُ ألسنها * بما يلاقي بها تحتَ الثرى الماءُ
وقد أحاطَ لظاها بالبروجِ إلى * أن كادَ يلحقها بالأرض إهواءُ
فيالها آيةٌ من معجزاتِ رسو * لِ الله يعقلها القومُ الألباءُ
فباسمكَ الأعظمِ المكنونِ إن عظمتْ * منا الذنوبُ وساءَ القلبُ أسواءُ
فاسمح وهب وتفضل وامحُ واعفُ وجدْ * واصفحْ فكل لفرطِ الجهلِ خطاءُ
فقومُ يونسَ لما آمنوا كشفَ الـ * ـعذابَ عنهم وعمَّ القوم نعماءُ
ونحنُ أمةُ هذا المصطفى ولنا * منهُ إلى عفوكَ المرجوِ دعاءُ
هذا الرسولُ الذي لولاهُ ما سلكت * محجةٌ في سبيلِ الله بيضاءُ
فارحم وصلِّ على المختارِ ما خطبت * على علا منبرِ الأوراقِ ورقاءُ

قلت : والحديث الوارد في أمر هذه النار مخرج في الصحيحين من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى » وهذا لفظ البخاري .

وقد وقع هذا في هذه السنة ـ أعني سنة أربع وخمسين وستمائة ـ كما ذكرنا ، وقد أخبرني قاضي القضاة صدر الدين علي بن أبي القاسم التميمي الحنفي الحاكم بدمشق في بعض الأيام في المذاكرة ، وجرى ذكر هذا الحديث وما كان من أمر هذه النار في هذه السنة فقال : سمعت رجلا من الأعراب يخبر والدي ببصرى في تلك الليالي أنهم رأوا أعناق الإبل في ضوء هذه النار التي ظهرت في أرض الحجاز .

قلت : وكان مولده في سنة ثنتين وأربعين وستمائة ، وكان والده مدرساً للحنفية ببصرى ، وكذلك كان جده ، وهو قد درس بها أيضاً ثم انتقل إلى دمشق فدرس بالصادرية وبالمعدمية ، ثم ولي قضاء القضاة الحنفية ، وكان مشكور السيرة في الأحكام ، وقد كان عمره حين وقعت هذه النار بالحجاز ثنتا عشرة سنة ، ومثله ممن يضبط ما يسمع من الخبر أن الأعرابي أخبر والده في تلك الليالي ، وصلوات الله وسلامه على نبيه سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

ومما نظمه بعض الشعراء في هذه النار الحجازية وغرق بغداد قوله :

سبَحان من أصبحت مشيئته * جاريةً في الورى بمقدارِ
أغرق بغدادَ بالمياهِ كما * أحرقَ أرضَ الحجازِ بالنارِ

قال أبو شامة : والصواب أن يقال :

في سنةٍ أغرق العراقَ وقد * أحرقَ أرضَ الحجازَ بالنارِ

وقال ابن الساعي في تاريخ سنة أربع وخمسين وستمائة : في يوم الجمعة ثامن عشر رجب ـ يعني من هذه السنة ـ كنت جالساً بين يدي الوزير فورد عليه كتاب من مدينة الرسول ﷺ ، صحبة قاصد يعرف بقيماز العلوي الحسني المدني ، فناوله الكتاب فقرأه وهو يتضمن أن مدينة الرسول ﷺ زلزلت يوم الثلاثاء ثاني جمادى الآخرة حتى ارتج القبر الشريف النبوي ، وسمع صرير الحديد ، وتحركت

السلاسل ، وظهرت نار على مسيرة أربع فراسخ من المدينة ، وكانت ترمي بزبد كأنهرؤوس الجبال ، ودامت خمسة عشر يوما .

قال القاصد : وجئتولم تنقطع بعد ، بل كانت على حالها ، وسأله إلى أي الجهات ترمي ؟ فقال : إلى جهة الشرق ، واجتزت عليها أنا ونجابة اليمن ورمينا فيها سعفة فلم تحرقها ، بل كانت تحرق الحجارة وتذيبها . وأخرج قيماز المذكور شيئا من الصخر المحترق وهو كالفحم لونا وخفة .

قال وذكر في الكتاب وكان بخط قاضي المدينة أنهم لما زلزلوا دخلوا الحرم وكشفوا رؤوسهم واستغفروا ،وأن نائب المدينة أعتق جميع مماليكه ، وخرج من جميع المظالم ، ولم يزالوا مستغفرين حتى سكنت الزلزلة ، إلا أن النار التي ظهرت لم تنقطع . وجاء القاصد المذكور ولها خمسة عشر يوما وإلى الآن .

قال ابن الساعي : وقرأت بخط العدل محمود بن يوسف الأمعاني شيخ حرم المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، يقول : إن هذه النار التي ظهرت بالحجاز آية عظيمة ، وإشارة صحيحة دالة على اقتراب الساعة ، فالسعيد من انتهز الفرصة قبل الموت ، وتدارك أمره بإصلاح حاله مع الله عز وجل قبل الموت . وهذه النار في أرض ذات حجر لاشجر فيها ولا نبت ، وهي تأكل بعضها بعضاً إن لم تجد ما تأكله ، وهي تحرق الحجارة وتذيبها ، حتى تعود كالطين المبلول ، ثم يضربه الهواء حتى يعود كخبث الحديد الذي يخرج من الكير ، فالله يجعلها عبرة للمسلمين ورحمة للعالمين ، بمحمد وآله الطاهرين . انتهى ما ذكره ابن كثير[1] .

ومن العلماء الكبار الذين كانوا أحياء عند خروج هذه النار الإمام النووي

---

(١) البداية والنهاية : (١٣/١٨٧ ـ ١٩٢) .

رحمه الله تعالى ، وقد ذكرها في شرحه لصحيح مسلم فقال : « وقد خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة ، وكانت نـاراً عظيمة جدّا من جنب المدينة الشرقي ، وراء الحرّة ، تواتر العلم بخروجها عند جميع الشام وسائر البلدان ، وأخبرني من حضرها من أهل المدينة »[1] . وواضح من وصف المشاهدين لهذه النار أنها كانت بركانا هائلا ، صاحبه زلازل عظيمة ، والشاهد أن هذه النار خرجت على النحو الذي أخبرنا بـه الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) شرح النووي على مسلم : (١٨/ ٢٨) .

المَبحث الرابع

توقف الجزية والخراج

كانت الجزية التي يدفعها أهل الذمة في الدولة الإسلامية ، والخراج الذي يدفعه من يستغل الأراضي التي فتحت في الدولة الإسلامية من أهم مصادر بيت مال المسلمين ، وقد أخبر الرسول ﷺ بأن ذلك سيتوقف ، وسيفقد المسلمون بسبب ذلك موردا إسلاميا هاما، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مدها ودينارها ، ومنعت مصر إردبها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأتم ، وعدتم من حيث بدأتم » ، شهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمه[1] .

والقفيز والمد والإردب مكاييل لأهل ذلك الزمان في تلك البلاد ، وبعضها لايزال معروفا إلى أيامنا ، والدرهم والدينار أسماء للعملات المعروفة في ذلك الوقت ، ومنع تلك البلاد للمذكورات في الحديث بسبب استيلاء الكفار على تلك الديار في بعض الأزمنة ، فقد استولى الروم ، ثم التتار على كثير من البلاد الإسلامية ، وفي عصرنا احتل الكفار ديار الإسلام ، وأذهبوا دولة الخلافة الإسلامية ، وأبعدوا الشريعة الإسلامية عن الحكم . قال النووي في تعليقه على الحديث :« الأشهر في معناه أن العجم والروم يستولون على البلاد في آخر الزمان ، فيمنعون حصول ذلك للمسلمين ، وقد روى مسلم هذا بعد ذاك بورقات عن جابر

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، (٤/ ٢٢٢٠) ورقم الحديث (٢٨٩٦) .

قال : « يوشك أن لا يجيء إليهم قفيز ولا درهم ، قلنا من أين ذلك ؟ قال من قبل العجم ، يمنعون ذاك»، وذكر في منع الروم ذلك بالشام مثله ، وهذا قد وجد في زماننا في العراق ، وهو الآن موجود ، وقيل لأنهم يرتدون آخر الزمان ، فيمنعون مالديهم من الزكاة وغيرها ، وقيل معناه أن الكفار الذين عليهم الجزية تقوى شوكتهم في آخر الزمان ، فيمتنعون مما كانوا يؤدونه من الجزية والخراج ، وغير ذلك»[1]، وكل هذه التعليلات لسبب منع تلك الإيرادات لخزينة الدولة الإسلامية التي ذكرها النووي وجدت ، علاوة على انهيار الدولة الإسلامية التي كانت تقيم اقتصادها على الشريعة الإسلامية فإلى الله المشتكى .

(١) شرح النووي على مسلم : (١٨/ ٢٠) .

الفصل الثالث

العلامات التي وقعت، وهي مستمرة، أو وقعت مرة ويمكن أن يتكرر وقوعها

المبحث الأول

الفتوحات والحروب

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وقد سار حملة هذا الدين مشرقين ومغربين يفتحون البلاد وينشرون الإسلام ، وقد هزموا الدول الكبرى في ذلك الزمان ، وأزالوها من الوجود ، ولم يزل هذا دأب المسلمين على مرّ العصور ، وسيبقى إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال .

وقد كان الرسول ﷺ يخبر الصحابة بما سيكون من الفتوحات والانتصارات التي سيجريها الله على أيديهم أو على أيدي من بعدهم ، قال لهم ذلك في الوقت الذي كانوا فيه مستضعفين في مكة ، أو محاصرين في المدينة يعيشون في خوف مستمر من اجتياح الأعداء ، فقد روى لنا البخاري عن خباب بن الأرت قال : « شكونا إلى رسول الله ﷺ - وهو متوسد بُردَة له في ظل الكعبة ، قلنا له : ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا ؟ قال : كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين ، وما يصده ذلك عن

دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب[1] ، وما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون »[2] .

لقد كان الأمن منعدما في الجزيرة العربية ، وكان القانون السائد فيها شريعة الغاب ، وقد كثر في الأحاديث الإخبار باستتباب الأمن في الجزيرة بسبب ظهور الإسلام فيها ، كما أخبرنا الرسول ﷺ أن الإسلام سيتعدى حدود الجزيرة العربية ، وأنه سيعصف بالدول الكبرى في ذلك الوقت ، مثل ملك كسرى وقيصر ، ففي صحيح مسلم عن نافع بن عتبة ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله ، ثمَّ فارس فيفتحها الله ، ثمَّ تغزون الروم ، فيفتحها الله ، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله »[3] وروى البخاري عن عدي بن حاتم ، قال : « بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثمَّ أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل ، فقال : يا عدي ، هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم رأها ، وقد أنبئت عنها ، قال : فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لاتخاف أحدا إلا الله ، قلت فيما بيني وبين نفسي : فأين دعار طيء الذي قد سعّروا البلاد ؟ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفّه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله

---

(١) هكذا ورد في النص ما دون لحمه من عظم أو عصب ، وقد ورد الحديث في صحيح البخاري في موضع آخر بلفظ (مادون عظامه من لحم أو عصب) ، كتاب المناقب ، فتح الباري : (٧/١٦٥) ، وهو الصواب .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب المناقب ، حديث رقم : (٣٦١٢) فتح الباري (٦/٦١٩) .

(٣) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب ما يكون من فتوحات المسلمين قبل الدجال ، (٤/٢٢٢٥) ، حديث رقم (٢٩٠٠) .

منه ، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه ، وليس بينه وبينه ترجمان ، يترجم له ، فيقولن : ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك ؟ فيقول : بلى ، فيقول : ألم أعطك مالا وأفضل عليك ؟ فيقول : بلى ، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم ،وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم . قال عدي : سمعت رسول الله ﷺ يقول : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد شقّ تمرة فكلمة طيبة ، قال عدي : « فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ ، يخرج ملء كفه . . . »[(١)] .

وقد أخبر الرسول ﷺ في حديث آخر أن المسلمين سيزيلون ملك كسرى وقيصر ، وسينفقون كنوزهما في سبيل الله ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله »[(٢)] .

وفي صحيح مسلم عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله زوى لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها ، وأعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض »[(٣)] وقد وقع الأمر كما أخبر الرسول ﷺ ، فقد بلغ ملك هذه الأمة بمقدار ما جمع له من الأرض ، وكان معظم امتداد ملك هذه الأمة في جهتي الشرق والغرب ، وأما في جهة الشمال والجنوب فقليل بالنسبة إلى المشرق والمغرب .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب المناقب ، حديث رقم (٣٥٩٥) فتح الباري : (٦/٦١٠) .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، حديث رقم (٣٦١٨) ، فتح الباري : (٦/٦٢٥) .
(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ، (٤/٢٢١٥) ، ورقمه (٢٨٨٩) .

وأخبرنا رسولنا ﷺ أننا سنغزو الهند ، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه ثوبان رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « عصابتان من أمتي أحرزهما الله من النار : عصابة تغزو الهند ، وعصابة تكون مع عيسى بن مريم عليه السلام »(١) .

وبشرنا الرسول ﷺ بفتح القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، كما أخبرنا بفتح روما مقر الفاتيكان ، ففي الحديث الصحيح عن أبي قبيل قال : كنا عند عبدالله بن عمرو بن العاص ، وسئل أي المدينتين تفتح أولا : القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبدالله بصندوق له حلق ، قال : فأخرج منه كتابا ، قال : فقال عبدالله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب ، إذ سئل رسول الله : أي المدينتين تفتح أولا أقسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله ﷺ : مدينة هرقل تفتح أولا ، يعني القسطنطينية »(٢) .

وقد فتحت فارس والروم وزال ملك كسرى وقيصر ، وغزا المسلمون الهند ، وفتحوا القسطنطينية ، وسيكون للمسلمين في مقبل الزمان ملك عظيم ينتشر فيه الإسلام ويذل الشرك ، وتفتح روما مصداقا لحديث الرسول ﷺ القائل : « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولايترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزا يعز الله به الإسلام ، وذلا يذل به الكفر »(٣) .

---

(١) الحديث أخرجه النسائي ، وأحمد وغيرهما ، وإسناده قوي ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني : (٤/٥٧٠) حديث رقم (١٩٣٤) .

(٢) رواه أحمد والدارمي وابن أبي شيبة والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/٨) حديث رقم : (٤) .

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه ، وابن عروبة في المنتقى من الطبقات ، وأورده الشيخ ناصر الدين في سلسلة الأحاديث الصحيحة : (١/٧) ، حديث رقم : (٣) .

وقد أخبر الرسول ﷺ بأننا سنقاتل الترك ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ : « إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوما ينتعلون نعال الشعر ، وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوما عراض الوجوه كأن وجوههم المجان المُطْرقة » .

وفي رواية لهما عن أبي هريرة : « لاتقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك ، صغار الأعين حمر الوجوه ، ذلف الأنوف ، كأن وجوههم المجان المطرقة ، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما نعالهم الشعر » واللفظ للبخاري(١) .

وقد وقع الأمر كما أخبر الرسول ﷺ فقد قاتل المسلمون الترك أكثر من مرة ، يقول النووي في التتار الذين اجتاحوا العالم الإسلامي : « وقد وجدوا في زماننا أي الترك الذين تحدث عنهم الرسول ﷺ هكذا . . . . بجميع صفاتهم التي ذكرها ﷺ : صغار الأعين ، حمر الوجوه ، ذلف الأنوف ، عراض الوجوه ، كأن وجوههم المجان المطرقة ، ينتعلون الشعر ، فوجدوا بهذه الصفات كلها في زماننا ، وقاتلهم المسلمون مرات ، وقتالهم الآن ، ونسأل الله الكريم إحسان العاقبة للمسلمين في أمرهم ، وأمر غيرهم ، وسائر أحوالهم ، وإدامة اللطف بهم والحماية ، وصلى الله وسلم على رسوله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى »(٢) .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد ، باب كتاب الترك ، وفتح الباري (١٠٣/٦) . ورواه مسلم في كتاب الفتن ، (٢٢٣٣/٤) حديث رقم (٢٩١٢) .

(والمجان) جمع مجن ، وهو الترس ، و (المطرقة) : هي التي ألبست العقب وأطرقت به طاقة فوق طاقة ، قالوا : ومعناه تشبيه وجوه الترك في عرضها وتلون وجناتها بالترسة المطرقة ، والمراد (بذلف الأنوف) : أي فطس الأنوف . قصارها مع الانبطاح ، وقيل : هو غلظ في أرنبة الأنف ، وقيل تطامن فيها ، وكله متقارب .

(٢) شرح النووي على مسلم : (٣٨/١٨) ، وواضح تأثر النووي بنبوأة الرسول ﷺ ، لأنه كان يشرح الحديث والمعركة مستعرة بين المسلمين وهؤلاء الذين تحدث الرسول عن قتال المسلمين لهم ، وقد رأى وصفهم بأم عيني رأسه .

المبحث الثاني

خروج الدجالين أدعياء النبوة

أخبر الرسول ﷺ أنه سيخرج في هذه الأمة دجالون يدعون النبوة ، وقد أخبر الرسول ﷺ أن عددهم قريب من ثلاثين ، وحددهم في بعض الأحاديث بسبعة وعشرين ، والمراد بأدعياء النبوة هؤلاء الذين يثيرون فتنة ويتبعهم الناس ، ويغترون بباطلهم ، أمّا الذين ادعوها ولم يأبه الناس لهم فكثير .

ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كل يزعم أنه رسول الله »[1] .

وفي صحيح مسلم عن ثوبان ، قال : قال رسول الله ﷺ : « وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم الأنبياء ، لا نبي بعدي »[2] .

وفي مسند أحمد ، ومشكل الآثار للطحاوي ، ومعجم الطبراني الكبير والأوسط بإسناد صحيح عن حذيفة عن النبي ﷺ ، قال : « في أمتي كذابون ، ودجالون سبعة وعشرون ، منهم أربعة نسوة ، وإني خاتم النبيين ، لا نبي بعدي »[3] وقد خرج من هؤلاء عدد كبير في الماضي ، ففي عهد الصحابة خرج مسيلمة الكذاب ، والأسود العنسي ، وسجاح الكاهنة ، وفي عصر التابعين خرج المختار

(١) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، فتح الباري : (١٣/٨١) .
(٢) ورواه مسلم في صحيحه ، انظر جامع الأصول : (١٠/٤٠٤) .
(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٦٥٤) ، ورقمه (١٩٩٩) .

الثقفي مدعيا النبوة ، ومنذ أكثر من قرن قام حسين بن علي بن الميرزا عباس في إيران مدعيا النبوة[1] ، ولقب ببهاء الله وأتباعه البهائية ، وآخر من سمعنا عنه دعوى النبوة محمود محمد طه السوداني الذي أضل كثيرا من الناس بكتاباته ومقالاته ، وقد أعدم في طليعة هذا العام[2] ، أعدمته حكومة السودان بسبب ضلاله وكفره وردته ، فلعنة الله على الظالمين . إلا أن الدجال الكبير هو ذلك الذي يخرج آخر الزمان ، وينزل الله عيسى بن مريم للقضاء على فتنته .

---

(١) ولد بطهران في عام ١٢٣٣ هـ وتوفي في عكا بفلسطين عام ١٣٠٩ هـ .
(٢) عام ١٩٨٥م .

المبحث الثالث

الفتن

المطلب الأول
التحذير من الفتن

الإنسان الصالح هو المسلم المستقيم على الدين الذي أنزله تبارك وتعالى ، والأمة الصالحة هـي الأمة التي تأخذ هذا الدين وتستقيم عليه ، ثمَّ إن الفرد المسلم ، والأمة المسلمة كلهم يبتلى بشتى أنواع البلاء ، وقد يثور البلاء من داخل الأمة بسبب الأهواء والفرقة والخصام ، وقد يتمثل في عدو حاقد على هذه الأمة يجتاحها ويستذلها ، وقد يصل البلاء النابع من الفرقة والخصام إلى حدّ أن يسل بعضها على بعض السيوف ، فتزهق الأرواح ، وتسيل الدماء ، وتنتهك الحرمات ، وتسلب الأموال ، وقد أطلع الله رسوله عليه السلام على كثير من البلايا والفتن التي ستبتلى بها الأمة الإسلامية في مقبل الزمان ، ولذلك فإن الرسول ﷺ أطال في تحديث الصحابة عن تلك الفتن ، وبيان المخرج منها ، يقول أبو زيد عمرو بن أخطب ، صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر ، وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، فنزل فصلى ، ثمَّ صعد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت العصر ، ثمَّ صعد المنبر ، فخطبنا حتى غربت الشمس ، فأخبرنا بما هو كائن ، فأعلمنا أحفظنا »[1] .

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة ، (٤/٢٢١٧) ورقمه : (٢٨٩٢) .

ولعل هذا المقام هو الذي ذكره حذيفة بن اليمان ، فقد ثبت عنه أنه قال : « قام فينا رسول الله ﷺ مقاما ، ما ترك شيئا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة ، إلاّ حدّث به ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابي هؤلاء ، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره ، كما يذكر الرجل وجه الرجل قد غاب عنه ، ثمَّ إذا رآه عرفه »[1] .

وبعض هذه الفتن شديدة مظلمة ومنها خفيف ، ففي حديث حذيفة في صحيح مسلم عن الفتن : « منهن (أي من الفتن) ثلاث لا يكدن يذرن شيئا ، ومنهن فتن كرياح الصيف ، منها صغار ، ومنها كبار »[2] .

ويبلغ من شدة هذه الفتن أن تخرج المسلم عن دينه ، ففي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح المرء مؤمنا ، ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا ، يبيع أحدكم دينه بعرض قليل من الدنيا » رواه أحمد ومسلم والترمذي[3] .

وفي حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « يكون بين يدي الساعة فتن كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ، ويمسي مؤمنا ، ويصبح كافرا ، يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا » أخرجه الترمذي في سننه ، وقال : حديث حسن صحيح[4] .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة : (٢٢١٦/٤) ، ورقمه : (٢٨٩١) .
(٣) صحيح الجامع الصغير : (٣/٤) .
(٤) جامع الأصول : (٣٨٣/١٠) .

ويبلغ ثقل هذه الفتن وشدتها على المسلم أن يتمنى الموت ويرجوه كي يتخلص من البلاء ، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لاتقوم الساعة حتى يمرّ الرجل بقبر الرجل ، فيقول : يا ليتني كنت مكانه » ، روه البخاري ومسلم[١] ، وفي رواية عندمسلم: « والذي نفسي بيده ، لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ، ويقول : يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر ، وليس به الدِّين إلا البلاء »[٢] .

وإن من أعظم الأسباب التي توقع في الفتن والبلاء قلة العلم ، وكثرة الجهل ، وترك الإسلام ، وارتكاب الذنوب والمعاصي ، وانتهاك الحرمات ، فعن عبدالله بن مسعود وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « إن بين يدي الساعة أياما ينزل فيها الجهل ، ويرفع العلم ، ويكثر الهرج ، والهرج :القتل » أخرجه البخاري ومسلم[٣] .

وعن أنس ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويكثر الجهل ، ويكثر الزنا ، ويكثر شرب الخمر ، ويقل الرجال ، ويكثر النساء ، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد » وفي رواية : « يقل العلم ، ويظهر الجهل » متفق عليه[٤] .

والسبب في قلة الرجال وكثرة النساء كما جاء ذلك مبينا في بعض الأحاديث ـ الحروب التي تقع في ذلك الزمان ، وقد كثر في الأحاديث إخبار الرسول ﷺ بكثرة

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الفتن ، باب لاتقوم الساعة حتى يغبط أهل القبور ، فتح الباري : (٧٥/١٣) ورواه مسلم كتاب الفتن ، باب لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل... (٢٢٣١/٤) .

(٢) صحيح مسلم ، في الكتاب والباب الذي سبق ذكره .

(٣) جامع الأصول : (٤٠٨/١١) ورقمه (٧٩٢٤) .

(٤) مشكاة المصابيح : ٢١/٣ .

القتل في آخر الزمان ، وليس المراد به قتل المسلمين للكفار ، وإنما هو قتل بعض المسلمين لبعض ، وفي كثير من الأحيان لا تعرف أسباب ذلك القتل ولا أهدافه ، ففي الحديث عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال : « إن بين يدي الساعة الهرج ، قالوا : وما الهرج ؟ قال : القتل ، إنه ليس بقتلكم المشركين ، ولكن قتل بعضكم بعضا ، [حتى يقتل الرجل جاره ، ويقتل أخاه ، ويقتل عمّه ، ويقتل ابن عمّه] ، قالوا : ومعنا عقولنا يومئذ ؟ قال : إنه لتنزع عقول أهل ذلك الزمان ، ويخلف له هباء من الناس ؟ يحسب أكثرهم أنهم على شيء ، وليسوا على شيء »[1] .

وروى أبو هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال : « والذي نفسي بيده ، ليأتين على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قتل ، ولا يدري المقتول على أي شيء قتل »[2] .

---

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة) للشيخ ناصر الدين الألباني : (٢٤٨/٤) .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل . . . (٢٢٣١/٢) ، ورقمه : (٢٩٠٨) .

المطلب الثاني
نماذج من الفتن

أولا : مقتل الخليفة الراشد عثمان وافتراق الأمة

من أعظم الفتن التي أخبر بها الرسول ﷺ تلك الفتنة التي أدت إلى مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان وفرقة الأمة الإسلامية ، ومن ثمَّ جعل بأسها بينها ، فقد سل بعضها السيوف على بعض ، وسالت الدماء الطاهرة الطيبة من الفريقين المسلمين المتخاصمين ، وأصدق وصف لتلك الفتنة أنها كانت تموج كموج البحر ، ففي حديث حذيفه أنه كان جالسا عند عمر بن الخطاب ، إذا قال : « أيكم يحفظ قول النبي ﷺ في الفتنة ؟ قال حذيفة : فتنة الرجل في أهله وماله وولده يكفرها الصلاة والصدقة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال ليس عن هذا اسألك ، ولكن التي تموج كموج البحر ، فقال : ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين ، إن بينك وبينها بابا مغلقا ، قال عمر : أيكسر أم يفتح ؟ قال : بل يكسر ، قال عمر : إذن لا يغلق أبدا ، قلت : أجل . قلنا لحذيفة : أكان عمر يعلم الباب ؟ قال : نعم ، كما يعلم أن دون غد ليلة ، وذلك أني حدثته حديثا ليس بالأغاليط ، فهبنا أن نسأله عن الباب ، فأمرنا مسروقا فسأله ، فقال : من الباب ؟ قال : عمر »[1] .

---

(1) رواه البخاري ، كتاب الفتن ، باب الفتنة التي تموج كموج البحر ، فتح الباري : (٤٨/١٣) . ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب الفتنة التي تموج كموج البحر ، (٢٢١٨/٤) واللفظ للبخاري .

وقد حدد الرسول ﷺ العام الذي تقع فيه الفتنة ، ففي حديث عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « تدور رحى الإسلام بعد خمس وثلاثين ، فإن يهلكوا فسبيل من هلك ، وإن يقم لهم دينهم - يقم لهم سبعين عاما ، قلت : (وفي رواية قال عمر : يا نبي الله) : مما بقي ، أومما مضى ؟ قال : مما مضى »[1] . وقد سماها رحى الإسلام تشبيها للحرب بالرحى ، لأنها تطحن المقاتلين ، كما يطحن الرحى الحب ، وأشار الرسول ﷺ في بقية الحديث إلى مدة حكم بني أمية ، فقد كانت مدته سبعين عاما .

وقد صرح في بعض الروايات بما يكون من حال الأمة في تلك الفتنة ، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان ، وتكون بينهما مقتلة عظيمة ، ودعواهما واحدة »[2] .

ثانيا : فتنة الخوارج

من آثار الفتن الفرقة والاختلاف ، وقد أخبرنا الرسول ﷺ عن خروج أقوام في آخر الزمان ، لهم دور كبير في فرقة الأمة الإسلامية ، إذ يدعي هؤلاء العلم ، ويجهدون أنفسهم في العبادة ، ويدعون إلى كتاب الله ، ولكنهم جهلاء ، أحكامهم جائرة ، وآراؤهم قاصرة ، يسفكون دماء مخالفيهم من المسلمين ، ويجهّلون الصحابة والعلماء ، ففي الحديث المتفق عليه عن علي بن أبي طالب قال : قال

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه أبو داود ، والطحاوي في مشكل الآثار ، والحاكم ، وأحمد وغيرهم ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني ، (٢/٧٠٣) ، حديث رقم (٩٧٦) .

(٢) رواه البخاري ، كتاب المناقب ، حديث رقم (٣٦٠٨ ، ٣٦٠٩) فتح الباري (٦/٥١٦) ورواه مسلم ، كتاب الفتنه ، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، (٤/٢٢١٤) واللفظ لمسلم .

رسول الله ﷺ : « سيخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان ، سفهاء الأحلام ، يقولون من قول خير البريّة ، يقرؤون القرآن ، لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة ، فإذا لقيتوهم فاقتلوهم ، فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم عند الله يوم القيامة »(١) .

وفي سنن أبي داود وسنن ابن ماجة ومستدرك الحاكم ومسند أحمدعن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « سيكون في أمتي اختلاف وفرقة ، قوم يحسنون القيل ، ويسيئون الفعل ، يقرؤون القرآن ، لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين مروق السهم من الرميّة ، لا يرجعون حتى يرتد السهم إلى فُوقه ، هم شرار الخلق والخليقة ، طوبى لمن قتلهم وقتلوه ، يدعون إلى كتاب الله ، وليسوا منه في شيء ، من قاتلهم كان أولى بالله منهم ، سيماهم التحالق »(٢) .

وقد خرجت هذه الفرقة في عهد الصحابة ، وكفرت الصحابة ، واستباحت دماء المسلمين ، وأحدثت في الأمة بلاء كبيرا .

---

(١) صحيح الجامع : (٣/٢١٣) .
(٢) صحيح الجامع : (٣/٢١٧) .

المطلب الثالث
كيفية الخلاص من الفتن

اجتهد كثير من الصحابة في التعرف على الفتن التي ستعصف بالأمة وتبين طريق النجاة والخلاص منها ، من هؤلاء بل في مقدمتهم حذيفة بن اليمان فقد صح عنه أنه قال : « إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة ، فيما بيني وبين الساعة »[1] .

وقد كان حذيفة يكثر من سؤال الرسول ﷺ عن الفتن حتى لا يقع فيها ، ففي صحيح البخاري عن حذيفة قال : « كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ، فقلت : يا رسول الله ، إنا كنا في جاهلية وشرّ ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم . قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال : نعم ، وفيه دخن ، قلت : وما دخنه ؟ قال : قوم يهدون بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر ، قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم ، دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم قذفوه فيها . قلت : يا رسول الله : صفهم لنا . قال : هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا . قلت : فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ، قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك »[2] .

(١) صحيح مسلم كتاب الفتن ، باب إخبار الرسول ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة : (٤/٢٢١٦) ، ورقمه (٢٨٩١) .

(٢) صحيح البخاري، كتاب الفتن ، باب كيف يكون الأمر إذا لم تكن جماعة ، فتح الباري (١٣/٣٥) .

وفي حديث العرباض بن سارية أمر الرسول ﷺ بالتمسك بالإسلام ، وطاعة الإمام ، والتزام سنة الرسول ﷺ وسنة خلفائه الراشدين المهديين من بعده ، فقد روى عبدالرحمن بن عمرو السلمي أنه سمع العرباض بن سارية يقول : « وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقلنا : يا رسول الله ، إن هذه لموعظة مودع فماذا تعهد إلينا ؟ قال : « تركتكم على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك ، ومن يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة خلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وعليكم بالطاعة ، وإن عبدا حبشيا ، فإنما المؤمن كالجمل الأنف ، حيثما قيد ينقاد »[1] .

كيف يتصرف المسلم في الحروب التي تثور بين المسلمين

أرشد الرسول ﷺ أمته إلى كيفية التصرف في مثل هذه الفتن التي تثور بين المسلمين ، حيث يخفى الحق ، وتضطرب الأمور ، فقد دعا الرسول ﷺ إلى اجتناب الصراع والقتال في مثل هذه الحال ، والاعتزال في مكان ناء ، يرعى الرجل الغنم في قمم الجبال ، أو يجاهد الأعداء على حدود الدولة المسلمة ، فإن وصلت إليه سيوف المتحاربين ، فقد أمر بأن يمتنع عن الدفاع عن نفسه ، ولو كان في هذا هلاكه ، فقد روى لنا أبو بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنها ستكون فتن ، ألا ثمَّ ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من الماشي فيها ، والماشي خير من الساعي إليها ، ألا فإذا نزلت أو وقعت ، فمن كان له إبل فليلحق بإبله ، ومن كان

(١) حديث صحيح ، أخرجه ابن ماجة ، والترمذي ، وأحمد ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للألباني (٢/٦٤٧) ، حديث رقم (٩٣٧) .

له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كان له أرض فليلحق بأرضه . قال : فقال رجل : يا رسول الله ، أرأيت من لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض ؟ قال : يعمد إلى سيفه فيدق على حدّه بحجر ، ثم لينج إن استطاع النجاء ، اللهم هل بلغت ؟ اللهم هل بلغت ؟ فقال رجل : يا رسول الله ، أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بي إلى أحد الصفين ، أو إلى إحدى الفئتين ؟ فضربني رجل بسيفه ، أو يجيء سهم فيقتلني ؟ قال : يبوء بإثمه وإثمك ، ويكون من أصحاب النار[1] » .

وعن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن » رواه البخاري[2] .

وفي حديث أبي هريرة عن الحاكم أن رسول الله ﷺ قال : « أظلتكم فتن كقطع الليل المظلم ، أنجى الناس منها صاحب شاهقة ، يأكل من رسل غنمه ، أو رجل من وراء الدروب ، آخذ بعنان فرسه ، يأكل من فيء رمحه »[3] .

وقد بين الرسول ﷺ لأبي ذر كيف يتصرف في الفتنة ، فقال له : « أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضا حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء[4] ، كيف تصنع ؟ اقعد في بيتك ، وأغلق عليك بابك ، قال : فإن لم أترك ؟ قال : فأت من كنت معه ، فكن فيهم . قال : فآخذ سلاحي ؟ قال : إذا تشاركهم فيما هم فيه ، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف فألق من طرف ردائك على وجهك ، كي يبوء

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب نزول الفتن : (٢٢١٢/٤) ، ورقمه (٢٨٨٧) .

(٢) رواه البخاري ، باب التعرب في الفتنة ، فتح الباري : (٤٠/١٣) .

(٣) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤٦٦/٣) (٦٤٢/٤) .

(٤) حجارة الزيت : موضع في المدينة المنورة .

بإثمه وإثمك ، ويكون من أصحاب النار »[1] .

وقد احتج بالأحاديث التي سقناها وما أشبهها من لم ير القتال في الفتنة من الصحابة ، « وهم كل من ترك القتال مع علي بن أبي طالب في حروبه ، كسعد بن أبي وقاص ، وعبدالله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، وأبي بكرة ، وغيرهم ، وقالوا : يجب الكف حتى لو أراد أحد قتله لم يدفعه عن نفسه ، ومنهم من قال : لا يدخل في الفتنة ، فإن أراد أحد قتله دفع عن نفسه ، وذهب جمهور الصحابة والتابعين إلى وجوب نصر الحق وقتال الباغين ، وحمل هؤلاء الأحاديث الواردة في ذلك على من ضعف على القتال ، أو قصر نظره عن معرفة صاحب الحق »[2] .

وقال الطبري : « الفتنة أصلها الابتلاء ، وإنكار المنكر واجب على من قدر عليه ، فمن أعان المحق أصاب ، ومن أعان المخطىء أخطأ ، وإن أشكل الأمر فهي الحالة التي ورد النهي عن القتال فيها »[3] .

ولا شك أن تبين الحق والصواب في مثل هذه الظروف التي تقع فيها الفتن ، وتظهر فيها الأهواء صعب جدّاً ، والأقرب إلى السلامة هو البعد والاعتزال ، كيلا يصيب المسلم دما حراما ، ولا يؤذي مسلما ، والله أعلم بالصواب .

---

(١) حديث صحيح ، رواه أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم ، انظر صحيح الجامع الصغير : (٦/٢٥٨) .

(٢) فتح الباري : (١٣/٣٣) .

(٣) فتح الباري : (١٣/٣١) .

المطلب الرابع
بؤرة الفتن ومصدرها

أخبرنا الرسول ﷺ بالجهة التي تهب منها رياح الفتن على الديار الإسلامية ، ففي صحيحي البخاري ومسلم وموطأ مالك عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « رأس الكفر نحو المشرق ، والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل ، الفدادين أهل الوبر ، والسكينة في أهل الغنم »[(1)].

وعن عبدالله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قام إلى جنب المنبر ، فقال : « الفتنة هاهنا ، من حيث يطلع قرن الشيطان ، أو قال : قرن الشمس » . رواه البخاري ومسلم ، وفي رواية لمسلم عن عائشة : « رأس الكفر ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان »[(2)] ، وفي حديث آخر عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهمَّ بارك لنا في شامنا ، اللهمَّ بارك لنا في يمننا ، قالوا يا رسول الله : وفي نجدنا ؟ فأظنه قال في الثالثة : هناك الزلازل والفتن ، وبها يطلع قرن الشيطان »[(3)] .

وأصل النجد ما ارتفع من الأرض ، وقال الخطابي : نجد من جهة المشرق ، ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق ، ونواحيها وهي مشرق أهل المدينة ،

(1) جامع الأصول : (١٠/٦١) ، ورقم الحديث : (٧٥٢٨) .

(2) رواه البخاري ، كتاب الفتن ، باب قول النبي ﷺ « الفتنة من قبل الشرق » فتح الباري : (١٣/٤٥) ومسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب الفتنة من المشرق (٤/٢٢٢٩) حديث رقم (٢٩٠٥) .

(3) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب قول النبي ﷺ : الفتنة من قبل المشرق ، فتح الباري : (١٣/٤٥) .

وأصل النجد ما ارتفع من الأرض ، وهو خلاف الغَوْر ، فإنه ما انخفض منها ، وتهامة كلها من الغور ، ومكة من تهامة(١) .

ولا شك أن العراق في جهة المشرق ، وأنها تعد بالنسبة للمدينة نجدا ، وهذا ما فقهه سالم بن عبدالله بن عمر ، فعندما كان أهل العراق يرتكبون العظائم ويسألون عن التوافه من الأمور ، قال لهم سالم : « يا أهل العراق ، ماأَسْأَلَكُمْ عن الصغيرة ، وأركبكم للكبيرة ، سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الفتنة تجيء من ههنا » وأومأ بيده نحو المشرق : « من حيث يطلع قرنا الشيطان » ، وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض(٢) .

ومن استقرأ التاريخ علم أنَّ الفتن كانت تهب على الأمة الإسلامية والعالم الإسلامي من جهة الشرق ، فمنها ثارت الفتنة التي أدت إلى مقتل الخليفة الراشد عثمان ، ومنها خرجت فرقة الحرورية المارقة : الخوارج ، وبقيت رياح الخوارج تعصف بالأمة في العهد الأموي ، وبها قامت ثورة الزنج في عام ٢٥٥ هـ بالبصرة ، وفي عام ٢٧٨ هـ انبعثت منها حركة القرامطة ؛ ومن اطلع على ما أحدثه الزنج والقرامطة في الأمة الإسلامية يذهل مما ارتكبوه من فظائع .

ومن الشرق هبت رياح التتار ، وسيبقى الأمر كذلك إلى أن تأتي رايات الدجال من خراسان كما أخبر الرسول ﷺ .

ولا تعارض هذه الأحاديث ـ التي تحدد البؤرة التي تنبعث منها الفتن على الأمّة الإسلامية ـ حديث الرسول ﷺ الذي يرويه عنه أسامة بن زيد رضي الله عنهما ،

---

(١) فتح الباري : (١٣/٤٧) .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب الفتنة من المشرق ، (٤/٢٢٢٩) حديث رقم (٢٩٠٥) .

قال : « أشرف النبي ﷺ على أطم من آطام المدينة ، فقال : هل ترون ما أرى ؟ قالوا: لا . قال : فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر »[1] رواه البخاري[2] .

يقول ابن حجر في شرح الحديث : « اختصت المدينة بذلك لأن قتل عثمان رضي الله عنه كان بها ، ثم انتشرت الفتن في البلاد بعد ذلك ، فالقتال بالجمل وبصفين كان بسبب مقتل عثمان ، والقتال بالنهروان كان بسبب التحكيم بصفين ، وكل قتال وقع في ذلك العصر إنما تولد عن شيء من ذلك ، أو عن شيء تولد عنه ، ثم إن قتل عثمان كان أشدَّ أسبابه الطعن على أمرائه ، ثم عليه بتوليه لهم ، وأول ما نشأ ذلك من العراق ، وهي من جهة المشرق ، فلامنافاة بين حديث الباب ، وبين الحديث الآتي أن الفتنة من جهة المشرق »[3] .

---

(١) أشار الرسول ﷺ في هذا الحديث إلى كثرة الفتن وعمومها للناس لا تختص بها طائفة دون أخرى ، كما يعم المطر النواحي التي ينزل فيها ، ومن قرأ التاريخ وما جرى بعد مقتل عثمان ومقتل الحسين علم صدق مقالة الرسول ﷺ .

(٢) رواه البخاري في كتاب الفتن ، باب قول النبي ﷺ « ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب» فتح الباري (١١/١٣) ، ورواه مسلم (٤/٢٢١١) واللفظ للبخاري .

(٣) فتح الباري : (١٣/١٣) .

المبحث الرابع

إسناد الأمر إلى غير أهله

وضع الرجل المناسب في المكان المناسب أحد القواعد الهامة التي لا تصلح حياة البشر بدونها ، ولذلك فإن الفترات التي تولَّى فيها الحكم أصحاب الكفاءات العالية من أصحاب الصلاح والتقى فترات مضيئة مشرقة في تاريخ الأمة الإسلامية ، وأكبر مقتل يفسد نظام الحياة أن يتولى الحكم والولايات والمناصب أقوام غير أكفاء يقودون الحياة بأهوائهم ، ويترك الأخيار القادرون على تسيير الأمور على النحو الأمثل والأفضل .

وقد أخبر الرسول ﷺ أن من أشراط الساعة أن يوسد الأمر إلى من لا يستحقه ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : « بينما رسول الله ﷺ في مجلس ـ يحدث القوم ، إذ جاءه أعرابي ، فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول الله ﷺ في حديثه ، فقال بعض القوم : سمع ما قاله ، فكره ما قال ، وقال بعضهم : بل لم يسمع ، حتى إذا قضى حديثه : قال : أين السائل عن الساعة ؟ قال : ها أناذا يا رسول الله ، قال : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال : وكيف إضاعتها ؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة »(١) .

وروى الطحاوي في « مشكل الآثار » عن رسول الله ﷺ : « يوشك أن يغلب على الدنيا لكع ، ابن لكع ، وأفضل الناس مؤمن بين كريمين »(٢) .

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٣٩٦) ، حديث رقم (٧٩٠٤) .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٩) ورقم الحديث (١٥٠٥) وفي إسناد الحديث المرفوع ضعف . إلا أن له طريقا صحيحة موقوفة . والموقوف له حكم المرفوع في مثل هذا .

ومن نظر في تاريخ الأمة الإسلامية علم أن هذا المرض الذي أشار إليه الرسول ﷺ هو أحد البلايا الكبار التي أصابت المسلمين إصابات كبيرة ، لقد تولى أمر هذه الأمة رجال مستبدون ، لا يطيقون سماع رأي مخالف لما يرونه ، ففي الحديث عن معاوية أن الرسول ﷺ قال : « ستكون أئمة من بعدي ، يقولون فلا يرد عليهم ، يتقاحمون في النار كما تقاحم القردة » رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وأبو يعلى(١) .

وبعض هؤلاء الحكام تشغلهم الشهوات والمتع عن رعاية أمور المسلمين ، وبعضهم لا يعرف الحق ، فإذا به يحمل الناس على مالا يعرفون ، وينشر بينهم البدع والمنكرات ، كما في الحديث الذي يرويه عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ : « ستكون أمراء تشغلهم أشياء ، يؤخرون الصلاة عن وقتها ، فاجعلوا صلاتكم معهم تطوعا »(٢) رواه أبو داود وأحمد وابن ماجة بإسناد صحيح .

وفي حديث أم سلمة عند مسلم وأبي داود : « ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون ، فمن كره برىء ، ومن أنكر سلم ، ولكن من رضي وتابع لم يبرأ »(٣) .

وفي مسند أحمد ومعجم الطبراني وسنن ابن ماجة عن ابن مسعود عن الرسول ﷺ قال : « سيكون عليكم أمراء يؤخرون الصلاة عن مواقيتها ، ويحدثون البدع ، قال ابن مسعود : فكيف أصنع ؟ قال : تسألني يابن أم عبد كيف تصنع ؟ لا طاعة لمن عصى الله »(٤) .

ونلاحظ أن الرسول ﷺ لم يأذن بالخروج على عصاة الحكام ، لما يترتب على

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣٩٨/٤) ، ورقمه : (١٧٩٠) .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (٢٠٥/٣) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق : (٢١٦/٣) .

الخروج عليهم من الفتن وسفك الدماء ، هذا إذا كانوا آخذين بشريعة الله على وجه العموم .

ففي سنن النسائي ومسند ابن حبان بإسناد صحيح عن عرفجه « ستكون بعدي هنات وهنات ، فمن رأيتموه فارق الجماعة ، أو يريد أن يفرق أمر أمّة محمد كائنا من كان فاقتلوه ، فإن يد الله مع الجماعة ، وإن الشيطان مع من فارق الجماعة يركض »[1] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٣/٢٠٦) .

المبحث الخامس
فساد المسلمين

إنما يتحقق للأمة الرقي والسؤدد بمقدار ما يكون فيها من أفراد صالحين يتمثلون في أنفسهم القيم الفاضلة ، والأخلاق الحميدة ، ساعين إلى إقامة العدل في عالم الواقع ، وتقويم المعوج ، وإصلاح الفاسد ، وهؤلاء هم الذين حملوا الأمانة التي أبت السموات والأرض حملها ، وأشفقت من ذلك ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾(١) .

والأمانة ما أئتمن الله عليه العباد من الإيمان والتكاليف ، ومن ذلك أداء ما للعباد من مال وحقوق ، وقد أخبر الرسول ﷺ أن هذه الأمانة سترفع ، وهذا الرفع تدريجي ، ففي زمن حذيفة لاحظ شيئا منه ، ولكنه في زمننا هذا كثير ، وسيأتي زمان يكون أكثر مما نحن فيه ، روى مسلم في صحيحه عن حذيفة رضي الله عنه ، قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما ، وأنا أنتظر الآخر « حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن ، وعلموا من السنة ، ثمَّ حدثنا عن رفع الأمانة ، قال : ينام الرجل النومة ، فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظلُّ أثرها مثل الوَكْت ، ثم ينام النومة ، فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل المَجْل دحرجته على رجلك ، فنفط ، فتراه منتبرا ، وليس فيه شيء ، ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله ، فيصبح الناس يتبايعون ، لا يكاد أحد يؤدي الأمانة ، حتى يقال : إن في بني فلان رجلا

(١) سورة الأحزاب : ٧٢ .

أمينا ، حتى يقال للرجل : ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله ، ومافي قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » يقول حذيفة : « ولقد أتى عليَّ زمان ، وما أبالي أيكم بايعت ، لئن كان مسلما ليردنه عليَّ دينه ، ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه عليَّ ساعيه ، وأما اليوم فماكنت لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا »[1] .

ومراد الرسول ﷺ أنها نزلت في جذر قلوب الرجال أي في أصلها وأعماقها ، ثم إن الأمانة تنزع ويبقى أثرها فحسب ، والوَكْت : هو اللون الباهت الذي يخلف اللون الأصلي ، ومراده بالمَجْل : هو أثر التنقيط والنفط الذي تحدثه النار إذا دحرجته على رجل الإنسان كما في الحديث .

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة : (١٢٦/١) ، ورقمه : (١٤٣) .

المبحث السادس
ولادة الأمة ربتها، وتطاول الحفاة العراة رعاة الشاة في البنيان

روى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مجيء جبريل إلى الرسول ﷺ في صورة رجل يلبس الملابس البيضاء الناصعة ، له شعر شديد السواد ، وسأل الرسول ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان وأجابه الرسول ﷺ ، ثم سأله عن الساعة ، فقال الرسول ﷺ : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، قال فأخبرني عن أماراتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان »[1] .

وروى ابن عباس إجابة الرسول ﷺ عن السؤال بقوله : « إذا رأيت الأمة ولدت ربتها أو ربها ، ورأيت أصحاب الشاء يتطاولون في البنيان ، ورأيت الحفاة الجياع العالة كانوا رؤوس الناس ، فذلك من معالم الساعة وأشراطها » .

قال : يا رسول الله ، ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة ؟ قال : العرب[2] .

قال ابن رجب في تعليقه على الحديث : « مضمون ما ذكر من أشراط الساعة في هذا الحديث يرجع إلى أن الأمور توسد إلى غير أهلها ، كما قال النبي ﷺ لمن

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، انظر جامع العلوم والحكم : ص ٢١ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٣١٨ ـ ٣١٩) ، وقال الشيخ ناصر فيه بعد أن ذكر إسناده : وهذا إسناد لا بأس فيه في الشواهد ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، (٣/٣٣٢) ، حديث رقم : (١٣٤٥) .

سأله عن الساعة : « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » ، فإذا صار الحفاة العراة رعاء الشاة وهم أهل الجهل والجفاء رؤوس الناس وأصحاب الثروة والأموال حتى يتطاولوا في البنيان فإنه يفسد بذلك نظام الدين والدنيا . . »[١] .

والمراد بقوله : « أن تلد الأَمَةُ ربتها»، أي سيدتها ومالكتها ، قال العلماء هو إخبار عن كثرة السراري وأولادهن فإن ولدها من سيدها بمنزلة سيدها ، لأن مال الإنسان صائر إلى ولده ، وقد يتصرف فيه في الحال تصرف المالكين ، إما بتصريح أبيه له بالإذن ، وإمّا بما يعلمه بقرينة الحال أو عرف الاستعمال ، وقيل معناه أن يلدن الملوك فتكون أمه من جملة رعيته وهو سيدها ، وسيد غيرها من رعيته[٢] ، وكل هذا وقع ، فقد كثر تسري الأحرار من الإماء بملك اليمين ، ومن المعلوم شرعا أن الأبناء الذين يأتون من السراري يكونون أحرارا ، وبذلك ولدت الأمة ربتها ، وقد وصل بعض هؤلاء إلى الملك .

---

(١) جامع العلوم والحكم ، لابن رجب : ص ٣٩ .

(٢) شرح النووي على مسلم : (١٥٨/١) .

المَبحَث السَّابِع
تداعي الأمم على الأمة الإسلامية

من علامات الساعة تكالب أمم الكفر على هذه الأمة ، ففي الحديث عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم ، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن ، فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت »[1] .

وقد وقع هذا عبر التاريخ أكثر من مرة ، عندما تداعت الأمم الصليبية إلى غزو هذه الأمة ، ومرة أخرى عند اجتياح التتار العالم الإسلامي ، ولكنَّ هذه النبوءة تحققت في القرن الأخير بصورة أوضح فقد اتفق الصليبيون واليهود والملاحدة على هدم الخلافة الإسلامية ، ثم جزؤوا الديار التي كانت تحكمها ، وتقاسموا ديار المسلمين فيما بينهم ، وأعطوا فلسطين لليهود ، وأصبح المسلمون أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام ، ولا تزال قوى الشر إلى اليوم متداعية لتدمير هذه الأمة وامتصاص خيراتها ، ونهب ثرواتها ، وإذلال رجالها ، والأمة الإسلامية خانعة ذليلة ، لم تغن عنها كثرتها ، غثاء كغثاء السيل ، وعلتها كما أخبر الرسول ﷺ : الوهن حب الدنيا ، وكراهية الموت .

---

(١) الحديث بمجموع طرقه صحيح ، كما قال الشيخ ناصر الدين الألباني ، وقد عزاه إلى أبي داود ، والروياني ، وابن عساكر ، وأحمد في مسنده ، وأبو نعيم في « الحلية » وغيرهم « سلسلة الأحاديث الصحيحة » :(٢/٦٨٤) ، حديث رقم (٩٥٨) .

السد في هذا التداعي

إن اعتصام هذه الأمة بدينها ووحدتها حاجز يقف دون مطامع أعدائها ، فمهما كان مكر الأعداء وقوتهم فإنهم لن ينالوا من هذه الأمة نيلا إذا كانت متحدة ، وفي الحديث الذي يرويه ثوبان أن الرسول ﷺ قال : « وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامّة ، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم ، وإن ربي قال : يا محمد ، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم ، يستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ، أو قال من بين أقطارها ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ، ويسبي بعضهم بعضا »[1] وواضح من الحديث أن وحدة الأمة عصمة لها من أعدائها ، فإذا أصبح بأسها بينها ، ووقعت الفرقة والاختصام فيما بينها سلط الله عليها أعداءها ، وتلك نتيجة حتمية لأن قوتها في هذه الحال لا تتجه إلى الأعداء ، بل إلى نفسها فتدمر نفسها بنفسها ، مما يطمع أعداءها فيها .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ، (٢/٢٢١٥) حديث رقم ٢٢٨٩ والمراد بالبيضة : أي جماعتهم وأصلهم ، والبيضة أيضا : العز والملك . والمراد بقوله : (أن لا أهلكهم بسنة عامة) أي لا أهلكهم بقحط يعمهم ، بل إن وقع قحط يكون في ناحية يسيرة ، بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام .

المبحث الثامن

الخسف والقذف والمسخ الذي يعاقب الله به أقواماً من هذه الأمة

يقع في هذه الأمّة من أنواع البلاء الخسف والقذف والمسخ بسبب تعاطيها للذنوب والمعاصي واستعلان ذلك فيها ، كشرب الخمر ولبس الرجال الحرير ، وتعاطي الزنا ، وأكل الربا ، ونحو ذلك من الفساد الذي يصل درجة استحلال الحرام .

ففي معجم الطبراني الكبير بإسناد صحيح عن سهل بن سعد أن الرسول ﷺ قال : « سيكون في آخر الزمان خسف وقذف ومسخ ، إذا ظهرت المعازف والقينات ، واستحلت الخمر »[1] .

ورواه ابن ماجة عن عبدالله بلفظ « بين يدي الساعة مسخ ؛ وخسف ، وقذف » ولهذا الحديث شواهد كثيرة تشهد بصحته ، منها حديث عائشة عند الترمذي : « يكون في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف ، قالت : قلت يا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم : إذا ظهر الخبث » .

ومنها حديث عمران ، وهو قريب من حديث عائشة إلا أنه قال : « فقال رجل من المسلمين : يـا رسول الله ومتى ذلك ؟ قال : إذا ظهرت القينات

---

(١) ورواه الطبراني أيضا في معجمه « الكبير والأوسط » عن أبي سعيد ، ورواه الترمذي عن عمران بن حصين ، انظر « صحيح الجامع الصغير » : (٣١٦/٣) حديث رقم (٣٥٥٩) .

والمعازف ، وشربت الخمور » أخرجه الترمذي[1] .

وروى أبو نعيم في أخبار أصبهان بإسناده إلى ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ليبيتن أقوام من هذه الأمة على طعام وشراب ولهو ، فيصبحوا قد مسخوا قردة وخنازير »[2] .

وروى البخاري تعليقا عن أبي عامر أو أبي مالك أن النبي ﷺ ، قال : « ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف ، ولينزلن أقوام إلى جنب علم ، يروح عليهم بسارحة لهم ، يأتيهم لحاجة ، فيقولون : ارجع إلينا غدا ، فيبيتهم الله ، ويضع العلم ، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة » وقد وصل الحديث الطبراني والبيهقي وابن عساكر وغيرهم ، وإسناده صحيح وقد أخطأ ابن حزم في تضعيفه للحديث[3] .

ومن الخسوف الكبيرة التي تكون قرب قيام الساعة ، الخسف بجيش كامل في آخر الزمان ، كما في الحديث الذي يرويه أحمد والحميدي عن بقيرة امرأة القعقاع بن أبي حدرد الأسلمي ، قالت :سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول : « يا هؤلاء ، إذا سمعتم بجيش قد خسف به قريبا ، فقد أظلت الساعة »[4] .

ولعل هذا الجيش الذي يخسف به قرب المدينة ، ويدل على هذا قوله : « قريبا » .

---

(١) انظر الكلام على روايات الحديث في : سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢٩٣/٤) حديث رقم (١٧٨٧).

(٢) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة : (١٣٥/٤) ، حديث رقم (١٦٠٤) .

(٣) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة : (١٣٩/١) ، حديث رقم : (٩١) .

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣٤٠/٣) ورقم الحديث : ١٣٥٥ .

وقد أخبرنا الرسول ﷺ ببعض المواضع التي يقع فيها الخسف والقذف والمسخ ، ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « يا أنس ، إن الناس يمصرون أمصارا . فإن مصرا يقال له : البصرة ، فإن أنت مررت بها أو دخلتها ، فإياك وسباخها وكلأها ونخيلها وسوقها وباب أمرائها ، وعليك بضواحيها ، فإنه يكون بها خسف وقذف ورجف ، وقوم يبيتون ويصبحون قردة وخنازير »[1] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (٣/١٩) . ورقم الحديث : ٥٤٣٣ .

المبحث التاسع
استفاضة المال

من علامات الساعة كثرة المال ، حتى أن الرجل يعطى المائة دينار من الذهب فيراها قليلة ، ويبحث صاحب المال عن رجل فقير يقبل منه صدقة ماله فلا يجد ، فقد قال الرسول ﷺ لعوف بن مالك ، وكان آن ذاك في غزوة خيبر : « اعدد ستا بين يدي الساعة » فذكرها ، ومنها : « استفاضة المال ، حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا »[1] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : « لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال ، فيفيض حتى يهمّ رب المال من يقبل منه صدقة ، ويدعى إليه الرجل ، فيقول : لا أرب لي فيه »[2] .

والمراد بقوله : « يهم رب المال » : أي يحزنه ، لأنه لا يجد المحتاج الذي يبذل له المال ، وقوله : « لا أرب لي فيه » أي لا حاجة لي به .

وروى حارثة بن وهب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تَصدّقوا ، فيوشك الرجل يمشي بصدقته، فيقول الذي أعطيها : لو جئتنا بالأمس قبلتها ، فأمّا الآن ، فلا حاجة لي بها ، فلا يجد من يقبلها[3] » .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد ، باب ما يحذر من الغدر ، انظر جامع الأصول : (٤١٢/١٠) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها، حديث رقم (١٠١٢) (٧٠١/٢) .

(٣) المصدر السابق ، حديث رقم (١٠١١)(٧٠٠/٢)،ورواه البخاري : كتاب الفتن ، فتح الباري : (٨١/١١) ، واللفظ لمسلم .

ويبدو أن هذا يقع في أكثر من زمان ، فقد وقع في عصر عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه ، فقد أخرج يعقوب بن سفيان في تاريخه من طريق عمر بن أسيد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب ، قال : « لا والله ما مات عمر بن عبدالعزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم ، فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله ، يتذكر من يضعه فيهم ، فلا يجد فيرجع به ، قد أغنى عمر بن عبدالعزيز الناس »[1] ، وسيأتي عند ذكر المهدي إيراد الأحاديث التي تذكر أنه سيكون خليفة يحثو المال حثوا ، وسيأتي عند ذكر عيسى ذكر الأحاديث التي تذكر استفاضة المال في وقته ، حتى لا يقبله أحد .

---

(١) فتح الباري : (١٣/٨٣) .

المبحث العاشر

تسليم الخاصة، وفشو التجارة، وقطع الأرحام

روى أحمد في مسنده بإسناد صحيح ، عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن بين يدي الساعة تسليم الخاصة ، وفشو التجارة، حتى تعين المرأة زوجها على التجارة ، وقطع الأرحام ، وشهادة الزور ، وكتمان شهادة الحق ، وظهور القلم »[1] .

ومراده بتسليم الخاصة أن لا يسلم المسلم إلا على من يعرفه ، كما في الحديث الآخر الذي يرويه أحمد في مسنده عن عبدالله بن مسعود أيضا ، عن النبي ﷺ قال : « إن من أشراط الساعة إذا كانت التحية على المعرفة » وفي رواية : « أن يسلم الرجل على الرجل لا يسلم عليه إلا للمعرفة »[2] . وهذا الذي أخبرنا به الرسول ﷺ قد وقع كله من قبل ، وهو ظاهر مشاهد في زماننا ، وهو في كثرة باطراد وازدياد ، والله المستعان .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/ ٢٥٠) ، ورقم الحديث : ٦٤٧ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/ ٢٥٢) ، ورقم الحديث : ٦٤٨ .

المبحث الحادي عشر
اختلال المقاييس

أخبرنا الرسول ﷺ أن المقاييس التي يُقَوَّم بها الرجال تختل قبل قيام الساعة ، فيقبل قول الكذبة ويصدق ، ويرد على الصادق خبره ، ويؤتمن الخونة على الأموال والأعراض ، ويخوّن الأمناء ويتهمون ، ويتكلم التافهون من الرجال في القضايا التي تهم عامة الناس ، فلا يقدمون إلا الآراء الفجة ، ولا يهدون إلا للأمور المعوجة ، فقد أخرج الإمام أحمد وابن ماجة والحاكم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سيأتي على الناس سنوات خداعات ، يُصَدَّق فيها الكاذب ، ويكذَّب فيها الصادق ، ويؤتمن فيها الخائن ، ويخوَّن فيها الأمين ، وينطق فيها الرويبضة » .

قيل : وما الرويبضة ؟ قال : « الرجل التافة ، يتكلم في أمر العامة »[1] .
ومن تأمل في أحوال عالمنا اليوم وجد أننا نعيش هذا العصر الذي أخبر الرسول ﷺ عنه ، فالكذبة من الكفار والمشركين الذين يملكون وكالات الأنباء والإذاعات ومن على طريقهم يصدَّقون ، وأهل الصدق والعدل يكذَّبون ، والأمة الإسلامية تضع أموالها في أيدي الخونة الكفرة ، ويؤتمنون على ذلك ، ويخون المسلمون ولا يؤتمنون على شيء من ذلك ، وقد تكلم في شؤون العالم التافهون من الرجال ، وقادوه قيادة هوجاء توشك أن تدمر البشرية جمعاء .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٥٠٨/٤) . ورقم الحديث : ١٨٨٧ .

المبحث الثاني عشر
شرطة آخر الزمان الذين يجلدون الناس

يكثر الظلم في آخر الزمان ، حتى أن الرجال الذين يوكل إليهم القيام على الأمن وردع الظالمين يفسدون، فإذا بهم يتحولون إلى ظلمة يجلدون ظهور العباد بسياطهم ، وهذا كثير مشاهد في ديار الإسلام اليوم .

روى أحمد والحاكم والطبراني في « الكبير » بإسناد صحيح عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « يكون في آخر الزمان رجال معهم سياط كأنها أذناب البقر ، يغدون في سخط الله ، ويروحون في غضبه »(١) .

وخبر هؤلاء ومصيرهم مذكور في صحيح مسلم ، فقد روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس . ونساء كاسيات عاريات ، مميلات ، مائلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة . ولا يجدن ريحها . وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا »(٢) .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٥١٧/٤) ورقم الحديث : ١٨٩٣ .
(٢) صحيح مسلم : (١٦٨٠/٤) . ورقم الحديث : (٢١٢٨) .

الفصل الرابع
العلامات التي لم تقع بعد

المبحث الأول
عودة جزيرة العرب جنات وأنهارا

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض ، حتى يخرج الرجل زكاة ماله ، فلا يجد أحداً يقبلها ، وحتى تعود أرض العرب جنات وأنهارا » رواه مسلم[1] .

وعودتها جنات وأنهارا إمّا بسبب ما يقوم أهلها به من حفر الآبار ، وزراعة الأرض ونحو ذلك مما هو حاصل في زماننا ، وإمّا بسبب تغير المناخ ، فيتحول مناخها الحار إلى جو لطيف جميل ، ويفجر خالقها فيها من الأنهار والعيون ما يحول جدبها خصبا ، ويحيل سهولها الجرداء إلى سهول مخضرة فيحاء ، وهذا هو الأظهر ، فإنه يحكي حالة ترجع فيها الجزيرة إلى ما كانت عليه من قبل .

(١) مشكاة المصابيح : (٢١/٣) حديث رقم : (٥٤٤٠) .

المبحث الثاني
انتفاخ الأهلة

من الأدلة على اقتراب الساعة أن يرى الهلال عند بدو ظهوره كبيرا حتى يقال ساعة خروجه إنه لليلتين أو ثلاثة ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من اقتراب الساعة انتفاخ الأهلة »[1] ، وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من اقتراب الساعة أن يرى الهلال قَبَلا ، فيقال : لليلتين وأن تتخذ المساجد طرقا ، وأن يظهر موت الفجأة »[2] .

---

(١) أورده الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع الصغير (٥/٢١٣) ، حديث رقم (٥٧٧٤) ، وقال صحيح الإسناد ، وعزاه إلى الطبراني في معجمه الكبير ، وأخرجه غيره من كتب السنة عن أبي هريرة .

(٢) عزاه في صحيح الجامع (٥/٢١٤) حديث رقم (٥٧٧٥) إلى الطبراني في الأوسط ، وقال : إسناده حسن .

المبحث الثالث

تكليم السباع والجماد الإنس

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري ، قال : « عدا الذئب على شاة ، فأخذها ، فطلبه الراعي ، فانتزعها منه ، فأقعى على ذنبه ، قال : ألا تتقي الله تنزع مني رزقا ساقه الله إليّ ، فقال : يا عجبي ذئب مقع على ذنبه يكلمني كلام الإنس ، فقال الذئب ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ محمد ﷺ بيثرب ، يخبر الناس بأنباء ماقد سبق . قال : فأقبل الراعي يسوق غنمه ، حتى دخل المدينة ، فزواها إلى زاوية من زواياها ، ثم أتى رسول ﷺ ، فأخبره ، فأمر رسول الله ﷺ فنودي بالصلاة جامعة ، ثم خرج ، فقال للراعي : أخبرهم ، فأخبرهم ، فقال رسول الله ﷺ : صدق ، والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس ، ويكلم الرجل عذبة سوطه ، وشراك نعله ، ويخبره فخذه بما حدّث أهله بعده »[1] .

وقد يكون هذا الذي يخبر عنه الرسول ﷺ شيئا خارقا للعادة خارجا عن المألوف ، كما تشهد على الإنسان أعضاؤه يوم القيامة ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2] ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ

---

(١) إسناده صحيح ، وأخرجه ابن حبان والحاكم مفرقا ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وأخرج الترمذي منه قوله : « والذي نفسي بيده . . » وقال : حديث حسن ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني ، حديث رقم (١٢٢) .

(٢) سورة يس : ٦٥ .

شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[1] ، أو هو إخبار عمّا يصل إليه البشر من علوم ومخترعات ، يستطيعون بها فقه لغة الحيوان ، وينطقون بها الجماد كما هو الحال في المخترعات الجديدة (الراديو) ، و(التلفاز) .

---

(١) سورة فصلت : ٢١ .

المبحث الرابع

انحسار الفرات عن جبل من ذهب

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب ، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئا » ، وفي رواية « يحسر عن جبل من ذهب » .

وفي رواية عند مسلم : « لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه ، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون ، ويقول كل رجل منهم لعلي أكون أنا الذي أنجو »[1] .

ورواه مسلم عن أبي بن كعب بلفظ : « يوشك الفرات أن يحسر عن جبل من ذهب فإذا سمع به الناس ساروا إليه ، فيقول من عنده : لئن تركنا الناس يأخذون منه ليذهبن به كله ، قال : فيقتتلون عليه ، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون »[2] .

ومعنى انحساره : انكشافه لذهاب مائة ، كما يقول النووي[3] ، وقد يكون ذلك بسبب تحول مجراه ، فإن هذا الكنز أو هذا الجبل مطمور بالتراب وهو غير

---

(١) رواه البخاري في كتاب الفتن ، باب خروج النار ، فتح الباري : (١٣/٧٨) ورواه مسلم في كتاب الفتن ، باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب : ٤/٢٢١٩ ، حديث رقم : (٢٨٩٤) .

(٢) انظر صحيح مسلم : (٤/٢٢٢٠) حديث رقم : (٢٢٩٥) .

(٣) شرح النووي على مسلم : (١٨/٩) .

معروف ، فإذا ما تحول مجرى النهر لسبب من الأسباب ومرّ قريبا من هذا الجبل كشفه ، والله أعلم بالصواب .

والسبب في نهي الرسول ﷺ من حضره عن الأخذ منه لما ينشأ عن أخذه من الفتنة والاقتتال وسفك الدماء .

المَبحث الخامس

اخراج الأرض كنوزها المخبوءة

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل ، فيقول : في هذا قتلت ! ويجيء القاطع ، فيقول : في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السارق ، فيقول : في هذا قطعت يدي ! ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً »[1] .

وهذه آية من آيات الله ، حيث يأمر الحقُّ الأرض أن تخرج كنوزها المخبوأة في جوفها ، وقد سمى الرسول ﷺ تلك الكنوز (بأفلاذ الكبد) ، وأصل الفلذ « القطعة من كبد البعير ، وقال غيره : هي القطعة من اللحم ، ومعنى الحديث : التشبيه ، أي تخرج مافي جوفها من القطع المدفونة فيها ، والأسطوان جمع أسطوانة ، وهي السارية والعمود ، وشبهه بالأسطوان لعظمته وكثرته[2] » .

وعندما يرى الناس كثرة الذهب والفضة يزهدون فيه ، ويألمون لأنهم ارتكبوا الذنوب والمعاصي في سبيل الحصول على هذا العرض التافه .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها ، حديث رقم (١٠١٣) ٢/٧٠١ .

(٢) شرح النووي على مسلم : (١٨/٩٨) .

المبحث السادس

محاصرة المسلمين إلى المدينة

من أشراط الساعة أن يهزم المسلمون ، وينحسر ظلهم ، ويحيط بهم أعداؤهم ويحاصرونهم في المدينة المنورة .

عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك المسلمون أن يحاصروا إلى المدينة ، حتى يكون أبعد مسالحهم سلاح »[1] .

---

(١) حديث صحيح رواه أبو داود والحاكم ، صحيح الجامع : (٦/٣٦٣) ورقم الحديث : (٨٠٣٣) .

المبحث السابع

إحراز الجهجاه الملك

الجهجاه رجل من قحطان سيصير إليه الملك ، وهو شديد القوة والبطش ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » رواه البخاري ومسلم .

وفي رواية لمسلم : « لا تذهب الأيام والليالي ، حتى يملك رجل يقال له الجهجاه »[1] .

ويحتمل أن يكون هذا الذي في الرواية الأخيرة غير الأول ، فقد صح في سنن الترمذي عن أبي هريرة أن هذا الجهجاه من الموالي ، ففي سنن الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « لا يذهب الليل والنهار حتى يملك رجل من الموالي يقال له جهجاه »[2] .

والمراد بكونه يسوق الناس بعصاه أنه يغلب الناس فينقادون له ويطيعونه ، والتعبير بالسوق بالعصا للدلالة على غلظته وشدته ، وأصل الجهجاه الصيَّاح ، وهي صفة تناسب العصا كما يقول ابن حجر[3] ، وهل يسوق هذا الرجل الناس إلى الخير أم الشرّ ؟ ليس عندنا بيان من الرسول ﷺ بذلك .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الفتن ، باب تغير الزمان ، فتح الباري : (١٣/٧٦) .

(٢) انظر صحيح الجامع الصغير : (٦/٢٣٠) حديث رقم : (٧٥٦١) .

(٣) فتح الباري : (١٣/٧٨) .

المبحث الثامن

فتنة الأحلاس، وفتنة الدهماء، وفتنة الدهيماء

عن عبد الله بن عمر قال : كنا عند رسول الله ﷺ قعودا نذكر الفتن ، فأكثر من ذكرها ، حتى ذكر فتنة الأحلاس ، فقال قائل : وما فتنة الأحلاس ؟ قال : هي فتنة هرب وحَرَب ، ثمَّ فتنة السراء ، دخلها أو دخنها من تحت قدمي رجل من أهل بيتي ، يزعم أنه مني ، وليس مني ، وإنما وليي المتقون، ثم يصطلح الناس على رجل كَوَرِكٍ على ضِلَع ، ثم فتنة الدهيماء ، لا تدع أحدا من هذه الأمة إلا لطمته ، فإذا قيل انقطعت تمادت ، يصبح الرجل فيها مؤمنا ، ويمسي كافرا ، حتى يصير الناس إلى فسطاطين : فسطاط إيمان لا نفاق فيه ، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه ، إذا كان ذاكم فانتظروا الدجال من اليوم أو غد »(١) .

والأحلاس جمع حلس ، وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب ، شبهت به الفتنة لملازمتها للناس حين تنزل بهم كما يلازم الحلس ظهر البعير ، وقد قال الخطابي : يحتمل أن تكون هذه الفتنة شبهت بالأحلاس لسواد لونها وظلمتها . والحرب بفتح الراء : ذهاب المال والأهل ، يقال : حَرِب الرجل فهو حريب فلان إذا سلب ماله وأهله .

والسراء النعمة التي تسر الناس من وفرة المال والعافية ، وأضيفت الفتنة إليها لأن النعمة سببها ، إذ أن الإنسان يرتكب الآثام والمعاصي بسبب ما يتوفر له

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه أبو داود والحاكم وأحمد ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني (٢/٧٠٢) ، حديث رقم (٩٧٤) .

من الخير .

وقوله : (كورك على ضلع) هذا مثل للأمر الذي لا يستقيم ولا يثبت ، لأن الورك لا يتركب على الضلع ولا يستقيم معه .

والدهيماء : الداهية التي تدهم الناس بشرها .

المَبحث التَاسِع

خروج المهدي

المطلب الأول

النصوص المعرِّفة بالمهدي

ثبت في الأحاديث الصحيحة أنَّ الله تبارك وتعالى يبعث في آخر الزمان خليفة يكون حكما عدلا ، يلي أمر هذه الأمة من آل بيت الرسول ﷺ من سلالة فاطمة ، يوافق اسمه اسم الرسول ﷺ ، واسم أبيه اسم أبي الرسول ﷺ ، وقد وصفته الأحاديث بأنه أجلى الجبهة ، أقنى الأنف ، يملأ الأرض عدلا ، بعد أن ملئت جورا وظلما ، ومن الأحاديث التي وردت في هذا :

١ ــ عن عبدالله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي ، يواطىء اسمه اسمي » رواه الترمذي وأبو داود ، وفي روايه لأبي داود : قال : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم ، حتى يبعث الله فيه رجلا مني ـ أو من أهل بيتي ـ يواطىء اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي ، يملأ الأرض قسطا وعدلا ، كما ملئت جورا وظلما »[١] .

٢ ــ عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « المهدي من عترتي من ولد فاطمة » رواه أبو داود وابن ماجة والحاكم[٢] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (٢٤/٣) ، وقال محقق المشكاة : إسناده حسن ورمز لرواية أبي داود بالصحة في صحيح الجامع الصغير (٦/ ٧٠) حديث رقم (٥١٨٠) .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (٢٢/٦) وقال الشيخ ناصر فيه : صحيح .

٣ ــ عن عليّ رضي الله عنه ، قال : قال الرسول ﷺ : « المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة » رواه أحمد وابن ماجة (١) .

٤ ــ عن علي قال : قال رسول الله ﷺ : « لو لم يبق من الدهر إلا يوم ، لبعث الله رجلا من أهل بيتي ، يملؤها عدلاً ، كما ملئت جورا » رواه أحمد وأبو داود(٢).

٥ ــ عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « المهدي مني ، أجلى الجبهة ، أقنى الأنف ، يملأ الأرض قسطا وعدلا ، كما ملئت جورا وظلما ، يملك سبع سنين » رواه أبو داود(٣) .

٦ ــ عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « لتملأن الأرض جورا وظلما ، فإذا ملئت جورا وظلما ، بعث الله رجلا مني ، اسمه اسمي ، فيملؤها قسطا وعدلا ، كما ملئت جورا وظلماً» أخرجه البزار وابن عدي في الكامل ، وأبو نعيم في أخبار أصبهان ، والحاكم ، ورواه الإمام أحمد ، وابن حبان والحاكم ، وأبو نعيم في الحليةعن أبي سعيد يرفعه بلفظ: « لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض ظلما وجورا وعدوانا ، ثم يخرج رجل من عترتي ، أو من أهل بيتي يملؤها قسطا وعدلا ، كما ملئت جورا وظلما » ، وقد قال الحاكم في إسناد هذه الرواية : « صحيح على شرط الشيخين » ، ووافقه الذهبي ، وأشار أبو نعيم إلى تصحيحه .

وروى هذا الحديث الحاكم أيضا عن أبي سعيد مرفوعا بلفظ : « يخرج في

---

(١) صحيح الجامع : (٢٢/٦) ، وقال فيه الشيخ ناصر الدين الألباني : صحيح .
(٢) وهو حديث صحيح ، انظر صحيح الجامع الصغير : (٧١/٥) ، حديث رقم (٥١٨١) .
(٣) مشكاة المصابيح : (٢٤/٣) حديث رقم (٥٤٥٤) ، وإسناده حسن كما قال محقق المشكاة .

أمتي المهدي ، يسقيه الله الغيث ، وتخرج الأرض نباتها ، ويعطى المال صحاحا ، وتكثر الماشية ، وتعظم الأمة ، يعيش سبعا أو ثمانيا يعني حججا » ، وصححه الحاكم والذهبي وابن خلدون .

ورواه أصحاب السنن وكذا الطبراني في الأوسط الكبير ، وصححه الترمذي والحاكم وابن حبان ، ولفظه عند أبي داود : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلا مني ، أو من أهل بيتي ، يواطىء اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي ، يملأ الأرض عدلا . . . » الحديث[1] .

المطلب الثاني
مرتبة أحاديث المهدي من الصحة

قال فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز حفظه الله ما ملخصه : « أمر المهدي معلوم ، والأحاديث فيه مستفيضة ، بل متواترة متعاضدة ، وقد حكى غير واحد من أهل العلم تواترها ، وتواترها تواتر معنوي ، لكثرة طرقها ، واختلاف مخارجها وصحابتها ورواتها وألفاظها ، فهي بحق تدل على أن هذا الشخص الموعود به أمره ثابت وخروجه حق ، وهو محمد بن عبدالله العلوي الحسني من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وهذا الإمام من رحمة الله عز وجل بالأمة في آخر الزمان ، يخرج فيقيم العدل والحق ، ويمنع الظلم والجور ، وينشر الله به لواء الخير على الأمة عدلا وهداية وتوفيقا وإرشادا للناس .

---

(١) لخصت هذا التحقيق القيم من كلام الشيخ ناصر الدين الألباني حفظه الله ، وإن شئت أن تتطلع على تمام كلامه فيه فارجع إلى سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٣٨) ، حديث رقم : (١٥٢٩) . وانظر أيضا سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/٣٣٦) ، حديث رقم : (٧١١) .

وقد اطلعت على كثير من أحاديثه فرأيتها كما قال الشوكاني وغيره ، وكما قال ابن القيم وغيره : فيها الصحيح ، وفيها الحسن ، وفيها الضعيف المنجبر ، وفيها أخبار موضوعة ، ويكفينا من ذلك ما استقام سنده ، سواء كان صحيحا لذاته أو لغيره ، وسواء كان حسنا لذاته أو لغيره ، وهكذا الأحاديث الضعيفة إذا انجبرت وشدَّ بعضها بعضا ، فإنها حجة عند أهل العلم . . . ؛ والحق أن الجمهور من أهل العلم - بل هو كالاتفاق - على ثبوت أمر المهدي ، وأنه حق ، وأنه سيخرج في آخر الزمان ، أمّا من شذ عن أهل العلم في هذا الباب فلا يلتفت إلى كلامه في ذلك »[1] .

وقد أحصى فضيلة الشيخ عبدالمحسن بن حمد العباد عدد الصحابة الذين رووا أحاديث المهدي فبلغوا ستة وعشرين صحابيا ، وأحصى كتب السنة التي أخرجت هذه الأحاديث ، فبلغت ستة وثلاثين كتابا فقد أخرجه أصحاب السنن الأربعة ، وأحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه وغيرهم[2] .

وقد جمع هذه الأحاديث كثير من العلماء في مؤلفات خاصة ، وبينوا طرقها وتكلموا على أسانيدها ، منهم أبو بكر بن أبي خيثمة زهير بن حرب على ما ذكره ابن خلدون ، ومنهم الحافظ أبو نعيم ، ولخص الحافظ السيوطي ما أورده أبو نعيم في كتابه « العرف الوردي في أخبار المهدي » وزاد عليه ، وهو مطبوع في ضمن كتابه الحاوي للفتاوي ، ومنهم الحافظ ابن كثير أفرد في ذكر المهدي جزءا على حده كما

---

(١) كلام الشيخ مثبت في كتاب : الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي لعبد المحسن بن حمد العباد ، ص ١٥٧ .

(٢) عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر لعبد المحسن بن حمد العباد وهو مطبوع مع الكتاب السابق ذكره : ص ١٦٦ - ١٦٨ .

نص عليه في كتابه الفتن والملاحم ، ومنهم ابن حجر المكي ألف كتابا سماه : « القول المختصر في علامات المهدي المنتظر » ، ومنهم المتقي الهندي صاحب كنز العمال ، وملا علي قاري ، وسمى مؤلفه « المشرب الوردي في مذهب المهدي » ، ومنهم مرعي بن يوسف الحنبلي ، والصنعاني وغيرهم[1] .

وقد نص على صحة أحاديث المهدي جمع كبير من نقاد الحديث وأئمته منهم : الحاكم ، والذهبي ، وأبو نعيم ، وابن العربي المالكي ، والقرطبي ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن قيم الجوزية ، والحافظ ابن حجر العسقلاني ، والسيوطي ، وغيرهم[2] ، ولذلك لا يلتفت لمن ضعف هذه الأحاديث أو كذب بها ، ممن ليس من فرسان هذا العلم .

المطلب الثالث
عقائد الفرق الإسلامية في المهدي

١ ـ أما عقيدة أهل السنة والجماعة فهي موافقة لما سقناه من الأحاديث الصحيحة ، وأن المهدي حاكم صالح راشد يبعثه الله مجددا لهذا الدين ، ويعلي الله هذا الدين على يديه .

يقول ابن خلدون : « اعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الأعصار ، أنه لا بدَّ في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ، ويظهر العدل ، ويتبعه المسلمون ، ويستولي على الممالك الإسلامية ، ويسمى بالمهدي ، ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط

---

(١) المصدر السابق : ص ١٦٨ .

(٢) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/ ٤٠-٤١) .

الساعة الثابتة في الصحيح على أثره ، وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال ، أو ينزل معه فيساعده على قتله ، ويأتم بالمهدي في صلاته »[1] .

٢ ـ عقيدة الشيعة الإمامية الذين يعتقدون أن المهدي هو آخر أئمتهم ، وهو الإمام الثاني عشر المدعو بمحمد بن الحسن العسكري وهو عندهم من ولد الحسين بن علي ، لا من ولد الحسن ، وهم يعتقدون أنه دخل سرداب سامراء منذ أكثر من ألف ومائة سنة وعمره خمس سنوات ، ويعتقدون أنه حاضر في الأمصار ، غائب عن الأبصار ، وهو المهدي الذي ينتظرون عودته ، وكلامهم هذا لم يقم عليه دليل ولا برهان من عقل أو نقل ، وهو مخالف لسنة الله في البشر ، ومخالف لمنطق العقول ، ثم ما الداعي للغيبة إذا كان حيًّا ، بل كان الواجب عليه أن يخرج ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

٣ ـ المكذبون بوجود المهدي ، وهؤلاء أفراد من الذين ينسبون لأهل السنة ، ليس لهم باع طويل في تحقيق النصوص ، والكشف عن الأسانيد ، وقد دحض شبهاتهم كثير من أهل العلم في مؤلفات مستقلة ، وآخرها فيما اطلعنا عليه ما كتبه فضيلة الشيخ العلامة عبدالمحسن العباد في كتابه : « الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي »[2] . وما كتبه فضيلة الشيخ حمود بن عبدالله بن حمد التويجري ، كتب مجلدا بعنوان « الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر »[3] .

---

(١) المقدمة ، لابن خلدون : ص ٥٥٥ ، ويحسن أن ننبه هنا أن ابن خلدون ضعف أكثر الأحاديث الدالة على وجوده ، ولم يصب فيما ذهب إليه ، ولكن لا يجوز أن يقال إن ابن خلدون لا يقول بوجود المهدي ، فإنه صحح بعض هذه الأحاديث ، فقد قال بعد سياقه للأحاديث ومناقشته لها ص ٥٧٤ « وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه » وهذا القليل كاف لإثبات القول به .

(٢) مطبوع ، طبعته مطابع الرشيد في المدينة المنورة .

(٣) مطبوع ، نشرته الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ـ السعودية .

٤ ــ رجال من الحكام الماضين ادعوا المهدية أو ادعاها لهم أقوام ، وبعض هؤلاء رجال صالحون لقب الواحد منهم بالمهدي ، لا على أنه ذلك المهدي الذي أخبر عنه الرسول ﷺ ، بل تفاؤلا بأن يكون من الأئمة المهديين ، الذين يقولون بالحق ، وبه يحكمون ، ومن هؤلاء المهدي الخليفة العباسي . وبعض الذين ادعوا المهدية من الحكام أو ادعيت لهم أقوام فجرة ، مثل الملحد عبيدالله بن ميمون القداح المولود عام ٢٥٩ هـ والمتوفى سنة ٣٢٢ هـ ، وكان جده يهوديا ينسب إلى بيت مجوسي ، انتسب زورا وكذبا إلى بيت رسول الله ﷺ ، وادعى أنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ ، وملك وتغلب ، واستفحل أمره ، واستولت ذريته على بلاد المغرب ، ومصر ، والحجاز ، والشام ، واشتدت غربة الإسلام ومحنته ومصيبته بهم ، وكانوا يدعون الألوهية ، ويدعون أن للشريعة باطنا وظاهرا .

وهم ملوك الرافضة القرامطة الباطنية أعداء الدين ، تستروا بالرفض والانتساب كذبا لأهل البيت ، ودانوا بدين الإلحاد وروجوه ، ولم يزل أمرهم ظاهرا إلى أن أنقذ الله الأمة منهم بصلاح الدين الأيوبي ، فاستنقذ الأمة منهم وأبادهم . ومن هؤلاء مهدي المغاربة محمد بن تومرت ولد سنة ٤٨٥ هـ وتوفي سنة ٥٢٤ هـ ، وهو رجل كذاب ظالم متغلب ، وكان قد ادعى أنه المهدي الموعود ، كان يودع طائفة من أصحابه القبور ، ويأمرهم بإخبار الناس أنه المهدي ، ثم يردم عليهم القبور في الليل ، وهم أحياء ، حتى لا يكشف أمره[1] .

٣ ــ مهدي الفرقة المدعوة بالكيسانية ، وهم يزعمون أن المهدي هو محمد بن الحنفية وأنه حي مقيم بجبل رضوى ، وأنه بين أسدين يحفظانه ، وعنده عينان

---

(١) المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن القيم : ص ١٥٣ .

نضاختان تجريان بماء وعسل ، فزعموا أنه دخل إليه ومعه أربعون من أصحابه ، ولم يوقف لهم على خبر ، قالوا : وهم أحياء يرزقون ، ويقولون أنه يعود بعد الغيبة ، ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ، قالوا : وإنما عوقب بهذا الحبس لخروجه إلى عبدالملك بن مروان ، وقيل إلى يزيد بن معاوية ، وإلى هذا الاعتقاد أشار كثير عزة بقوله :

وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا ... برضوى عنده عسل وماء

وكان السيد الحميري على هذا المذهب ، وهو القائل :

ألا قل للإمام فدتك نفسي ... أطلت بذلك الجبل المقاما[1]

فما أصغر عقول هؤلاء ، وما أقل فهومهم ، يصدقون مالم يقم عليه دليل من عقل ولا نقل .

المطلب الرابع
وقت خروجه

يقول فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن باز حفظه الله : « قال ابن كثير في الفتن والملاحم : أظنه يكون عند نزول المسيح ، والحديث الذي رواه الحارث بن أبي أسامة يرشد إلى هذا[2] ، ويدل عليه ، لأنه قال أميرهم المهدي ، فهو يرشد إلى أنه يكون عند نزول عيسى بن مريم ، كما يرشد إليه بعض روايات مسلم ، وبعض

(١) لوامع الأنوار البهية للسفاريني : (٢/ ٨٥) .

(٢) نص حديث جابر : «ينزل عيسى بن مريم ، فيقول أميرهم المهدي : تعال صل بنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم أمير بعض تكرمة الله لهذه الأمة » ، قال ابن القيم بعد أن أورده في المنار المنيف : وهذا إسناد جيد .

الروايات الأخرى ، ولكن ليست بالصريحة ، فهذا هو الأقوم والأظهر ، ولكنه ليس بالأمر القطعي[1] » .

روى مسلم في صحيحه عن ثلاثة من أمهات المؤمنين : أم سلمة ، وحفصة ، وعائشة ، أن الرسول ﷺ أخبر أن جيشا يقصد عائذا يعوذ بالبيت فيخسف الله بذلك الجيش في بيداء من الأرض ، ففي رواية أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « يعوذ عائذ بالبيت ، فيبعث إليه بعث ، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم ، فقلت : يا رسول الله ، فكيف بمن كان كارها ، قال : يخسف به معهم ، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته »[2] .

وفي رواية حفصة قالت : سمعت النبي ﷺ يقول : « ليؤمن هذا البيت جيش يغزونه ، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأوسطهم ، وينادي أولهم آخرهم ، ثم يخسف بهم ، فلا يبقى إلا الشريد ، الذي يخبر عنهم » ، وفي رواية : « سيعوذ بهذا البيت قوم ليست لهم منعة ولا عدد ، ولا عدّة ، . . . » الحديث[3] .

وفي رواية عائشة أن النبي ﷺ عبث في منامه ، قالت : فقلنا : يا رسول الله : صنعت في منامك شيئا لم تكن تفعله ، فقال : العجب أن ناسا من أمتي يؤمون البيت برجل من قريش ، قد لجأ بالبيت ، حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم ، فقلنا : يا رسول الله ، إن الطريق قد يجمع الناس ، قال : نعم ، فيهم

---

(١) الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي : ص ١٦٠ .
(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/٢٢٠٨) حديث رقم (٢٨٨٢) .
(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/٢٢٠٩) حديث رقم (٢٨٨٣) ,

المستبصر والمجبور وابن السبيل ، يهلكون مهلكا واحدا ، ويصدرون مصادر شتى »[1] .

فهل هذاالخارج العائذ بالبيت الذي يؤيده الله بنصره، والذي يهلك الله من يقصده بالأذى هو المهدي الذي سبق ذكره في الأحاديث ؟ ليس عندنا ما يدل على ذلك صراحة ، حسب ما نعلم ، والله أعلم بالصواب .

المطلب الخامس
هل المهدي هو الخليفة الذي يحثو المال حثوا

وقد ورد في الأحاديث ذكر خليفة يكثر الخير في زمانه حتى إنه يحثو المال حثوا ، ولا يعده عدّاً ، فهل هو المهدي أو غيره ؟ الله أعلم بحقيقة ذلك .

روى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبدالله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثوا »[2] .

ورواه عن أبي سعيد أيضا ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من خلفائكم خليفة يحثو المال حثيا ، لا يعده عدّاً »[3] .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢١٠) حديث رقم (٢٨٨٤) .
وقد ورد الحديث السابق الذي روته أمهات المؤمنين بألفاظ متقاربة في كثير من كتب السنة كمسند أحمد ، ومسند أبي يعلى ، ومستدرك الحاكم . وابن ماجة والترمذي ، والطبراني في الأوسط وغيرهم .

(٢) رواه مسلم في صحيحه : (٤/ ٢٢٣٤) ، حديث رقم (٢٩١٣) .

(٣) رواه مسلم في صحيحه : (٤/ ٢٢٣٥) ، حديث رقم : (٢٩١٤) .

الفصل الخامس
العلامات الكبرى

تمهيد : ترتيب العلامات الكبرى حسب وقوعها :

هناك علامات كبرى تدل على قرب قيام الساعة ، فإذا ظهرت كانت الساعة على إثرها ، ففي صحيح مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر[1] ، فقال : « ماتذاكرون » ؟ قالوا : نذكر الساعة . قال : « إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات » .

فذكر الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ﷺ ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم »[2] .

والآيات الكبرى متتابعة في وقوعها ، لا يكاد يفصل بينها فاصل زمني ، وهي تشبه في تتابعها إذا وقعت العقد إذا انقطع سلكه الذي ينتظم حباته ، فإن الحبة

---

(١) اطلاعه عليهم لأنه كان في غرفة فوقهم ، جاء ذلك مبينا في رواية أخرى في صحيح مسلم .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة ، (٤/٢٢٢٥) ، حديث رقم : (٢٩٠١) ، وعزاه في جامع الأصول إلى أبي داود والترمذي أيضا .

الأولى تسقط فتتبعها بقية الحبات بلا تأخير ، روى الحاكم بإسناد صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الأمارات خرزات منظومات في سلك ، فإن يقطع السلك يتبع بعضها بعضا »(١) .

وقد أخبر الرسول ﷺ أن وقوع الحرب الكبرى بين المسلمين والروم وهي التي سماها الملحمة ستكون أولا ، ثم يفتح المسلمون القسطنطينية، ثم يخرج الدجال ، روى معاذ بن جبل رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « عمران بيت المقدس خراب يثرب ، وخراب يثرب خروج الملحمة ، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية ، وفتح القسطنطينية خروج الدجال » رواه أبو داود(٢) .

ومراد الرسول ﷺ أن هذه الأحداث تقع متتابعة متوالية ، وسيظهر للقارىء وهو يتابع كتابنا هذا كيف أن المسلمين في ذلك الزمان يشتبكون مع الروم في معركة كبرى ، هي التي سماها الرسول ﷺ بالملحمة ، وبعد انتصارهم عليهم يفتحون القسطنطينية ، ثم يخرج الدجال .

وبعد خروج الدجال ينزل عيسى ويقتل الدجال ، ثم يخرج يأجوج ومأجوج في زمن عيسى ، ويهلكهم الله في زمنه ، والترتيب إلى هنا واضح ظاهر .

أما بقية الآيات فإن ترتيبها ليس واضحا تماما ، نعم ، خروج الشمس من مغربها ،وخروج دابة الأرض ، وخروج النار التي تحشر الناس ، تكون بالتأكيد بعد خروج الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج ، ولكن أيها يسبق الآخر ،أعني طلوع الشمس من المغرب ، وخروج الدابة ، وحشر النار للناس .

---

(١) وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي وقال الألباني : وهو كما قالا . سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٦١/٤) ، ورقم الحديث : (١٧٦٢) .

(٢) مشكاة المصابيح : (١٧/٣) ، ورقم الحديث : (٥٤٢٥) ، وإسناده حسن كما قال محقق المشكاة .

إن الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة صريح في أن خروج النار التي تحشر الناس من اليمن هي آخر الآيات ، فقد ذكر الرسول ﷺ الآيات العشر الكبرى ، وقال في الآية العاشرة وهي النار : « وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم »[1] .

وتبقى ست آيات : طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة ، والدخان ، والخسوف الثلاثة : الخسف الذي بالمشرق ، والآخر الذي بالمغرب ، والثالث الذي بجزيرة العرب ، أما طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ، فتكونان بعد نزول عيسى وقتله الدجال ، وإهلاك يأجوج ومأجوج في عهده ، وبعد فساد الناس ودروس الإسلام وقبل خروج النار التي تحشر الناس ، ولكن أيهما أسبق : خروج الشمس ، أم خروج الدابة ؟ ذلك مالا نستطيع الجزم به بسبب عدم جزم الرسول ﷺ بذلك ، ففي حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيهما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى على إثرها قريبا »[2] .

ولا يجوز الاستدلال بهذا الحديث على أن طلوع الشمس يكون قبل خروج الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج ، لقوله : أول الآيات خروجا طلوع الشمس . . . « فالـذي يترجح من الأخبار أنَّ خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة في معظم الأرض ، وينتهي ذلك بموت عيسى بن مريم ، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآياتَ العظام المؤذنة

(١) رواه مسلم في صحيحه ، (٢٢٢٥/٤) ، ورقمه : (٢٩٠١) .
(٢) رواه مسلم في كتاب الفتن، باب في خروج الدجال ، (٢٢٦٠/٤) ، ورقم الحديث (٢٩٤١) .

بتغير أحوال العالم العلوي ، وينتهي ذلك بقيام الساعة ، ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب »[١] .

« قال الحاكم أبو عبدالله : الذي يظهر أن طلوع الشمس يسبق خروج الدابة ، ثم تخرج الدابة في ذلك اليوم أو الذي يقرب منه »[٢] .

أما بقية الآيات ، وهي الخسوف الثلاثة، والدخان ـ فإننا لا ندري ما ترتيبها في الآيات العظام ، فلم نر من النصوص الصحيحة ما يحدد ذلك ، فالله أعلم بحقيقته

---

(١) فتح الباري : (١١/ ٣٥٣) .
(٢) فتح الباري : (٣٥٣/١١) .

المبحث الأول

الدخان

من الآيات الكبرى التي تقع قبيل الساعة الدخان ، قال تعالى : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1]، ومما يدل دلالة صريحة على أن الدخان من العلامات الكبرى ما رواه مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفاري ، قال : اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر ، فقال : ما تذاكرون ؟ قلنا : نذكر الساعة ، قال : « إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات ، فذكر الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ﷺ ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم »[2] .

وابن مسعود رضي الله عنه يرى أن هذه الآية مضت وانقضت ، فقد روى مسلم في صحيحه عن مسروق ، قال : كنا عند عبدالله جلوسا ، وهو مضطجع بيننا ، فأتاه رجل فقال : يا أبا عبدالرحمن إن قاصًا يقص عند أبواب كنده ، ويزعم أن آية الدخان تجيء ، فتأخذ بأنفاس الكفار . ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام ، فقال عبدالله ، وجلس وهو غضبان : يا أيها الناس ، اتقوا الله ، من علم منكم شيئا ، فليقل بما يعلم ، ومن لم يعلم ، فليقل : الله أعلم ، فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم : الله أعلم ، فإن الله قال لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ مَآ

---

(١) سورة الدخان : ٩ ، ١٠ .

(٢) رواه مسلم : (٤/٢٢٢٥) حديث رقم : (٢٩٠١) .

أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[1] .

إن رسول الله لما رأى من الناس إدبارا ، فقال : « اللهمّ سبع كسبع يوسف » قال :فأخذتهم سنة حصّت[2] كل شيء ، حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع ، وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان ، فأتاه أبو سفيان فقال : يا محمد ، إنك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع الله لهم ،قال الله عز وجلّ :﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[3] إلى قوله : ﴿ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾[4] قال : أفيكشف عذاب الآخرة ؟ ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾[5] فالبطشة الكبرى يوم بدر ، وقد مضت آية الدخان ، والبطشة ، واللزام ، وآية الروم[6][7] . فابن مسعود يرى أنها قد مضت وانقضت ، واستدل على ذلك بأن العذاب الذي يقع بالكافرين في الآخرة لا يكشف عنهم ، والآية تنص أن الله رافع عنهم العذاب قليلا ، وذهب مذهب ابن مسعود جماعة من السلف كمجاهد وأبي العالية ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك ، وعطية العوفي ، وهو اختيار ابن جرير[8] .

وقد رجح ابن كثير أن آية الدخان لم تأت بعد ، وأورد في ذلك حديث أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ربكم أنذركم ثلاثا : الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة،ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه» .

---

(١) سورة ص : ٨٦ .

(٢) السنة القحط ، وحصّت : استأصلت .

(٣) سورة الدخان : ١٠ ـ ١١ ـ

(٤) سورة الدخان : ١٥ .

(٥) سورة الدخان : ١٦ .

(٦) آية اللزام يشير بها إلى قوله تعالى : ﴿ فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ﴾ .

وآية الروم يريد بها قوله تعالى : ﴿ الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴾ .

(٧) رواه مسلم : (٢١٥٧/٤) ، حديث رقم (٢٧٩٨) ، وقال ابن كثير في تفسيره (٢٤٦/٦) هذا الحديث مخرج في الصحيحين ، ورواه أحمد وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيريهما .

(٨) تفسير ابن كثير : (٢٤٧/٦) .

والثانية : الدابة . والثالثة : الدجال » رواه ابن جرير . ورواه الطبراني وإسناده جيد ، وذكر ابن كثير أن القول بأن آية الدخان لم تأت بعد هو قول علي بن أبي طالب ، وأبي سعيد الخدري ، وابن عباس والحسن البصري[1] ، واستدل ابن كثير على ما ذهب إليه بأمور :

١ ــ الأحاديث الصحيحة والحسنة الواردة في الموضوع الدالة على أن الآية لم تأت بعد .

٢ ــ قوله تعالى :﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾[2] أي بين واضح يراه كل أحد ، وليس خيالا كما ذهب إليه ابن مسعود .

٣ ــ قوله تعالى : ﴿ **يغشى الناس** ﴾ ولو كان أمرا خياليا يخص أهل مكة المشركين ، لما قيل فيه ﴿ **يغشى الناس** ﴾[3] .

وقال النووي في شرحه على مسلم عند قوله ﷺ : « لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان . . » : « هذا الحديث يؤيد قول من قال : إن الدخان يأخذ بأنفاس الكفار ، ويأخذ المؤمن منه كهيئة الزكام ، وأنه لم يأت بعد ، وإنما يكون قريبا من قيام الساعة ، وقد سبق في كتاب بدء الخلق قول من قال هذا ، وإنكار ابن مسعود عليه ، وأنه إنما هو عبارة عما نال قريشا من القحط ، حتى كانوا يرون بينهم وبين السماء كهيئة الدخان ، وقد وافق ابن مسعود جماعة ، وقال بالقول الآخر حذيفة وابن عمر والحسن ، ورواه حذيفة عن النبي ﷺ ، وأنه يمكث في الأرض أربعين يوما ، ويحتمل أنهما دخانان للجمع بين هذه الآثار »[4] .

---

(١) تفسير ابن كثير : (٢٤٨/٦) .

(٢) سورة الدخان : ١٠ .

(٣) تفسير ابن كثير : (٢٤٧/٦) .

(٤) شرح النووي على مسلم : (٢٧/١٨) .

المبحث الثاني

فتنة الدجال

المطلب الأول

فتنته أعظم فتنة في تاريخ البشر

فتنة الدجال تقع في آخر الزمان ، وهي إحدى أشراط الساعة الكبرى ، وفتنته من أعظم الفتن التي تمر على البشرية عبر تاريخها ، ففي صحيح مسلم عن أبي الدهماء وأبي قتادة ، قالوا : كنا نمرّ على هشام بن عامر ، نأتي عمران بن حصين ، فقال ذات يوم : إنكم لتجاوزوني إلى رجال ، ما كانوا بأحضر إلى رسول الله ﷺ مني ، ولا أعلم بحديثه مني ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال » ، وفي رواية : « أمر أكبر من الدجال »[1] . من أجل ذلك فإن جميع الأنبياء حذروا أقوامهم من فتنته ، ولكن رسولنا ﷺ كان أكثر تحذيراً لأمته منه .

ففي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : قام رسول الله ﷺ في الناس ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثمَّ ذكر الدجال ، فقال :

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب في بقية من أحاديث الدجال ، (٤/٢٢٦٦) ، حديث رقم : (٢٩٤٦) .

« إني لأنذركموه ، وما من نبي إلا أنذره قومه ،ولكني سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه ، إنه أعور وإن الله ليس بأعور »(١) .

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ : « ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب ، ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور ، وإن بين عينيه مكتوب كافر »(٢) .

وفي سنن الترمذي وسنن أبي داود عن عبدالله بن عمر ، أن الرسول ﷺ ، قال في الدجال : « إني لأنذركموه ، وما من نبي إلا أنذره قومه ، ولقد أنذره نوح قومه ، ولكني سأقول فيه قولا لم يقله نبي لقومه : تعلمون أنه أعور ، وأن الله ليس بأعور »(٣) .

وفي سنن ابن ماجة وصحيح ابن خزيمة ومستدرك الحاكم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ ، قال : « يا أيها الناس ، إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض ، منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم فتنة من الدجال ، وإن الله عز وجل لم يبعث نبيا إلا حذر أمته من الدجال ، وأنا آخر الأنبياء ، وأنتم آخر الأمم ، وهو خارج فيكم لا محالة »(٤) .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، فتح الباري : (١٣/٩٠) .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، فتح الباري : (١٣/٩١) ، ورواه مسلم في كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال وصفة ما معه : (٤/٢٢٤٨) ، حديث رقم : (٢٩٣٣) .
(٣) أنظر جامع الأصول : (١٠/٣٥٦) ، حديث رقم : (٢٨٤٨) ، والسياق للترمذي .
(٤) صحيح الجامع الصغير(٦/٢٧٣) ، ورقمه (٧٧٥٢) وإسناده صحيح .

المطلب الثاني

السر في تسميته بالمسيح الدجال

يقول ابن الأثير : « سمي الدجال مسيحا ، لأن عينه الواحدة ممسوحة ، والمسيح : الذي أحد شقي وجهه ممسوح ، لاعين له ولا حاجب ، فهو فعيل بمعنى مفعول ، بخلاف المسيح عيسى بن مريم ، فإنه فعيل بمعنى فاعل ، سمي به ، لأنه كان يمسح المريض فيبرأ بإذن الله ، والدجال الكذاب »[1] وسمي دجالا ـ كما يقول ابن حجر ـ « لأنه يغطي الحق بباطله ، ويقال : دجل البعير بالقطران إذا غطاه ، والإناء بالذهب إذا طلاه . . ، وقال ابن دريد : سمي الدجال ، لأنه يغطي الحق بالكذب ، وقيل لضربه نواحي الأرض ، . . . وقيل : بل قيل ذلك ، لأنه يغطي الأرض »[2] .

المطلب الثالث

حال المسلمين في العصر الذي يخرج فيه الدجال

قبيل خروج الدجال يكون للمسلمين شأن كبير ، وقوة عظيمة ، ويبدو أن خروجه إنما هو للقضاء على تلك القوة ، ففي ذلك الوقت يصالح المسلمون الروم ، ويغزون جميعا عدوا مشتركا فينصرون عليه ، ثمّ تثور الحرب بين المسلمين والصليبيين ، ففي سنن أبي داود عن ذي مخبر ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ستصالحون الروم صلحا آمنا ، فتغزون أنتم وهم عدوا من ورائكم ، فتنصرون وتغنمون وتسلمون ، ثم ترجعون ، حتى تنزلوا بمرج ذي تلول ، فيرفع

---

(١) جامع الأصول ، لابن الأثير : (٢٠٤/٤) ، وانظر « لسان العرب » مادة : مسح .

(٢) فتح الباري : (٩١/١١) .

رجل من أهل النصرانية الصليب ، فيقول : غلب الصليب ، فيغضب رجل من المسلمين فيدقه ، فعند ذلك تغدر الروم وتجمع للملحمة ، وزاد بعضهم : « فيثور المسلمون إلى أسلحتهم ، فيقتتلون فيكرم الله تلك العصابة بالشهادة »[1] .

فأنت ترى قوة المسلمين في ذلك الوقت ، حيث أنهم يغزون وينصرون ويغنمون ويرجعون سالمين وترى إلى أي مدى هم متمسكون بدينهم ، فإن ذلك الصليبي عندما يرفع الصليب زاعما أن الانتصار الذي شارك المسلمون في تحقيقه كان للصليب ، يقوم مسلم غيور على دينه فيدق ذلك الصليب ويكسره ، وتثور العصابة التي تكون في ذلك الموقع من المسلمين إلى سلاحهم ، ويقاتلون الروم - على الرغم من قلتهم في ذلك الموقع ، ويشهد الرسول ﷺ لهم بأنهم شهداء ، وأن الله أكرمهم بذلك ، ويكون غدر الروم ذلك ، وما جرى بعده سببا في وقوع الملحمة .

الملحمة وفتح القسطنطينية

والملحمة معركة كبيرة هائلة تقع بين المسلمين والصليبيين[2] ، وسببها هو السبب الذي أشار إليه الحديث السابق ، وقد جاء أكثر من حديث يصف هذه المعركة وهولها ، وكيف يكون صبر المسلمين فيها ، ثم يكون النصر لهم على

---

(١) مشكاة المصابيح : (١٨/٣) ، حديث رقم : (٥٤٢٨) ، وقال محقق المشكاة الشيخ ناصر الدين الألباني : إسناده صحيح .

(٢) تدل الأحاديث النبوية أن الروم يكونون في آخر الزمان أكثر الناس عددا ، ففي مسند أحمد وصحيح مسلم عن المستورد أن الرسول ﷺ قال : « تقوم الساعة والروم أكثر عددا » صحيح الجامع الصغير : (٥١/٣) .

أعدائهم ، ويلاحظ أنه يكون في صفوف المسلمين أعداد كبيرة من النصارى الذين أسلموا وحسن إسلامهم ، ففي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق ، أو بدابق[١] ، فيخرج لهم جيش من المدينة ، من خيار أهل الأرض يومئذ ، فإذا تصافوا قالت الروم : خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم ، فيقول المسلمون : لا ، والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا ، فيقاتلونهم ، فيهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدا ، ويقتل ثلث أفضل الشهداء عند الله ، ويفتتح الثلث ، لا يفتنون أبدا ، فيفتتحون قسطنطينية[٢] ، فبينما هم يقتسمون الغنائم ، قد علقوا سيوفهم بالزيتون ، إذ صاح فيهم الشيطان : إن المسيح قد خلفكم في أهليكم ، فيخرجون وذلك باطل ، فإذا جاؤوا الشأم خرج ، فبينما هم يعدُّون للقتال ، يسوون الصفوف ، إذ أقيمت الصلاة ، فينزل عيسى بن مريم ﷺ فَأَمّهم ، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فلو تركه لانذاب حتى يهلك ، ولكن يقتله الله بيده ، فيريهم دمه في حربته »[٣] .

وقد حدثنا الرسول ﷺ في حديث آخر عن هول تلك المعركة ،وعن الفدائية التي تكون في صفوف المسلمين ، حتى أن مجموعات من المسلمين يتبايعون على القتال حتى النصر أو الموت ثلاثة أيام متوالية ، ويبدو أن أعداد المسلمين في تلك الأيام قليلة ، بدليل أن المسلمين ينتصرون عندما يصلهم المدد من بقية أهل الإسلام ، ففي صحيح مسلم عن عبدالله بن مسعود ، قال : « إن الساعة لاتقوم ، حتى لا يقسم ميراث ، ولا يفرح بغنيمة ، ثـمَّ قال بيده هكذا (ونحاها

(١) موضعان بالشام قرب حلب .
(٢) هذا فتح آخر غير الذي تمَّ على يد محمد الفاتح .
(٣) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب فتح القسطنطينية ، (٤/٢٢٢١) رقم الحديث : (٢٨٩٧) .

نحو الشام) ، فقال : عدو يجمعون لأهل الإسلام ، ويجمع لهم أهل الإسلام(١) ، قلت : الروم تعني(٢) ؟ قال : نعم ، وتكون عند ذاكم القتال رَدَّةٌ شديدة ، فيشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة ، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل ، فيفيء هؤلاء وهؤلاء ، كل غير غالب ، وتفنى الشرطة ، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت ، لا ترجع إلا غالبة ، فيقتتلون ، حتى يحجز بينهم الليل ، فيفيء هؤلاء وهؤلاء ، كل غير غالب ، وتفني الشرطة ، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت ، لا ترجع إلا غالبة ، فيقتتلون حتى يمسوا ، فيفيء هؤلاء وهؤلاء ، كل غير غالب ، وتفنى الشرطة ، فإذا كان اليوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام ، فيجعل الله الدبرة عليهم ، فيقتلون مقتله ـ إما قال : لا يرى مثلها ، وإما قال : لم ير مثلها ـ حتى إن الطائر ليمر ، بجنباتهم ، فما يخلفهم حتى يخرّ ميتا ، فيتعاد بنو الأب كانوا مائة ، فلا يجد منه بقي إلا الرجل الواحد ، فبأي غنيمة يفرح ؟ أو أي ميراث يقاسم ؟ فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك ، فجاءهم الصريخ ، إن الدجال قد خلفهم في ذراريهم ، فيرفضون مافي أيديهم ، ويقبلون ، فيبعثون عشرة فوارس طليعة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف أسماءهم ، وأسماء آبائهم ، وألوان خيولهم ، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ »(٣) .

وفتح القسطنطينية المذكور في حديث الملحمة الذي سقناه أولا جاء عنه شيء من التفصيل في حديث مسلم الذي يرويه أبو هريرة أيضا ، قال : قال النبي ﷺ :

---

(١) أي للحرب والقتال ، وهذا إنما يكون بعد غدر الروم المشار إليه في الحديث السابق .

(٢) القائل هو راوي الحديث عن عبدالله بن مسعود ، وهو يُسير بن جابر .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب إقبال الروم في كثرة القتل ، (٤/٢٢٢٣) ورقمه : (٢٨٩٩) .

« سمعتم بمدينة جانب منها في البر ، وجانب منها في البحر[1] قالوا : نعم ، يا رسول الله ، قال : لاتقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفا من بني إسحاق[2] فإذا جاؤوها نزلوا، فلم يقاتلوا بسلاح ، ولم يرموا بسهم ، قالوا : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، فيسقط أحد جانبيها » .

قال ثور[3] : لا أعلمه إلا قال : « الذي في البحر ، ثم يقولون الثانية : لا إله إلا الله والله أكبر ، فيسقط جانبها الآخر ، ثم يقولون الثالثة : لا إله إلا الله والله أكبر ، فيفرج لهم ، فيدخلوها ، فيغنموا ، فبينما هم يقتسمون الغنائم ، إذ جاءهم الصريخ ، فقال : إن الدجال قد خرج ، فيتركون كل شيء ويرجعون »[4] .

---

(١) ذهب العلماء إلى أن هذه المدينة هي القسطنطينية ، وإن لم يسمها الرسول ﷺ ، وقد خطر ببالي أن هذه المدينة قد تكون البندقية في إيطاليا ، فإن جزءا كبيرا من بيوتها مبني في داخل البحر ، وجزء في البر ، وقد نظرت إلى المدينتين خلال زيارتي لكل واحدة منها فرأيت البندقية أقرب إلى المراد بالحديث والله أعلم .

(٢) يقول النووي في شرحه على مسلم (١٨/ ٤٤) : قال القاضي : كذا هو في جميع أصول صحيح مسلم من بني إسحاق ، قال : قال بعضهم المعروف المحفوظ من بني إسماعيل وهو الذي يدل عليه الحديث وسياقه لأنه إنما أراد العرب . . » ، أقول وليس في هذا اشكال إن شاء الله تعالى ، فإن هذا الدين للناس جميعا ، والله يعطي ملكه من يشاء ، فقد غزا محمد الفاتح القسطنطينية بعد النووي بأكثر من ثلاثمائة سنة ، وكان جنوده أكثرهم من غير العرب ، فلا يستبعد أن يحصل مثل هذا مرة أخرى ، وفي حديث الملحمة السابق ما يدل عليه ، فإن الروم يقولون للمسلمين : خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا .

(٣) هو ثور بن زيد الدِّيلي ، أحد رواة الحديث .

(٤) رواه مسلم ، كتاب الفتن ، (٤/٢٢٣٨) ، ورقمه : (٢٩٢٠) .

المطلب الرابع
القحط والمجاعة قبل خروج الدجال

يبتلي الناس قبيل خروج الدجال بلاءً شديدا ، فتمنع السماء القطر ، وتحبس الأرض النبات ، ففي سنن ابن ماجة ، وصحيح ابن خزيمة ، ومستدرك الحاكم عن أبي أمامة أن الرسول ﷺ قال : « إن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد ، يصيب الناس فيها جوع شديد ، يأمر الله السماء في السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها ، ويأمر الأرض أن تحبس ثلث نباتها ، ثمَّ يأمر السماء في السنة الثانية فتحبس ثلثي مطرها ، ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها ، ثمَّ يأمر السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كله ، فلا تقطر قطرة ، ويأمر الأرض فتحبس نباتها كله ، فلا تنبت خضراء ، فلا يبقى ذات ظلف ، إلا هلكت إلا ما شاء الله قيل : فما يُعيش الناس في ذلك الزمان ؟ قال : التهليل ، والتكبير ، والتحميد ، ويجزيء ذلك عليهم مجزأة الطعام »[1] .

المطلب الخامس
صفات الدجال وعلاماته

يدعي الدجال الربوبية ، ويأتي من الأعمال الخارقة ما يروّج به باطله ، حتى أن الرجل يأتيه ظانًّا أن أمره لن يخفى عليه ، وأن باطله لن يروج عليه ، فعندما يرى ما عنده من مخاريق يتبعه ، ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : « من سمع بالدجال فلينأ عنه ، فوالله إنِ الرجل

(١) صحيح الجامع : (٢٧٧/٦) ورقمه : (٧٧٥٢) .

ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن ، فيتبعه ، مما يبعث به من الشبهات ، أو لما يبعث به من الشبهات »[1] .

ومن نظر في أمر الدجال نظر معتبر علم يقينا أنه مبطل ، وأن صفات الربوبية غير متحققة فيه ، فهو بشر مسكين عاجز على الرغم مما يجري على يديه ، يأكل ويشرب وينام ، ويتبول ويتغوط ، ومن كان هذا حاله كيف يكون إلها معبودا ، وربا للكائنات وهو محتاج إليها !!

ومع وضوح ذلك فإن رسول الله ﷺ أخبرنا شيئا كثيرا عن صفاته وأحواله كي يعرفه المؤمنون الذين يخرج في عصرهم ، وكي يستطيعوا مواجهته ولا يغتروا بباطله .

صفات عامة

وصفه الرسول ﷺ وصفا يبرز شخصيته ويحدد معالم جسمه ، ففي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر أن الرسول ﷺ رأى الدجال في الرؤيا ، وجاء في وصفه له : « رجل جسيم ، أحمر ، جعد الرأس ، أعور العين ، كأن عينه عنبة طافية ، . . . أقرب الناس به شبها ابن قطن من خزاعة »[2] .

وفي مسند أحمد وسنن أبي داود بإسناد صحيح عن عبادة بن الصامت ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إني حدثتكم عن الدجال حتى خشيت أن لا تعقلوا ، إن المسيح الدجال رجل قصير ، أفحج ، جعد ، أعور ، مطموس العين ، ليست

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٣٥٤) ، ورقم الحديث : (٧٨٤٦) .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، فتح الباري : (١٣/٩٠) .

بناتئة ولا حجراء ، فإن ألبس عليكم ، فاعلموا أن ربكم ليس بأعور ، وأنكم لن تروا ربكم »(١) .

وفي صحيح ابن حبان ، ومسند أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « الدجال أعور ، هجان أزهر (وفي رواية : أقمر) ، كأن رأسه أصلة ، أشبه الناس بعبد العزي بن قطن ، فإمّا هَلَكَ الهُلَّك ، فإن ربكم ليس بأعور »(٢) .

عور الدجال

ركز الرسول ﷺ على وصف عيني الدجال ، لأن الدجال مهما تخلص من شيء من صفاته ، فإنه لايستطيع أن يتخلص من عينيه ، والعينان ظاهرتان بارزتان يراهما كل أحد ، وبهما صفات واضحة لا تخفى ، فقد أشارت الأحاديث السابقة إلى عيوب في عينيه ، أوضحها أنه أعور ، وقد جاء في بعض الأحاديث أن العين العوراء هي اليمنى ، وجاء في أحاديث أخرى أنها اليسرى ، وكونها اليمنى أرجح ، فأحاديثها مما اتفق على إخراجه البخاري ومسلم ، وشبه الرسول ﷺ تلك العين بالعنبة الطافئة ، وفي حديث آخر وصف عينه اليمنى بكونها عوراء جاحظة لا تخفى كأنها نخاعة في حائط مجصص » .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٢/٣١٨) ، ورقمه (٢٤٥٥) ، والأفحج الذي به فحج وهي طريقة في المشي معروفة ، سببها عيب في الخلقة ، إما إعوجاج في الساقين ، أو تباعدفي الفخذين ، أو غير ذلك ، وقوله (مطموس العين) ممسوحها كما جاء مبينا في أحاديث أخرى ، و(الحجراء) : الغائرة .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣/١٩٠) ورقم الحديث : (١١٩٣) ، وقال الشيخ ناصر فيه : « صحيح على شرط مسلم » ، و(الهجان) : الأبيض ، بمعناه الأزهر ، وهذا لا ينافي كونه أحمر ، فإن الأبيض يشرب بالحمرة ، فيوصف بهذا وهذا ، و (الأقمر) الذي لونه لون الحمار الأقمر أي الأبيض ، و(أصله) هي الحية العظيمة الضخمة . و(الهلك) جمع هالك أي فإن هلك بسببه كثير من الجهلة الضالون . . . فإن ربكم ليس بأعور .

ففي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر أن النبي ﷺ قال عن الدجال : « أعور العين اليمنى ، كأنها عنبة طافية »[1] .

وفي حديث أبي سعيد عند أحمد : « وعينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى ، كأنها نخاعة في حائط مجصص ، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري »[2] .

وهي مع ذلك ممسوحة كما سبق بيانه ، ففي صحيح مسلم : « الدجال ممسوح العين »[3] .

وقد وجه النووي الروايات توجيها آخر ، فهو يرى أن جميع الروايات التي وصفت عينيه كلتاهما بالعور روايات صحيحة ، فالعور معناه في اللغة : العيب ، وعينا الدجال معيبتان كلتاهما ، فقد ورد أن العوراء هي اليمنى ، وورد أن العوراء هي اليسرى ، وورد أن إحداهما طافئة بالهمز أي لا ضوء فيها ، وورد أن الأخرى طافية بلا همزة ، أي ظاهرة ناتئة ، فعيناه على ما حققه النووي إحداهما لا يرى بها لذهاب نورها وهذه ممسوحة غير ناتئة ولا غائرة ، والأخرى لم يذهب نورها ولكنها معيبة بعيب آخر وهو ظهورها وبروزها[4] ، وقد جاء في إحدى الروايات عند مسلم أن العين التي ذهب ضوؤها وهي الممسوحة عليها ظفرة غليظة ، « إن الدجال ممسوح العين ، عليها ظفرة غليظة »[5] ، والظفرة الغليظة جلدة تغشى البصر ، وقال الأصمعي : لحمة تنبت عند المآقي .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، فتح الباري : (١٣/ ٩٠) ، ورواه مسلم في كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، (٤/ ٢٢٤٧) .

(٢) فتح الباري : (١٣/ ٩٨) .

(٣) صحيح مسلم : كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٤/ ٢٢٤٨) ، ورقمه (٢٩٣٣) .

(٤) راجع شرح النووي على مسلم : (١٨/ ٦١) .

(٥) صحيح مسلم ، كتاب الفتن : (٤/ ٢٢٤٩) ، ورقم الحديث : (٢٩٣٤) .

وقد وصف لنا الرسول ﷺ عينه التي يرى بها ، فقال : « الدجال عينه خضراء كالزجاجة » رواه أحمد وأبو نعيم بإسناد صحيح [1] .

مكتوب بين عينيه كافر

وهناك علامة أعلم الله بها الدجال يعرفها فيه المؤمنون دون غيرهم ممن طمس الله بصائرهم ، وهذه العلامة كتابة بين عينيه نصها « ك ف ر » أو « كافر » ففي صحيح البخاري عن أنس عن النبي ﷺ ، قال : « ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب ، ألا إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، وإن بين عينيه مكتوب كافر » [2] .

وفي صحيح مسلم مثل رواية البخاري ، إلا أنه قال : « مكتوب بين عينيه » : « ك ف ر » [3] وفي صحيح ابن خزيمة وسنن ابن ماجة ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن أبي أمامة : « وأنه مكتوب بين عينيه : كافر ، يقرؤه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب » [4] وفي صحيح مسلم : « إنه مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه من كره عمله ، أو يقرؤه كل مؤمن » [5] .

« والصحيح الذي عليه المحققون ـ كما يقول النووي رحمه الله تعالى ـ أن هذه الكتابة على ظاهرها ، وأنها كتابة حقيقة جعلها الله آية وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره وكذبه وإبطاله ، ويظهرها الله تعالى لكل مسلم كاتب

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٤٧٧) ورقم الحديث (١٨٦٣) .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، فتح الباري : (١٣/٩٠) .
(٣) رواه مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، (٤/٢٢٤٨) ، ورقم الحديث (٢٩٣٣) .
(٤) صحيح الجامع : (٦/٢٧٤) ورقمه : (٧٧٥٢) .
(٥) رواه مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر ابن صياد ، (٤/٢٢٤٥) .

وغير كاتب ، ويخفيها عمن أراد شقاوته وفتنته ، ولا امتناع في ذلك ، وذكر القاضي عياض فيه خلافا ،منهم من قال هي كتابة حقيقة كما ذكرنا ،ومنهم من قال : هي مجاز ، وإشارة إلى سمات الحدوث عليه ، واحتج بقوله يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب وهذا مذهب ضعيف »[1] .

ليس له عقب

أخبر الرسول ﷺ أن الدجال « عقيم لا يولد له » رواه مسلم في صحيحه[2] .

المطلب السادس
بطلان دعواه الربوبية

إذا كانت تلك صفات الدجال ، وهي صفات بها نقص كبير ، فكيف يصح لهذا المخلوق الضعيف دعوى الربوبية ، إنه يدعي أنه رب ا لناس ، ورب الناس لا يرى في الدنيا ، يقول :ﷺ : « تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه حتى يموت »[3] ، ثم هو غير سويّ الخلقة ، فيه عيوب لا تخفى ، منها عوره ، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ : « إن الله لا يخفى عليكم ، إن الله ليس بأعور ، وأشار بيده إلى عينيه ـ وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية »[4].

---

(١) شرح النووي على مسلم : (١٨/ ٦٠) .

(٢) صحيح مسلم : (٤/ ٢٢٤٢ ـ ٢٢٤٣) .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، (٤/ ٢٢٤٥) .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قول الله ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ فتح الباري : (١٣/ ٣٨٩) .

ومن صفاته المعيبة في الأحاديث أنه أفحج ، والفحج « تباعد مابين الساقين » ، أو الفخذين ، وقيل تداني صدور القدمين ، مع تباعد العقبين ، وقيل هو الذي في رجله اعوجاج »[1] .

وصدق ابن العربي في قوله : «في اختلاف صفات الدجال بما ذكر من النقص بيان أنه لا يدفع النقص عن نفسه كيف كان ، وأنه محكوم عليه في نفسه »[2] . ومراده أنه لو كان ربا لأزال النقص الذي في نفسه ، فعدم إزالته دليل على أنه مربوب مقهور لايستطيع أن يتخلص من عيوبه .

وتركيز الرسول ﷺ على كونه أعور « لكون العور أثر محسوس يدركه العالم والعامي ، ومن لا يهتدي إلى الأدلة العقلية »[3] ، وإلا فإن أصحاب العلم يمكن أن يدركوا أمره ، ويصلوا إلى حقيقة دعواه .

المطلب السابع
إمكانات الدجال التي تسبب الفتنة

يدعي الدجال الألوهية ، ويعطى من الإمكانات أمورا مذهلة تفتن الناس فتنة عظيمة ، ومن ذلك .

ـ سرعة انتقاله في الأرض :

ففي حديث النواس بن سمعان في صحيح مسلم أن النبي ﷺ سئل عن

---

(١) فتح الباري : (١٣/٩٧) .
(٢) فتح الباري : (١٣/٩٨) .
(٣) فتح الباري : (١٣/٩٦) .

إسراع الدجال في الأرض ، فقال : « كالغيث استدبرته الريح . . »[1] وقد أخبر الرسول ﷺ أنه سيجول في أقطار الأرض ولا يترك بلدا إلا دخله إلا مكة والمدينة ، ففي حديث أنس في الصحيحين « ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة »[2] .

وفي حديث أبي أمامة عند ابن ماجة وابن خزيمة والحاكم : « وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه ، وظهر عليه ، إلا مكة والمدينة ، لا يأتيهما من نقب من أنقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلته »[3] .

٢ ـ جنته وناره :

ومما يفتن الدجال به الخلق أن معه ما يشبه الجنة والنار ، أو معه ما يشبه نهرا من ماء ، ونهرا من نار ، وواقع الأمر ليس كما يبدو للناس ، فإن الذي يرونه ناراً إنما هو ماء بارد ، وحقيقة الذي يرونه ماء بارداً نار .

ففي صحيح مسلم عن حذيفة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « معه (أي الدجال) جنّة ونار ، فناره جنةٌ ، وجنته نار »[4] .

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن حذيفة أيضا عن النبي ﷺ قال في الدجال : « إن معه ماءً ونارا ، فناره ماء بارد ، وماؤه نار » زاد في رواية مسلم : « فلا تهلكوا »[5] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٢٢٥٢/٤) ، ورقمه (٢٩٣٧) .
(٢) صحيح الجامع الصغير ، (٩٩/٥) ، ورقم الحديث (٥٣٠٩) .
(٣) صحيح الجامع الصغير ، (٢٧٥/٦) ، ورقمه : (٧٧٥٢) .
(٤) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، (٢٢٤٨/٤) ورقم الحديث (٢٩٣٤) .
(٥) رواه البخاري في كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، فتح الباري : (٩٠/١٣) ، ورواه مسلم في كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، (٢٢٤٩/٤) ورقم الحديث (٢٩٣٤) .

وفي رواية عند مسلم في صحيحه عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « لأنا أعلم بما مع الدجال منه ، معه نهران يجريان ، أحدهما : رأى العين ماء أبيض ، والآخر : رأى العين نار تأجج ، فإمّا أدركنَّ أحد ، فليأت الذي يراه نارا وليغمض ، ثم ليطأطيء رأسه فيشرب منه ، فإنّه ماء بارد »[1] .

وفي رواية أخرى في صحيح مسلم عن حذيفة أيضا : « إن الدجال يخرج ، وإن معه ماءً ونارا ، فأما الذي يراه الناس ماء فنار تحرق ، وأمّا الذي يراه الناس نارا ، فماء بارد عذب ، فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه نارا ، فإنه ماء عذب طيب »[2] .

وواضح من النصوص أن الناس لا يدركون مامع الدجال حقيقة ، وأن ما يرونه لايمثل الحقيقة بل يخالفها ، ولذلك فقد جاء في بعض الأحاديث في صحيح مسلم : « وإنه يجيء معه مثل الجنة والنار ، فالتي يقول : إنها الجنة هي النار »[3].

٣ ـ استعانته بالشياطين :

لاشك أن للدجال استعانة بالشياطين ، ومن المعلوم أن الشياطين لاتخدم إلا من يكون في غاية الإفك والضلال ، والعبودية لغير الله ، ففي سنن ابن ماجة وصحيح ابن خزيمة ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « وإن من فتنته أن يقول للأعرابي : أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك ،

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الفتن ؛ باب ذكر الدجال ، (٢٢٤٩/٤) ، ورقم الحديث : (٢٩٣٤) .
(٢) رواه مسلم ، كتاب الفتن ، (٢٢٥٠/٤) (٢٩٣٥) .
(٣) رواه مسلم ، كتاب الفتن ، حديث رقم : (٢٩٣٦) .

أتشهد أني ربك ؟ فيقول : نعم ، فيتمثل له شيطان في صورة أبيه وأمّه ، فيقولان : يا بني اتبعه ، فإنه ربك »[1] .

٤ ـ استجابة الجماد والحيوان لأمره :

ومن فتنته التي يمتحن الله بها عباده أنه يأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، ويدعو البهائم فتتبعه ، ويأمر الخرائب أن تخرج كنوزها المدفونة فتستجيب ، ففي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان ، أن النبي ﷺ ، قال : « فيأتي على القوم فيدعوهم ، فيؤمنون به ، ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم ، أطول ما كانت ذرا ، وأسبغه ضروعا ، وأمده خواصر ، ثمّ يأتي القوم ، فيدعوهم ، فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم ، فيصبحون ممحلين ، ليس بأمرهم شيء من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل »[2] .

٥ ـ قتله ذلك الشاب ثم إحياؤه إياه :

ومن فتنته أنه يقتل ذلك المؤمن فيما يظهر للناس ثم يدعي أنه أحياه ، ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثا طويلا عن الدجال ، فكان فيما يحدثنا أنه قال : « يأتي الدجال ـ وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة ـ فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة ، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس ، أو من خيار الناس ، فيقول : أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه ، فيقول الدجال ، أرأيتم إن قتلت هذا ثمّ أحييته ، هل تشكون في

---

(١) صحيح الجامع الصغير ، (٦/٢٧٤) ، ورقمه (٧٧٥٢) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٤/٢٢٥٢) ، ورقمه (٢٩٣٧) ويعاسيب النحل ، هي ذكور النحل ، وقيل جماعة النحل .

الأمر ؟ فيقولون : لا ، فيقتله ، ثم يحييه ، فيقول : والله ما كنت فيك أشدَّ بصيرة مني اليوم ، فيريد الدجال أن يقتله ، فلا يسلط عليه »[1] .

ورواه مسلم عن أبي سعيد الخدري أيضا بلفظ « يخرج الدجال ، فيتوجه قبله رجل من المؤمنين ، فتلقاه المسالح[2] : مسالح الدجال ، فيقولون له : أين تعمد ؟ فيقول : أعمد إلى هذا الذي خرج . قال : فيقول له : أوما تؤمن بربنا ؟ فيقول : ما بربنا خفاء ، فيقولون : اقتلوه ، فيقول بعضهم لبعض : أليس قدنهاكم أن تقتلوا أحدا دونه ؟ قال : فينطلقون به إلى الدجال ، فإذا رآه المؤمن ، قال : يا أيها الناس ، هذا المسيح الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ . قال : فيأمر به الدجال فيشبح[3] ، فيقول : خذوه وشجوه ، فيوسع ظهره وبطنه ضربا ، قال : فيقول : أوما تؤمن بي ؟ قال : فيقول : أنت المسيح الكذاب ، قال : فيؤمر به فيؤشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه . قال : ثم يمشي الدجال بين القطعتين ، ثم يقول له : قم ، فيستوي قائما ، قال : ثم يقول له : أتؤمن بي ؟ فيقول : ما ازددت فيك إلا بصيرة . قال : ثم يقول : يا أيها الناس ، إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس . قال : فيأخذه الدجال ليذبحه ، فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً ، فلا يستطيع إليه سبيلا . قال: فيأخذ بيديه ورجليه ، فيقذف به ، فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار ، وإنما ألقى في الجنة . قال : فقال رسول الله ﷺ : « هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين »[4] .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الفتن ، باب : لا يدخل الدجال المدينة ، فتح الباري : (١٠١/١٣).ورواه مسلم في كتاب الفتن ، باب صفة الدجال ، (٢٢٥٦/٤) ورقم الحديث : (٢٩٣٨) ولفظ الحديث للبخاري .

(٢) هم المراقبون والخفراء الذين يحملون السلاح في مراكز المراقبة .

(٣) يمد على بطنه .

(٤) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب في صفة الدجال ، (٢٢٥٦/٤) ، ورقم الحديث : (٢٩٣٨) .

المطلب الثامن
مكان خروجه

يخرج الدجال من المشرق ، من بلاد فارسية يقال لها : خراسان ، ففي الحديث الذي يرويه الترمذي وابن ماجة والحاكم وأحمد والضياء في المختارة ، عن أبي بكر الصديق قال : حدثنا رسول الله ﷺ : « إن الدجال يخرج من أرض بالشرق ، يقال لها : خراسان ، يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرَّقة »[1] .

ولكن ظهور أمره للمسلمين يكون عندما يصل إلى مكان بين العراق والشام ، ففي حديث في صحيح مسلم عن النواس بن سمعان يرفعه : « إنه خارج خلة بين الشام والعراق ، فعاث يمينا وعاث شمالا ، يا عباد الله فاثبتوا »[2] والخلة مابين البلدين ، كما يقول النووي .

المطلب التاسع
مدة مكثه في الأرض

سأل الصحابة الرسول ﷺ عن المدة التي يمكثها الدجال في الأرض ، فقالوا : « وما لبثه في الأرض » قال : أربعون يوما ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم . قلنا : يا رسول الله : فذاك اليوم الذي كسنة ، أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا ، اقدروا له قدره » أخرجه مسلم في

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٢٢/٤) ورقم الحديث (١٥٩١) ، وقال الشيخ ناصر : وقال الحاكم صحيح الأسناد ، ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٢٢٥٢/٤) حديث رقم (٢٩٣٧) .

صحيحه وأبو داود في سننه ، عن النواس بن سمعان(١) .

وأجابة الرسول ﷺ عن سؤال الصحابة : هل تكفيهم خمس صلوات في الأيام التي هي كسنة أو كشهر أو أسبوع تدل على أن اليوم يطول حقيقة حتى يصبح سنة ، أو شهرا أو أسبوعا ، وليس مجازا .

المطلب العاشر
أتباع الدجال

المسيح الدجال الأعور الكذاب هو الملك الذي ينتظر اليهود خروجه ، ليحكموا العالم في عهده ، ففي مسند أحمد عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه ، أن الرسول ﷺ قال : « أكثر اتباع الدجال اليهود والنساء »(٢) . وفي حديث أنس بن مالك الذي رواه مسلم في صحيحه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفا ، عليهم الطيالسة »(٣) .

ويذكر أبو نعيم أن إحدى القرى التابعة لمدينة أصبهان كانت تدعى : (اليهودية) ، لأنها كانت تختص بسكنى اليهود ، ولم تزل كذلك إلى زمن أيوب بن زياد أمير مصر في زمن المهدي بن المنصور العباسي ، فسكنها المسلمون ، وبقيت لليهود منها قطعة(٤) .

---

(١) جامع الأصول : ٣٤٥/١٠ ، رقم الحديث : (٧٨٣٩) ، وهو في مسلم في كتاب الفتن : (٢٢٥٢/٤) ورقم الحديث (٢١٣٧) .

(٢) مسند أحمد : (٢١٦/٤ - ٢١٧) .

(٣) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب في بقية من أحاديث الدجال ، (٢٢٦٦/٤) ورقم الحديث (٢٩٤٤) ، والطيالسة جمع طيلسان ، والطيلسان أعجمي معرب ، وهو ثوب يلبس على الكتف ، يحيط بالبدن ، ينسج للبس ، خال من التفصيل والخياطة .

(٤) لوامع الأنوار البهية : (١٠٧/٢) .

واسم الدجال عند اليهود المسيح بن داود ، وهم يزعمون أنه يخرج آخر الزمان ، فيبلغ سلطانه البر والبحر ، وتسير معه الأنهار ، وهم يزعمون أنَّه آية من آيات الله ، يرد إليهم الملك[1] ، وقد كذبوا في زعمهم ، بل هو مسيح الضلالة الكذاب ، وأمّا مسيح الهدى عيسى بن مريم فإنه يقتل الدجال مسيح الضلالة كما يقتل أتباعه من اليهود .

المطلب الحادي عشر
حماية المدينة ومكة من الدجال

يقصد الدجال المدينة المنورة فلا يستطيع دخولها ، ذلك أن الله حمى مكة والمدينة من الدجال والطاعون ، ووكل حفظها إلى ملائكته ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة يرفعه : « على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال »[2] ، وروى البخاري أيضا عن أنس يرفعه : « لا يدخل المدينة رعب المسيح ، لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان »[3] .

وفي سنن الترمذي ، ومسند أحمد عن أبي هريرة « يأتي المسيح من قبل المشرق ، وهمته المدينة ، حتى إذا جاء دُبُر أحد تلقته الملائكة ، فضربت وجهه قبل الشام ، هنالك يهلك ، هنالك يهلك » وقال الترمذي : حديث صحيح[4] .

---

(١) لوامع الأنوار البهية : (٢/١١٢) .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب لايدخل الدجال المدينة . فتح الباري : (١٣/١٠١) .

(٣) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : فتح الباري : (١٣/٩٠) .

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٣٧٢) ، ورقمه (١٧٧١) ، وقال المحقق : وإسناده على شرط مسلم ، وقد أخرجه مسلم مفرقا في موضعين .

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال ، إلا مكة والمدينة ، وليس نقب من أنقابها إلا عليه الملائكة حافين ، تحرسها ، فينزل بالسبخة[1] ، فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات ، يخرج إليه منها كل كافر ومنافق »[2] .

وفي سنن ابن ماجة ، وصحيح ابن خزيمة ، ومستدرك الحاكم عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ : « وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه وظهر عليه ، إلا مكة والمدينة ، لا يأتيهما من نقب من أنقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف ، صلته ، حتى ينزل عند الضريب الأحمر ، عند منقطع السبخة ، فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات ، فلا يبقى فيها منافق ولا منافقة إلا خرج إليه ، فتنفي الخبيث منها ، كما ينفي الكير خبث الحديد ، ويدعى ذلك اليوم الخلاص ، قيل فأين العرب يومئذ ؟ قال : هم يومئذ قليل . . . »[3] .

المطلب الثاني عشر
طريق النجاة منه

سبق أن بينا أن المسلمين قبيل خروج الدجال تكون لهم قوة كبيرة ، ويخوضون حروبا هائلة ، يخرجون منها منتصرين ، فيأتي الدجال للقضاء على القوة الإسلامية التي تكون قد هزمت أقوى دولة في ذلك الوقت وهم الروم ، ويكون المسلمون قد استعادوا القسطنطينية ، وفتحوها ، ويصرخ الشيطان بهم أن الدجال

---

(١) السبخة:الأرض الرملية التي لا تنبت لملوحتها ، وبعض أراضي المدينة كذلك .

(٢) صحيح الجامع : (٥/٩٩) ، ورقمه (٥٣٠٦) .

(٣) صحيح الجامع الصغير : (٦/٢٧٥) ورقمه : (٧٧٥٢) .

قد خلفهم في ذراريهم ، فيتركون الغنائم ، ويعودون إلى ديارهم ، ثم يخرج الدجال ، فلا يضع المسلمون سلاحهم ، ولذلك فإن عيسى عندما ينزل يجد المسلمين « يعدون العدة للقتال ، ويسوون الصفوف »(١) . ولاشك أنَّ على كل مسلم في ذلك الحين أن ينضم إلى القوة الإسلامية الحاملة لراية الجهاد في سبيل الله ، وأن يثبت على الحق مهما اشتد البلاء ، وهذا ما أوصانا به رسولنا ﷺ ، وهو يحدثنا عن خروج الدجال ، حيث يقول : « إنه خارج خَلَّة بين الشام والعراق ، فعاث يمينا وعاث شمالا ، يا عباد الله اثبتوا »(٢) .

ولا يجوز للمسلم أن يأتيه وإن كان واثقا من نفسه ، فإن معه من الشبهات ما يزلزل الإيمان ، ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : « من سمع بالدجال فلينأ عنه ، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن ، فيتبعه ، مما يبعث به من الشبهات ، أو لما يبعث به من الشبهات »(٣) .

ولابأس على الذين لا يطيقون مقاومته أن يفروا من طريقه ، وهذا ما يفعله كثير من الناس في ذلك الزمان ، ففي صحيح مسلم عن أم شريك ، قالت : سمعت النبي ﷺ يقول : « ليفرَّن الناس من الدجال في الجبال »(٤) . فإن اضطر المؤمن إلى مواجهته ، فعليه أن يقوم بالأمر ، ويصدع بالحق ، ويحسن الحجاج ، ففي الحديث : « إن يخرج وأنا فيكم ، فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم ، فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم » وقد ترك رسول الله ﷺ

---

(١) رواه مسلم ، (٤/٢٢٢١) ورقم الحديث : (٢٨٩٧) .

(٢) رواه مسلم ، (٢/٢٢٥٢) رقم الحديث : (٢٩٣٧) .

(٣) جامع الأصول : (١٠/٣٥٤) ورقم الحديث : (٧٨٤٦) .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب في بقية أحاديث الدجال ، (٤/٢٢٦٦) ، ورقم الحديث : (٢٩٤٤) .

من العلم ما يشكف عن بصيرتنا فيه ، فهو جسم مرئي ، يأكل ويشرب ، والله لا يرى في الدنيا ، والله منزه عن الطعام والشراب ، وهو معيب العين ، كما في الحديث « إنه شاب قطط ، عينه طافئة ، كأني مشبهه بعبد العزي بن قطن »[1] ، ومن كان كذلك فإن دعواه الألوهية والربوبية كذب وافتراء ولاشك ، وقد أمر الرسول ﷺ من أدركه أن يقرأ عليه فواتح سورة الكهف « فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف »[2] ، وفي حديث أبي أمامة : « وإن من فتنته أن معه جنّة ونارا ، فناره جنّة ، وجنته نار ، فمن ابتلى بناره فليستغث بالله ، وليقرأ فواتح الكهف . . . »[3] وقد جاء في الأحاديث الصحيحة « من حفظ عشر آيات من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال »[4] وجاء في بعضها من أول سورة الكهف ، وفي بعضها من آخر سورة الكهف .

وقد يقال : لم كانت قراءة فواتح سورة الكهف ، وخواتمها أمانا من الدجال ؟

قال بعضهم : لأن الله أخبر في طليعة هذه السورة أن الله أمّن أولئك الفتية من الجبار الطاغية الذي يريد إهلاكهم ، فناسب أن من قرأ هذه الآيات وحاله كحالهم أن ينجيه كما أنجاهم .

وقيل : لأن في أولها من العجائب والآيات التي تثبت قلب من قرأها بحيث لا يفتن بالدجال ، ولا يستغرب ما جاء به الدجال ، ولم يلهه ذلك ، ولم يؤثر فيه .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٢٢٥٢/٤) ورقم الحديث (٣٩٣٧) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) رواه ابن ماجة والترمذي والحاكم بإسناد صحيح ، صحيح الجامع : (٦٧٤/٦) ، ورقمه (٧٧٥٢) .

(٤) النهاية لابن كثير : (١٥٤/١) وبعض هذه في السنن ، وبعضها في الصحاح .

ومما يعصم المسلم من الدجال أن يلجأ إلى أحد الحرمين الشريفين مكة أو المدينة ، فإن الدجال محرم عليه دخولهما .

وقد ذكر لنا الرسول ﷺ كيف واجه ذلك الرجل الصالح الدجال ، وصدع في وجهه بالحق ، وكيف أنه لم يلن له بالقول ، كما سبق ذكر الأحاديث التي تكشف حقيقة ما معه مما يشبه الجنة والنار .

ومما ينجي العبد من الدجال الالتجاء إلى الله والاحتماء به منه ومن فتنته ، وقد جاءت النصوص النبوية آمرة المسلم بالاستعاذة بالله من فتنته ، ففي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها ، قالت: « سمعت رسول الله ﷺ يستعيذ في صلاته من فتنة الدجال »(١) .

وكان الرسول ﷺ يتعوذ دائما بعد التشهد من فتنة الدجال ، فيقول : « اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال »(٢) .

المطلب الثالث عشر
هلاكه والقضاء على فتنته
وإهلاك أتباعه من اليهود

سبق أن سقنا الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة بتمامه ، وفيه في آخره أن هلاك الدجال يكون على يد عيسى بن مريم عليه السلام « فبينما

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، فتح الباري : (١٣/ ٩٠) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب التعوذ بالله من عذاب القبر ، ورواه مسلم في صحيحه ، في باب ما يستعاذ منه في الصلاة .

هم (أي الجيوش الإسلامية) يعدُّون للقتال ، يسوّون الصفوف ، إذ أقيمت الصلاة ، فينزل عيسى بن مريم ﷺ فأمهم ، فإذا رآه عدوّ الله ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فلو تركه لانذاب حتى يهلك ، ولكن يقتله الله بيده ، فيريهم دمه »[1] .

وفي سنن ابن ماجة ، وصحيح ابن خزيمة ، ومستدرك الحاكم عن أبي أمامة بإسناد صحيح عن النبي ﷺ قال : « وإمامهم (أي إمام المسلمين الذين يعدون العدة لقتال الدجال) رجل صالح ، فبينا إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح ، إذ نزل عليهم عيسى بن مريم الصبح ، فرجع ذلك الإمام ينكص ، يمشي القهقرى ليتقدم عيسى ، فيضع عيسى يده بين كتفيه ، ثم يقول له : تقدم فصَلِّ ، فإنها لك أقيمت ، فيصلي بهم إمامهم ، فإذا انصرف[2] ، قال عيسى : افتحوا الباب ، فيفتحون ووراءه الدجال ، معه سبعون ألف يهودي ، كلهم ذو سيف محلى وساج ، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فينطلق هاربا ، . . فيدركه عند باب لد[3] الشرقي ، فيقتله ، فيهزم الله اليهود ، فلا يبقى شيء مما خلق الله عز وجل يتواقى به اليهودي ، إلا أنطق الله ذلك الشيء ، لا حجر ، ولا شجر ، ولا حائط ، ولا دابة - إلا الغرقدة ، فإنها من شجرهم لا تنطق - إلا قال : يا عبدالله المسلم ، هذا يهودي ، فتعال فاقتله »[4] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبيء اليهودي من وراء الحجر

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب فتح القسطنطينية ، (٤/٢٢٢١) ورقم الحديث (٢٨٩٧) .

(٢) قال الشيخ ناصر في تعليقه على (صحيح الجامع : (٦/٢٧٥) : « فيه اختصار ، تقديره : فإذا انصرف إلى بيت المقدس ، والمسلمون فيه محصورون قال . . . كما يدل عليه بعض الأحاديث الأخرى . . . » .

(٣) (اللد) مدينة معروفة بفلسطين ، قرب مدينة الرملة .

(٤) صحيح الجامع الصغير : (٦/٢٧٦) ورقمه : (٧٧٥٢) .

والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ، يا عبدالله ، هذا يهودي خلفي ، فتعال فاقتله ، إلاّ الغرقد(١) ، فإنّه من شجر اليهود »(٢) .

المطلب الرابع عشر
عقيدة أهل السنة في الدجال

قال النووي في شرحه لمسلم : « قال القاضي : هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده ، وأنه شخص ابتلى الله به عباده ، وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى من إحياء الميت الذي يقتله ، ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه ، وجنته وناره ، ونهريه ، وإتباع كنوز الأرض له ، وأمره السماء أن تمطر ، فتمطر ، والأرض أن تنبت فتنبت ، فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته ، ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك ، فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ، ولا غيره ، ويبطل أمره ، ويقتله عيسى ﷺ ، ويثبت الله الذين آمنوا . هذا مذهب أهل السنة ، وجميع المحدثين والفقهاء والنظار خلافا لمن أنكره وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة ، وخلافا للبخاري المعتزلي وموافقيه من الجهمية وغيرهم في أنه صحيح الوجود ، ولكن الذي يدعى مخارف وخيالات ، لا حقائق لها ، وزعموا أنه لو كان حقا لم يوثق

---

(١) قال النووي في شرحه على مسلم (١٨/٤٥) : الغرقد : نوع من شجر الشوك معروف ببلاد بيت المقدس ، وهناك يكون قتل اليهود ، وقال أبو حنيفة الدينوري : إذا عظمت العوسجة صارت غرقدة .

(٢) حديث قتال المسلمين اليهود رواه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب قتال اليهود فتح الباري : (٦/١٠٣) ومسلم في صحيحه ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث رقم (٢٩٢٢) ٤/٢٢٣٩ ، وقد روياه عن أبي هريرة وابن عمر من أكثر من طريق ، واللفظ الذي أثبتناه لفظ مسلم .

بمعجزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهذا غلط من جميعهم لأنه لم يدع النبوة ، فيكون ما معه كالتصديق له ، وإنما يدعي الإلهية ، وهو في نفس دعواه مكذب لها بصورة حاله ، ووجود دلائل الحدوث فيه ، ونقص صورته ، وعجزه عن إزالة العور الذي في عينيه ، وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه ، ولهذه الدلائل وغيرها لا يغتر به إلا رعاع من الناس لسد الحاجة والفاقة رغبة في سد الرمق أو تقية وخوفا من أذاه لأن فتنته عظيمة تدهش العقول ، وتحير الألباب مع سرعة مروره في الأرض ،فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء حاله ، ودلائل الحدوث فيه والنقص ، فيصدقه من صدقه في هذه الحالة[١] » .

المطلب الخامس عشر
ابن صياد والدجال

ابن صياد رجل من يهود المدينة ، اسمه صاف ، كان شبيها بالدجال في كثير من صفاته ، وكان الرسول ﷺ مشككا في أمره ، وقد حاول الرسول ﷺ أكثر من مرة كشف أمره ومعرفة حقيقته ، وهذا يدلنا على أنه لم يوح في أمره شيء ، فقد روى مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب انطلق مع رسول الله ﷺ في رهط قِبَلَ ابن صياد حتى وجده يلعب مع الصبيان عند أطم[٢] بني مغالة ، وقد قارب ابن صياد يومئذ الحلم ، فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ﷺ ظهره بيده . ثم قال رسول الله ﷺ لابن صياد : « أتشهد أني رسول الله ؟» فنظر إليه ابن صيـاد ، فقال : أشهد أنك رسول الأميين . فقال ابن

---

(١) شرح النووي على مسلم : (١٨/٥٨) .
(٢) الأطم : الحصن .

صياد لرسول الله ﷺ : « أتشهد أني رسول الله ؟ فرفضه رسول الله ﷺ ، وقال : « آمنت بالله وبرسله »[١] .

ثم قال له رسول الله ﷺ : « مَاذا ترى ؟ » قال ابن صياد : يأتيني صادق وكاذب ، فقال له رسول الله ﷺ : « خلط عليك الأمر » .

ثم قال له رسول الله ﷺ : « إني قد خبأت لك خبيئا » ، فقال ابن صياد : هو الدخ ، فقال له رسول الله ﷺ : « اخسأ فلن تعدو قدرك » ، فقال عمر بن الخطاب : ذرني يا رسول الله ، أضرب عنقه ، فقال له رسول الله ﷺ : « إن يكنه فلن تسلط عليه ، وإن لا يكنه فلا خير لك في قتله »[٢] . وقد خرج إليه الرسول ﷺ مرة أخرى ، كما روى مسلم في صحيحه عقب الحديث السابق عن سالم بن عبدالله قال : سمعت عبدالله بن عمر يقول : انطلق بعد ذلك رسول الله ﷺ ، وأبي بن كعب الأنصاري إلى النخل التي فيها ابن صائد ، حتى إذا دخل رسول الله ﷺ النخل ، طفق يتقي بجذوع النخل ، وهو يختل أن يسمع من ابن صياد شيئا[٣] ، قبل أن يراه ابن صياد ، فرآه رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراش في قطيفة ، له فيها زمزمة[٤] ، فرأت أم صائد رسول الله ﷺ ، وهو يتقي بجذوع النخل ، فقالت لابن صائد : يا صاف (وهو اسم ابن صياد) هذا محمد ، فثار ابن صياد ، فقال رسول الله ﷺ : « لو تركته لبيَّن »[٥]

---

(١) قد يقال : كيف يدعي النبوة ، ويتركه الرسول ﷺ : فيجاب : لأنه قد كان بين الرسول ﷺ وبين اليهود عهد في تلك الأيام .

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/٢٢٤٤) ورقمه (٢٩٣٠) .

(٣) أي يستغفله ليسمع منه شيئا يعرف به حقيقته .

(٤) القطيفة : كساء مخمل ، والزمزمة : صوت خفي لايكاد يفهم .

أي نهض من مضجعه .

(٥) رواه مسلم في صحيحه : (٤/٢٢٤٤) ورقمه (٢٩٣١) .

قال النووي في شرحه على مسلم في ابن صياد : « قال العلماء : وقصته مشكلة ، وأمره مشتبه في أنه هل هو المسيح الدجال المشهور أم غيره ، ولاشك في أنه دجال من الدجاجلة ، قال العلماء : وظاهر الأحاديث أن النبي ﷺ لم يوح إليه بأنه المسيح الدجال ، ولا غيره ، وإنما أوحي إليه بصفات الدجال ، وكان في ابن صياد قرائن محتملة ، فلذلك كان النبي ﷺ لا يقطع بأنه الدجال ولا غيره ، ولهذا قال لعمر : « إن يكن هو فلن تستطيع قتله »[1] ، وقدكان عمر بن الخطاب يجزم بأن ابن صائد هو الدجال ، وكذلك عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، فقد روى أبو داود بإسنادصحيح عن ابن عمر أنه كان يقول : والله ما أشك أن ابن صائد هو المسيح الدجال[2] .

وقد نقل النووي عن البيهقي قوله : « ليس في حديث جابر أكثر من سكوت النبي ﷺ لقول عمر ، فيحتمل أنه ﷺ كان كالمتوقف في أمره ، ثم جاءه البيان أنه غيره كما صرح به في حديث تميم »[3] .

وقد مكث ابن صائد بعد الرسول مدة من الزمان ، وادعى أنه أسلم ، ولكن الناس لم يثقوا بإسلامه ، وبقوا يتشككون في أمره ، هذا ابن عمر - كما يروي مسلم في صحيحه - يلقى ابن صائد مرتين ، فيقول لبعض من معه : هل تحدثون أنه هو؟ قال : لا ، والله . قال : قلت : كذبتني ، والله ، لقد أخبرني بعضكم أنه لن يموت حتى يكون أكثركم مالا وولدا ، فكذلك هو زعموا اليوم ، قال ابن عمر : فتحدثنا ، ثم فارقته ، ثم لقيه ابن عمر لقية أخرى ، وقد نفرت عينه[4] ،

---

(١) شرح النووي على مسلم : (١٨/٤٦) .
(٢) المصدر السابق .
(٣) شرح النووي على مسلم : (١٨/٤٨) .
(٤) نفرت ، ورمت ، ونتأت .

قال : فقلت : متى فعلت عينك ما أرى ؟ قال : لا أدري . قال : قلت : لا تدري وهي في رأسك ؟ قال : إن شاء الله خلقها في عصاك هذه ، قال فنخر كأشد نخير حمار[1] سمعت ، قال : فزعم أصحابي أني ضربته بعصا كانت معي حتى تكسرت ، وأما أنا ، فوالله ما شعرت . وفي رواية أخرى في مسلم أن ابن عمر قال له قولا أغضبه ، فانتفخ حتى ملأ السِّكة[2] ، فدخل ابن عمر على حفصة وقد بلغها ، فقالت له : رحمك الله ، ما أردت من ابن صائد ؟ أما علمت أن رسول الله ﷺ قال : « إنما يخرج من غضبة يغضبها »[3] .

ويروي مسلم أيضا عن أبي سعيد الخدري قال : خرجنا حجّاجا أو عمارا ومعنا ابن صائد ، قال فنزلنا منزلا ، فتفرق الناس ، وبقيت أنا وهو ، فاستوحشت منه وحشة شديدة مما يقال عليه ، قال : وجاء بمتاعه فوضعه مع متاعي ، فقلت : إن الحرّ شديد ، فلو وضعته تحت تلك الشجرة ، قال : ففعل ، قال : فرفعت لنا غنم ، فانطلق فجاء بعسّ[4] ، فقال : اشرب أبا سعيد . فقلت : إن الحر شديد ، واللبن حار . مابي إلاّ أني أكره أن أشرب عن يده ـ أو قال آخذ عن يده ـ فقال[5] : أبا سعيد ، لقد هممت أن آخذ حبلا فأعلقه بشجرة ، ثم أختنق مما يقول لي الناس ، يا أبا سعيد ، من خفي عليه حديث رسول الله ﷺ ما خفي عليكم معشر الأنصار ، ألست من أعلم الناس بحديث رسول الله ﷺ ؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ : « هو كافر » وأنا مسلم ؟ أوليس قد قال رسول الله ﷺ : « هو

---

(١) النخير : صوت الأنف .

(٢) أي : الطريق .

(٣) صحيح مسلم : (٤/٢٢٤٧) ورقمه : (٢٩٣٢) .

(٤) القدح الكبير .

(٥) اي ابن صياد .

عقيم لا يولد له » وقد تركت ولدى بالمدينة ؟ أو ليس قد قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل المدينة ولا مكة » ، وقد أقبلت من المدينة ، وأنا أريد مكة ؟ »[1] .

ولكن هذه الأدلة التي ساقها ابن صياد اهتزت وفقدت تأثيرها في نفس أبي سعيد بعد أن تابع ابن صياد كلامه قائلا : « أما والله إني لأعلم الآن حيث هو ، وأعرف أباه وأمه» .قال : « وقيل له : أيسرك أنك ذاك الرجل ؟ فقال : لو عرض علي لما كرهت »[2] .

المطلب السادس عشر
الدجال في خبر تميم الداري

روى مسلم في صحيحه عن فاطمة بنت قيس ، أخت الضحاك بن قيس أنها سمعت منادي رسول الله ﷺ ينادي : الصلاة جامعة ، فخرجت إلى المسجد ، قالت : فصليت مع رسول الله ، فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم ، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته ، جلس على المنبر وهو يضحك ، فقال : « ليلزم كل إنسان مصلاه » ، ثم قال : « أتدرون لم جمعتكم ؟» قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « إني ، والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة ، ولكن جمعتكم ، لأن تميما الـداري ، كان رجلا نصرانيا ، فجاء ، فبايع وأسلم . وحدثني حديثا وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال » .

« حدثني ؛ أنه ركب في سفينة بحرية ، مع ثلاثين رجلا من لخم وجذام ،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه : (٤/٢٢٤٢) ، ورقمه : (٢٤٢٧) .

(٢) المصدر السابق .

فلعب بهم الموج شهرا في البحر ، ثم أرفؤوا[1] إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس ، فجلسوا في أقرب السفينة[2] ، فدخلوا الجزيرة ، فلقيتهم دابة أهلب[3] كثير الشعر ، لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر . فقالوا : ويلك ، ما أنت ؟ فقالت : أنا الجساسة ، قالوا : وما الجساسة . قالت : أيها القوم ، انظروا إلى هذا الرجل في الدير ، فإنه إلى خبركم بالأشواق ، قال : لما سمت لنا رجلا فرقنا منها أن تكون شيطانة ، قال : فانطلقنا سراعا ، حتى دخلنا الدير ، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقا ، وأشده وثاقا ، مجموعة يداه إلى عنقه ، مابين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد ، قلنا : ويلك ما أنت ؟ قال : قد قدرتم على خبري ، فأخبروني ما أنتم ؟ قالوا : نحن أناس من العرب ، ركبنا في سفينة بحرية ، فصادفنا البحر حين اغتلم[4] ، فلعب بنا الموج شهرا ، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه ، فجلسنا في أقربها ، فدخلنا الجزيرة ، فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر ، لا يدري ما قبله من دبره من كثرة الشعر. فقلنا : ويلك ما أنت ؟ فقالت : أنا الجساسة ، قلنا : وما الجساسة ؟ قالت : اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير ، فإنه إلى خبركم بالأشواق ، فأقبلنا إليك سراعا ، وفزعنا منها ، ولم نأمن أن تكون شيطانة .

قال : فأخبروني عن نخل بيسان[5] ، قلنا عن أي شأنها تستخبر ؟ قال : أسألكم عن نخلها ، هل يثمر ؟ قلنا : نعم . قال : أما إنه يوشك أن لا يثمر. قال: أخبروني عن بحيرة طبرية[6] . قلنا : عن أي شأنها تستخبر ؟ قال : هل فيها ماء ؟ قالوا : هي كثيرة الماء . قال : أما إن ماءها يوشك أن يذهب .

---

(١) التجؤوا إليه .

(٢) أَقْرُب : جمع قارب .

(٣) أهلب : كثير الشعر غليظه .

(٤) اغتلم : هاج وجاوز حده المعتاد .

(٥) بيسان : إحدى مدن فلسطين .

(٦) بحيرة عذبة الماء في فلسطين .

قال : أخبروني عن عين زغر[1] . قالوا : عن أي شأنها تستخبر ؟ قال : هل في العين ماء ؟ وهل يزرع أهلها بماء العين ؟ قلنا له : نعم ، هي كثيرة الماء ، وأهلها يزرعون من مائها . قال أخبروني عن نبي الأميين ما فعل ؟ قالوا : قد خرج من مكة ونزل يثرب . قال : أقاتله العرب ؟ قلنا : نعم ، قال : كيف صنع بهم ؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه ، قال لهم : قد كان ذلك ؟ قلنا : نعم . قال: أما إن ذلك خير لهم أن يطيعوه ، وإني مخبركم عني . إني أنا المسيح ، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج ، فأخرج فأسير في الأرض ، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة ، إلا مكة وطيبة[2] ، فهما محرمتان على كلتاهما ، كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحدا منهما ، استقبلني ملك بيده السيف صلتا[3] ، يصدني عنها ، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها .

قالت : قال رسول الله ﷺ ، وطعن بمخصرته في المنبر : « هذه طيبة ، هذه طيبة ، هذه طيبة » يعني المدينة ، « ألا هل كنت حدثتكم ذلك ؟» فقال الناس نعم ، « فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت حدثتكم عنه وعن المدينة ومكة ، ألا أنه في بحر الشام أو بحر اليمن ، لا بل من قبل المشرق ، ما هو[4] من قبل المشرق ، ما هو من قبل المشرق ما هو » . ، وأومأ بيده إلى المشرق ، قالت : فحفظت هذا من رسول الله ﷺ[5] .

---

(١) بلدة في الجانب القبلي من الشام .

(٢) المدينة .

(٣) أي : مسلولا .

(٤) قال النووي : قال القاضي : لفظة : (ماهو) زائدة ، صلة للكلام ، ليست بنافية ، والمراد إثبات أنه في جهة المشرق .

(٥) رواه مسلم في صحيحه : (٤/٢٢٦١) ورقم الحديث : ٢٩٤٢ .

وهذا الحديث يدل دلالة واضحة على أن ابن صياد لم يكن الدجال الأكبر ، وأن الدجال الأكبر محبوس في بعض جزائر البحور ، ولعله ـ كما يقول بعض أهل العلم ـ شيطان من الشياطين الذين حبسهم نبي الله سليمان ، إذ يبعد وجود بشر على قيد الحياة هذه الفترة الطويلة ، والله أعلم بالصواب .

المبحث الثالث

نزول عيسى بن مريم

أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن اليهود لم يقتلوا رسوله عيسى بن مريم ، وإن ادعوا هذه الدعوى ، وصدقها النصارى ، والحقيقة أن عيسى لم يقتل ، ولكن الله ألقى شبهه على غيره ، أمّا هو فقد رفعه الله إلى السماء ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾[1] .

وأشار الحق في كتابه إلى أن عيسى سينزل في آخر الزمان ، وأن نزوله سيكون علامة دالة على قرب وقوع الساعة ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾[2] ، كما أخبر أن أهل الكتاب في ذلك الزمان سيؤمنون به ، ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾[3] .

وقد جاء تفصيل هذه النصوص في السنة النبوية ، فقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه عندما تشتد فتنة الدجال ، ويضيق الأمر بالمؤمنين في ذلك الزمان ، ينزل الله عبده ورسوله عيسى عليه السلام ، وينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، فقد روى الطبراني في معجمه الكبير عن أوس بن أوس ، قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) سورة النساء : ١٥٧ ـ ١٥٨ .

(٢) سورة الزخرف : ٦١ .

(٣) سورة النساء : ١٥٩ .

« ينزل عيسى بن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق »[1] . وقد وصف لنا الرسول ﷺ حاله عند نزوله ،ففيسنن أبي داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس بيني وبين عيسى نبي ، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، رجل مربوع ، إلى الحمرة والبياض ، ينزل بين ممصرتين ، كأن رأسه يقطر ، وإن لم يصبه بلل »[2] .

المطلب الأول
وقت نزوله

ويكون نزوله في وقت اصطف فيه المقاتلون المسلمون لصلاة الفجر ، وتقدم إمامهم للصلاة ، فيرجع ذلك الإمام طالبا من عيسى أن يتقدم فيؤمهم ، فيأبى ، ففي الحديث « وإمامهم (أي إمام الجيش الإسلامي) رجل صالح ، فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح ، إذ نزل عليهم عيسى بن مريم الصبح ، فرجع ذلك الإمام ينكص ، يمشي القهقري ليتقدم عيسى ، فيضع عيسى يده بين كتفيه ، ثم يقول له : تقدم فصلِّ ، فإنها لك أقيمت ، فيصل بهم إمامهم »[3] .

ويكون هذا في حال إعداد المسلمين لحرب الدجال ، ففي حديث أبي هريرة عند مسلم : « فبينما هم يعدون للقتال ، يسوّون الصفوف ، إذ أقيمت الصلاة ،

(١) صحيح الجامع الصغير : (٦/٣٦١) ورقمه : (٨٠٢٥) ، وإسناده صحيح كما قال الشيخ ناصر الدين الألباني .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (٥/٩٠) ورقم الحديث : (٥٢٦٥) .

(٣) رواه ابن ماجة ، وابن خزيمة ، والحاكم ، وإسناده صحيح ، انظر صحيح الجامع الصغير : (٦ / ٢٧٧) .

فينزل عيسى بن مريم ، فأمهم » ، ولفظه في كتاب الإيمان : « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وأمكم »[1] . وليس المراد هنا في هذا الحديث أن عيسى أمهم في الصلاة ، فالحديث الأول يدل على رفض عيسى للتقدم ، وأنه قدم الإمام الذي أقيمت له الصلاة ، ومثله حديث أبي هريرة عند البخاري ومسلم قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنتم إذا نزل بن مريم فيكم وإمامكم منكم »[2] وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، قال : فينزل عيسى بن مريم ، فيقول أميرهم ، تعال صلّ لنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله هذه الأمة »[3] .

المطلب الثاني
بم يحكم عيسى بعد نزوله ؟

النصوص السابقة صريحة في أن الإمام هو واحد من هذه الأمة ، أمّا رواية « فأمّكم » أو « أمهم » أي عيسى فليس المراد بها أنه أمهم في الصلاة ، بل المراد أنه حكَّم فيهم كتاب الله تبارك وتعالى ، أي أمهم بكتاب الله عز وجل ، ففي حديث

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الفتن ، باب فتح القسطنطينية : (٤/٢٢٢١) ، حديث رقم : (٢٨٩٧) ، ورواه في كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى بن مريم : (١/١٣٦) ورقمه (١٥٥) .

(٢) رواه البخاري ، كتاب احاديث الأنبياء ، باب نزول عيسى بن مريم ، فتح الباري : (٦/٤٩١) ، ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان : (١٥/١٣٦) ، ورقم الحديث : (١٥٥) .

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى ، (٤/١٣٧) ورقمه : (١٥٦) .

أبي هريرة عند مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم فأمّكم منكم » وقد قال أحد رواة الحديث وهو ابن أبي ذئب للوليد بن مسلم (١) : « تدري ما أمّكم منكم » ؟ قال : تخبرني ، قال : فأمّكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنّة نبيكم ﷺ (٢) .

والسبب في عدم تقدم عيسى بن مريم للإمامة هو الدلالة على أنه جاء تابعا لهذا النبي ﷺ ، حاكما بالقرآن لا بالإنجيل ، فإن شريعة القرآن ناسخة للشرائع قبلها ، وقد أخذ الله العهد والميثاق على جميع الأنبياء أن يؤمنو بمحمد ﷺ ويتابعوه إذا بعث وهم أحياء : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٣) ، فعيسى ينزل تابعا لرسولنا ﷺ محكما لشريعة القران ، ولذلك فإنه يصلى خلف ذلك الرجل الصالح ، وهذا فخر لهذه الأمة وأي فخر ، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه أبو سعيد عن النبي ﷺ ، قال : « منا الذي يصلي عيسى بن مريم خلفه » رواه أبو نعيم في كتاب المهدي (٤) .

يقول النووي في رده على المكذبين بنزول عيسى الزاعمين أن نزوله لو كان حقا فإنه يكون مناقضا لقوله عليه السلام « لا نبي بعدي » ، وأنه يكون بذلك ناسخا لشرع الرسول ﷺ : « هذا استدلال فاسد ، لأنه ليس المراد بنزول عيسى عليه السلام أنه ينزل نبيا بشرع ينسخ شرعنا ، ولا في هذه الأحاديث ، ولا في

---

(١) هو رواي الحديث عن ابن أبي ذئب .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى : (١٣٧/٤) ، ورقمه : (١٥٦) .
(٣) سورة آل عمران : ٨١ - ٨٢ .
(٤) صحيح الجامع الصغير : (٢١٩/٥) ، حديث رقم : (٥٧٩٦) .

غيرها شيء من هذا ، . . . بل صح أنه ينزل حكما مقسطا . . . يحكِّم شرعنا ، ويحيي من أمور شرعنا ما هجره الناس »[1] .

المطلب الثالث
قضاء عيسى على الدجال

وأول عمل يقوم به عيسى هو مواجهة الدجال ، فبعد نزول عيسى يتوجه إلى بيت المقدس حيث يكون الدجال محاصرا عصابة المسلمين ، فيأمرهم عيسى بفتح الباب ، ففي سنن ابن ماجة ، وصحيح ابن خزيمة ، ومستدرك الحاكم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « فإذا انصرف ، قال عيسى : افتحوا الباب ، فيفتحون ووراءه الدجال ، معه سبعون ألف يهودي ، كلهم ذو سيف محلى وساج ، فإذا نظر إليه الدجّال ذاب كما يذوب الملح في الماء وينطلق هاربا . . . ، فيدركه عند باب لد الشرقي ، فيقتله ، فيهزم الله اليهود . . »[2]

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ أخبر عن نزول عيسى وصلاته بالمؤمنين ثم قال : « فإذا رآه عدو الله ، ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فلو تركه لانذاب حتى يهلك ، ولكن يقتله الله بيده ، فيريهم دمه في حربته »[3] .

والسر في ذوبان الدجّال أن الله أعطى لِنَفَسِ عيسى رائحة خاصة إذا وجدها الكافر مات منها ، ففي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان عن النبي ﷺ في حديث طويل ومما قاله فيه : « فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم ، فينزل

---

(١) شرح النووي على مسلم : (١٨/٧٦) .
(٢) صحيح الجامع الصغير : (٦/٢٧٥) ورقمه : (٧٧٥٢) .
(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب فتح القسطنطينية : (٤/٢٢٢١) ، ورقمه : (٢٨٩٧) .

عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، بين مهرودتين[1] ، واضعا كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدر منه جمان[2] كاللؤلؤ . فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لدّ ، فيقتله ، ثم يأتي عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه ، فيمسح عن وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة »[3] ، والسرّ في عدم ترك عيسى الدجال حتى يموت بنفسه ـ هو إنهاء أسطورة هذا المخلوق وفتنته ، فإن الناس إذا شاهدوا قتله وموته استيقنوا أنه عبد ضعيف مغلوب على أمره ، وأن دعواه كانت زوراً وكذباً .

المطلب الرابع
مهمة عيسى بعد القضاء على الدجال
وإهلاك يأجوج ومأجوج

يقضي عيسى على الدجال وفتنته ، ويخرج يأجوج ومأجوج في زمانه ـ كما سيأتي بيانه ـ فيفسدون في الأرض إفسادا عظيما ، فيدعو عيسى ربه ، فيستجيب له ، ويصبحون موتى ، لا يبقى منهم أحد ، وعند ذلك يتفرغ عيسى للمهمة الكبرى التي أنزل من أجلها ، وهي تحكيم شريعة الإسلام ، والقضاء على المباديء الضالة ، والأديان المحرفة ، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل

---

(١) أي ثوبان مصبوغان بورس ثم زعفران .

(٢) الجمان حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار ، والمراد يتحدر منه الماء على هيئة اللؤلؤ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٢٢٥٣/٤) ، ورقمه : (٢٩٣٧) .

فيكم ابن مريم حكما عدلا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الحرب ، ويفيض المال ، حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها »[1][2] .

وفي رواية عند مسلم عن أبي هريرة : « والله لينزلن ابن مريم حكما عدلا ، فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، ولتتركن القلاص ، فلا يسعى عليها ، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليَدْعَوُنَّ إلى المال فلا يقبله أحد »[3] وفي صحيح مسلم في كتاب الفتن عن النواس بن سمعان في حديثه الطويل الذي فيه ذكر الدجال ونزول عيسى ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وفي ختامه ذكر الرسول ﷺ دعاء عيسى ربه عندما يشتد عليهم الأمر ، فيستجيب الله ، ويهلك يأجوج ومأجوج ، ثم يقول : « ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض ، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم[4] ، ونتنهم ،فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل الله عليهم طيرا كأعناق البخت[5] ، فتحملهم ، فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل مطرا ، لا يُكَنُّ منه بيت مدر[6] ولا وبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة[7]، ثم يقال للأرض : أنبتي

---

(١) إنما تكون السجدة أحب إلى أحدهم من الدنيا لكثرة رغبتهم في الخير بسبب اليقين الذي يحل في قلوبهم لرؤيتهم عيسى ، وما قبله من الآيات ، وإيقانهم بقرب الساعة .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب نزول عيسى بن مريم ، فتح الباري : (٦/٤٦٠) ورواه البخاري في موضعين آخرين : الأول في كتاب المظالم ، باب كسر الصليب ، فتح الباري : (٥/١٢١) والثاني : في كتاب البيوع ، باب قتل الخنزير ، فتح الباري : (٤/٤١٤) . ورواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى ، (٤/١٣٥) ، ورقمه (١٥٥) .

(٣) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى ، (٤/٣٥) ، ورقمه (١٥٥) .

(٤) أي دسمهم .

(٥) البخت : الجمال الخراسانية ، أعناقها طويلة .

(٦) بيت المدر : الطين الصلب .

(٧) الزلقة : المرآة ، أي تكون الأرض في صفائها ونقائها كالمرآة .

ثمرتك ، وردي بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة[1] من الرمانة ، ويستظلون بقحفها ، ويبارك في الرسْل[2] ، حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس[3] ، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس ، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ[4] من الناس »[5] .

المطلب الخامس
ما يستخلص من النصوص الواردة في شأن عيسى

١ ــ أن عيسى عليه السلام نازل لا محالة في آخر الزمان والنصوص في ذلك متواترة عن الرسول ﷺ[6] ، فالتكذيب بنزوله تكذيب للرسول ﷺ في خبره ، وخبر الرسول ﷺ صدق لا كذب فيه ، وقد أشار القرآن الكريم إلى نزول عيسى ابن مريم في أكثر من موضع ، ومن ذلك قوله : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾[7] .

ولذلك فإن أبا هريرة لما أورد حديث نزول عيسى حكما عدلا . . .[8]

---

(١) العصابة : الجماعة .

(٢) الرسل : اللبن .

(٣) اللقحة : القريبة العهد بولادة وقيل : الناقة الحلوب . والفئام : الجماعة الكثيرة .

(٤) الفخذ : الجماعة من الأقارب ، وهم دون البطن ، والبطن دون القبيلة .

(٥) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٢٢٥٤/٤) ، ورقمة : (٢٩٣٧) .

(٦) وقد حمّل الرسول ﷺ الذين يدركون عيسى أن يبلغوه عنه السلام ، ففي سنن النسائي بإسناد صحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من أدرك منكم عيسى بن مريم ، فليقرئه مني السلام » .

(٧) سورة النساء : ١٥٩ .

(٨) والحديث في صحيح البخاري وصحيح مسلم كما سبق بيانه .

قال في آخره : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ **وإن من أهل الكتاب . .** ﴾ الآية[1] .

٢ ـ أن عيسى يأتي ليحكِّم شريعة القرآن :

وقد سبق أن بينا هذه المسألة ، والأدلة عليها .

٣ ـ أنه يقضي على جميع الأديان ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام :

ولذلك فإنه يكسر الصليب ، وهو رمز النصرانية المحرفة، ويقتل الخنزير الذي حرمه الإسلام ، ويضع الجزية ، فلا يقبل من اليهود والنصارى الجزية ، ولا يقبل منهم إلا الإسلام ، ففي حديث أبي هريرة عند أبي داود بإسناد صحيح يرفعه : « فيقاتل الناس على الإسلام ، فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام »[2] .

وعدم قبول الجزية لا يعد نسخا ، فإن الرسول ﷺ أخبر أن الجزية تقبل إلى أن ينزل عيسى ، وبعد ذلك لا تقبل ، يقول النووي : « (ويضع الجزية) : الصواب أنه لا يقبلها ، ولا يقبل من الكفار إلا الإسلام ، ومن بذل منهم الجزية لم يكف عنه بها ، بل لا يقبل إلا الإسلام ، أو القتل ، هكذا قال الإمام أبو سليمان الخطابي وغيره من العلماء . . . فعلى هذا قد يقال : هذا خلاف حكم الشرع اليوم ، فإن الكتابي إذا بذل الجزية وجب قبولها ، ولم يجز قتله ، ولا إكراهه على الإسلام ، وجوابه : أن هذا الحكم ليس بمستمر إلى يوم القيامة ، بل هو مقيد بما قبل عيسى ، عليه السلام ، وقد أخبرنا

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٥/٢٢٦) ، ورقمه : (٥٨٧٧) .
(٢) صحيح الجامع : (٥/٩٠) ، ورقمه : (٥٢٦٥) .

النبي ﷺ في هذه الأحاديث الصحيحة بنسخه ، وليس عيسى هو الناسخ ، بل نبينا ﷺ هو المبين للنسخ ، فإن عيسى يحكم بشرعنا »[1] .

٤ ـ عموم الرخاء ، وسيادة السلام والأمن في ذلك الزمان :

أخبرت النصوص التي سقناها عن تلك البركة العظيمة التي توجد في ذلك الوقت ، والأمن العظيم الذي يكرم الله به العباد في تلك الأيام ، وكيف ترفع الشحناء والتباغض بين الناس ، ويجتمع البشر على كلمة الله تبارك وتعالى ، ومن النصوص التي تحدثت عن هذا حديث أبي أمامة عند ابن ماجة ، وابن خزيمة ، والحاكم بإسناد صحيح ، قال : قال رسول الله ﷺ : « فيكون عيسى بن مريم في أمتي حكماً عدلا ، وإماما مقسطا ، يدق الصليب ، ويذبح الخنزير ، ويضع الجزية ، ويترك الصدقة ، فلا يسعى على شاة ولا بعير[2] ، وترفع الشحناء والتباغض ، وتنزع حُمَةُ كلِّ ذات حمة[3] ، حتى يدخل الوليد يده في الحيّة ، فلا تضره ، وتضرُّ الوليدة الأسد ، فلا يضرها ، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها ، وتملأ الأرض من السلم ، كما يملأ الإناء من الماء ، وتكون الكلمة واحدة ، فلا يعبد إلا الله ، وتضع الحرب أوزارها ، وتسلب قريش ملكها ، وتكون الأرض كفاثور الفضة ، تنبت نباتها بعهد آدم ، حتى يجتمع النفر على القطف من العنب ، فيشبعهم ، ويجتمع النفر على الرمانة ، فتشبعهم ، ويكون الثور بكذا وكذا من المال ، ويكون الفرس بدريهمات . . »[4] .

---

(١) شرح النووي على مسلم : (٢/١٩٠) .

(٢) أي لعدم الحاجة إلى السعي ، وطلب الرزق .

(٣) مثل سم الأفعى ، والعقرب .

(٤) صحيح الجامع الصغير : (٦/٢٧٦) ورقمه : (٧٧٥٢) .

المطلب السادس
طيب العيش بعد المسيح

إن الحالة التي وصفتها النصوص عن الحياة في تلك الفترة حالة فذة في تاريخ الإنسانية ، حيث يعيش الناس في خير وأمن وسلام ، وفي بحبوحة من العيش ، ولذلك فإنهم يغبطـون على ما يكونون فيه من نعيم ، وفي الحديث : « طوبى لعيش بعد المسيح ، يؤذن للسماء في القطر ، ويؤذن للأرض في النبات ، حتى لو بذرت حبك على الصفا لنبت ، وحتى يمر الرجل على الأسد فلا يضره ، ويطأ على الحيّة فلا تضره ، ولا تشاحَّ ، ولا تحاسدَ ، ولا تباغض »[1] .

المطلب السابع
بقاء عيسى في الأرض

مدة بقاء عيسى في الأرض أربعون عاما ، كما ثبت ذلك في حديث صحيح في سنن أبي داود عن أبي هريرة : « فيمكث في الأرض أربعين سنة ، ثمَّ يتوفى ، ويصلي عليه المسلمون »[2] .

وهو في ذلك مقيم لحكم الإسلام ، مصـلٍ إلى قبلة المسلمين ، وقد ذكرنا الأحاديث المفصحة عن صلاته وراء ذلك الرجل الصالح عند نزوله ، كما ثبت أنه يحج البيت العتيق ، ففي صحيح مسلم ومسند أحمد عن أبي هريرة ، قال : قال

---

(١) حديث صحيح ، رواه أبو بكر الأنباري ، والديلمي ، والضياء عن أبي هريرة ، سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٥٥٩) ، ورقمه : (١٩٢٦) .

(٢) صحيح الجامع : (٥/٩٠) ، ورقمه : (٥٢٦٥) .

رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، ليهلنَّ ابن مريم بفج الروحاء ،حاجاً ومعتمرا ، أو ليثنينهما »(١) .

والروحاء مكان بين المدينة ووادي الصفراء في طريق مكة على نحو أربعين ميلا من المدينة أو ستة وثلاثين أو ثلاثين(٢) .

المطلب الثامن
فضل الذين يصحبون عيسى عليه السلام

في مسند أحمد وسنن النسائي عن ثوبان ، عن النبي ﷺ ، قال : « عصابتان من أمتي أحرزهما الله من النار ، عصابة تغزو الهند ، وعصابة تكون مع عيسى بن مريم »(٣) .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٦/١٠٠) ، ورقمه (٦٩٥٥) .
(٢) لوامع الأنوار البهية : (٢/١١٣) .
(٣) صحيح الجامع : (٤/٣٥) ، ورقمه : (٣٩٠٠) .

المبحث الرابع

خروج يأجوج ومأجوج

ذكر الحق تبارك وتعالى في سورة الكهف أن ذا القرنين في تطوافه في الأرض بلغ بين السدين، فوجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا، فاشتكوا له من الضرر الذي يلحق بهم من يأجوج ومأجوج، وطلبوا منه أن يقيم بينهم وبينهم سدًا يمنع عنهم فسادهم، فاستجاب لطلبهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾ (1)

ويأجوج ومأجوج أمتان كثيرتا العدد، وهما من ذرية آدم عليه السلام ثبت في الصحيحين « أن الله تعالى يقول(2) : ياآدم ، فيقول لبيك وسعديك، فيقول: ابعث بعث النار، فيقول: وما بعث النار ؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنّة، فحينئذ يشيب الصغير،

---

(1) سورة الكهف : ٩٣ - ٩٩ .

(2) في يوم القيامة .

وتضع كل ذات حمل حملها ، فقال : إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه ، يأجوج ومأجوج » ، قال ابن كثير بعد سياقه لهذا الحديث : « وقد حكى النووي في شرح مسلم عن بعض الناس أن يأجوج ومأجوج قد خلقوا من مني خرج من آدم ، فاختلط بالتراب فخلقوا من ذلك ، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم وليسوا من حواء » وقد رد ابن كثير هذا القول وأنكره قائلا : « وهذا قول غريب جدا ، ثم لا دليل عليه لا من عقل ، ولا من نقل ، ولا يجوز الاعتماد ههنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب لما عندهم من الأحاديث المفتعلة »[١] .

وقد أخبر الحق تبارك وتعالى أن السدّ الذي أقامه ذو القرنين مانعهم من الخروج ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾[٢] ، وأخبر أن ذلك مستمر إلى آخر الزمان عندما يأتي وعد الله ، ويأذن لهم بالخروج ، وعند ذلك يدك السد ، ويخرجون على الناس ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾[٣]، وعند ذلك يخرجون أفواجا أفواجا كموج البحر، ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾[٤] وذلك قرب قيام القيامة والنفخ في الصور ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ۝ ﴾[٥] . وقد أخبر الحق في موضع آخر عن نقبهم السد وخروجهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا . . ﴾[٦] ، وهذا كائن في آخر الزمان ، وقوله : ﴿ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾[٧] ، أي يسرعون في الإفساد في الأرض ، والحدب هو المرتفع في الأرض ، وهذه صفتهم حال خروجهم .

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤/٤٢٣ .
(٢) سورة الكهف : ٩٧ .
(٣) سورة الكهف : ٩٨ .
(٤) سورة الكهف : ٩٩ .
(٥) سورة الكهف : ٩٩ .
(٦) سورة الأنبياء : ٩٦ - ٩٧ .
(٧) سورة الأنبياء : ٩٦ .

وقد أخبر الرسول ﷺ أنه فتح من ردم يأجوج ومأجوج في عصره فتحة صغيرة كالحلقة التي تكون من الإبهام والتي تليها ، ففي صحيح البخاري عن زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوما فزعا ، يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شرّ قد اقترب ، فتح من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق بأصبعيه : الإبهام والتي تليها ، قالت زينب : فقلت يا رسول الله ، أنهلك ، وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، إذا كثر الخبث »[1] .

وخروجهم يقع بعد نزول عيسى بن مريم وهزيمته للدجال ، ففي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان في حديثه الطويل ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ثم يأتي عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه (أي من الدجال) ، فيمسح عن وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنّة ، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى ، إني قد أخرجت عبادا لي ، لا يدان لأحد بقتالهم[2] ، فحرز عبادي إلى الطور[3] ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية[4] ، فيشربون مافيها ، ويمر آخرهم ، فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء ، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه ، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه ، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم[5] ، فيصبحون فرسى[6] كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض ، فلا يجدون في الأرض

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب يأجوج ومأجوج ، فتح الباري : (١٣/١٠٦) .

(٢) أي لا قدرة ولا طاقة .

(٣) أي اصعد بهم إلى الجبل ، كي يكونوا في حرز ومأمن .

(٤) هي بحيرة كبيرة في فلسطين ، ماؤها عذب .

(٥) دود يكون في أنوف الأبل والغنم ، وفي الأحاديث الأخرى دود كأمثال النغف .

(٦) جمع فريس ، كقتيل وقتلى وزنا ومعنى .

موضع شبر إلا ملأه زهمهم[1] ونتنهم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل طيرا كأعناق البخت[2] ، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطرا ، لايكن منه بيت مدر ولا وبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة »[3][4] .

وقال مسلم أيضا بعد سياقه للحديث السابق : حدثنا علي بن حُجْر السعدي ، حدثنا عبدالله بن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر ، والوليد بن مسلم ، قال ابنُ حُجر : دخل حديث أحدهما في حديث الآخر عن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر ، بهذا الإسناد (إسناد الحديث السابق) نحو ما ذكرنا ، وزاد بعد قوله : « لقد كان بهذه مرة ماء »، « ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخَمر[5] ، وهو جبل بيت المقدس ، فيقولون : لقد قتلنا من في الأرض ، هلمَّ فلنقتل من في السماء ، فيرمون بنشابهم[6] إلى السماء ، فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دما » .

وفي رواية ابن حجر : « فإني قد أنزلت عبادا لي ، لا يدي لأحد بقتالهم »[7] والسبب في أنه لايستطيع أحد الوقوف في وجههم لكثرتهم، يدلك على كثرتهم أن المسلمين يوقدون من أسلحتهم بعد هلاكهم سبع سنين ، ففي سنن الترمذي بإسناد مسلم في الرواية السابقة : « سيوقد المسلمون من قسي يأجوج ونشابهم

---

(١) دسمهم .
(٢) هي جمال طوال الأعناق .
(٣) المدر : الطين الصلب . والزلقة : المرآة .
(٤) صحيح مسلم ، كتاب الفتن : باب ذكر الدجال ، (٤/٢٢٥٤) ، ورقمة : (٢٩٣٧) .
(٥) الخمر : هو الشجر الكثير الملتف الذي يخمر من تحته ، أي يستره ، وقد فسر في الحديث أنه بيت المقدس لكثرة شجره .
(٦) النشاب : هي السهام .
(٧) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٤/٢٥٥٥) ، ورقمه (٢٩٣٧) .

وأسلحتهم وأترستهم سبع سنين » ، ورواه ابن ماجة في سننه[1] .

وهذه الأحاديث وأحاديث مشابهة كثيرة تدل على أن هذه الحضارة الهائلة التي اخترعت هذه القوة الهائلة من القنابل والصواريخ ستتلاشى وتزول ، وأغلب الظن أنها ستدمر نفسها بنفسها ، وأن البشرية ستعود مرة اخرى إلى القتال على الخيول واستعمال الرماح والقسي ونحو ذلك ، والله أعلم .

وفي السنن للترمذي وابن ماجة ، وصحيح ابن حبان ، ومستدرك الحاكم ، ومسند أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا فسنحفره غدا ، فيعيده الله أشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم ، وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا فسنحفره غدا إن شاء الله تعالى ، واستثنوا ، فيعودون إليه ، وهو كهيئته يوم تركوه ، فيحفرونه ، ويخرجون على الناس ، فينشفون الماء ، ويتحصن الناس منهم في حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء ، فترجع عليها الدم الذي اجفظ[2] ، فيقولون : قهرنا أهل الأرض ، وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله عليهم نغفا في أقفائهم[3] ، فيقتلون بها ، قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده إن دواب الأرض لتسمن ، وتشكر شكرا من لحومهم »[4] .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٥٧٩/٤) ، ورقمه : (١٩٤٠) .

(٢) اجفظّ : أي امتلأ ، أي ترجع ممتلئة دما .

(٣) المراد بأقفائهم أي في مؤخر رقابهم كما صرح به في الحديث الآخر الذي مرّ قبله .

(٤) وإسناده صحيح ، قال فيه الحاكم « صحيح على شرط الشيخين » ، ووافقه الذهبي ، وقال الألباني : وهو كما قالا ، سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣١٣/٤) ورقمه (١٧٣٥) .

وفي سنن ابن ماجة ، وصحيح ابن حبان ، ومستدرك الحاكم ، ومسند أحمد عن أبي سعيد الخدري ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يفتح يأجوج ومأجوج ، يخرجون على الناس كما قال الله عز وجل : ﴿ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾(1) ، فيغشون الأرض ، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ، ويضمون إليهم مواشيهم ، ويشربون مياه الأرض ، حتى أن بعضهم ليمر بالنهر ، فيشربون مافيه حتى يتركوه يبسا ، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر ، فيقول : قد كان هنا ماء مرة ، حتى إذا لم يبق من الناس إلا أحد في حصن أو مدينة ، قال قائلهم ، هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم ، بقي أهل السماء . قال : ثم يهز أحدهم حربته ، ثم يرمي بها إلى السماء ، فترجع مخضبة دما للبلاء والفتنة ، فبينما هم على ذلك ، إذ بعث الله دوداً في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقهم ، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس ، فيقول المسلمون : ألا رجل يشري نفسه ، فينظر ما فعل هذا العدو ، قال : فيتجرد منهم محتسبا لنفسه ، قد أظنها على أنه مقتول ، فينزل فيجدهم موتى ، بعضهم على بعض ، فينادي : يا معشر المسلمين : ألا أبشروا ، فإن الله قد كفاكم عدوكم ، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ، ويسرحون مواشيهم ، فما يكون لها رعى إلا لحومهم ، فتشكر عنه كأحسن ما تشكر عن شيء من النبات أصابته قط »(2) وهذه النصوص دالة على كثرة يأجوج ومأجوج بحيث لا يستطيع أحد أن يقف في وجوههم .

---

(1) سورة الأنبياء : ٩٦ .

(2) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤٠٢/٤) ، ورقم الحديث : (١٧٩٣) ، وقد ذكر الشيخ ناصر الدين أن الحاكم قال فيه : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، إلا أن الشيخ لم يرتض هذا ، لأن ابن إسحاق أحد رواة الحديث ، لم يخرج له مسلم إلا في المتابعات ، فالحديث حسن .

المبحث الخامس

دروس الإسلام ورفع القرآن وفناء الأخيار

بعد ذلك الانتشار العظيم للإسلام الذي يعم المشارق والمغارب ، يضعف الإسلام مرة أخرى ، ويترعرع الشرّ ، ويرفع هذا الدين العظيم ، ويرفع القرآن ، ويذهب العلم ، ويقبض الله من كان في نفسه بقية من إيمان ، فلا يبقى بعد ذلك إلّا شرار الخلق ، وعليهم تقوم الساعة .

أخرج ابن ماجة والحاكم عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : « يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب ، حتى لا يدرى ما صيام ، ولا صلاة ، ولانسك ، ولا صدقة ، وليسرى على كتاب الله في ليلة ، فلا يبقى في الأرض منه آية ، وتبقى طوائف من الناس : الشيخ الكبير والعجوز ، يقولون : أدركنا آباءنا على هذه الكلمة « لا إله إلا الله » فنحن نقولها »(١) .

وهذه البقية الباقية التي لا تعرف من الإسلام إلا كلمة التوحيد تفنى وتبيد ، ففي صحيح مسلم عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتقوم الساعة إلا على شرار الخلق »(٢) .

وفي حديث آخر بين لنا الرسول ﷺ كيف تذهب بقية الصالحين في آخر

---

(١) قال الحاكم فيه : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وقال البوصيري ، إسناده صحيح ، رجاله ثقات . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للشيخ ناصر الدين الألباني ، حديث رقم (٨٧) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب قرب الساعة ، (٤/٢٢٦٨) ، حديث رقم (٢٩٤٩) .

الزمان ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « إن الله يبعث ريحا من اليمن ، ألين من الحرير ، فلا تدع أحدا في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته » .

وفي رواية « مثقال ذرة »[1]

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى لايقال في الأرض : الله الله »[2] .

وفي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان يرفعه : « فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن ، وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر ، فعليهم تقوم الساعة »[3] .

وروى البخاري بإسناده إلى مرداس الأسلمي رضي الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ : « يذهب الصالحون الأول فالأول ، وتبقى حثالة كحثالة الشعير أو التمر ، لا يباليهم الله بالة »[4] .

ومن دروس الإسلام في تلك الأيام أن تنقطع عبادة الحج ، فلا حج ولا عمرة ، ففي مسند أبي يعلي ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن أبي سعيد رضي

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، حديث رقم (٧٩١٥) ، وانظر جامع الأصول : (٤١٠/١٠) .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، مشكاة المصابيح (٥٠/٣) حديث رقم (٥٥١٦) .

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، ورقم الحديث : (٢٩٣٧) . والمراد بتهارج الحمر ، أي يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير ، ولا يكترثون لذلك ، والمرج بإسكان الراء الجماع ، يقال هرج زوجته أي جامعها ، شرح النووي على مسلم (٧٠/١٨) ، أقول . وهذا حال الناس اليوم في كثير من المجتمعات الغربية ، يتهارجون تهارج الحمر في نواديهم التي تسمى نوادي العراة ، وعلى شواطيء البحار ، وفي الغابات والحدائق .

(٤) رواه البخاري ، انظر النهاية لابن كثير : (١٨٦/١) .

الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت »[1] ولا شك أن هذا إنما يكون بعد انبعاث الريح الطيبة وقبضها الصالحين ، أمّا قبل ذلك فإن عبادة البيت مستمرة ، ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج »[2] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٦/١٧٤) ، ورقمه : (٧٢٩٦) .

(٢) رواه البخاري ، انظر النهاية لابن كثير : (١/١٨٦) .

المبحث السادس

عودة البشرية إلى الجاهلية وعبادة الأوثان

فإذا درس الإسلام ، ورفع القرآن ، وقبضت الريح كل من في قلبه مثقال ذرة من إيمان ـ عادت البشرية إلى جاهليتها الأولى أو أشدّ ، فتطيع الشيطان ، وتعبد الأوثان .

وقد حدثنا الرسول ﷺ عما يكون بعد موت المسيح عليه السلام في آخر الزمان ، ففي حديث عبدالله بن عمرو عند مسلم : « ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو كان أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه ، حتى تقبضه ، قال : سمعتها من رسول الله ﷺ ، قال : « فيبقى شرار الناس في خفة الطير ، وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفا ، ولا ينكرون منكرا ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون : ما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم في ذلك دارة أرزاقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ في الصور . . . » الحديث[1] .

ومن الأوثان التي تعبد (ذو الخلصة) طاغية دوس واللات والعزىٰ ، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « لاتقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة » وذو الخلصة : الصنم الذي كانت

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب خروج الدجال ، (٤/٢٢٥٨) ، ورقمه (٢٩٤٠) .

تعبده دوس في الجاهلية(١) .

وفي صحيح مسلم عن عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى ، فقالت عائشة : يا رسول الله ، إنَّ كنت لأظنّ حين أنزل الله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾(٢) أن ذلك تامًا ، قال:إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ، ثم يبعث الله ريحا طيبة ، فتوفى كل من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، فيبقى من لا خير فيه ، فيرجعون إلى دين آبائهم »(٣) .

وفي هذا الزمن يتدنى المستوى الأخـلاقي تدنيـاً هائـلا ، فقد أخرج البزار في مسنده ، وابن حبان في صحيحه عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتقوم الساعة حتى يتسافدوا في الطريق تسافد الحمير ، قلت : إن ذلك لكائن ؟ قال : نعم ، ليكونن » وللحديث شاهد عند الحاكم من حديث أبي هريرة مرفوعا : « والذي نفسي بيده لا تفنى هذه الأمة حتى يقوم الرجل إلى المرأة فيفترشها في الطريق ، فيكون خيارهم يومئذٍ من يقول : هلاّ واريتها وراء هذا الحائط »(٤) .

---

(١) رواه البخاري ، في كتاب الفتن ، باب تغير الزمان حتى تعبد الأوثان ، فتح الباري : (١٣/ ٧٦) . ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب لاتقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة ، (٤/ ٢٢٣٠) ، ورقم الحديث : (٢٩٠٦) ، والسياق للبخاري ، والتعريف بذي الخلصة مثبت في الصحيحين .

(٢) سورة التوبة : ٣٣ .

(٣) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب لاتقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة ، (٤/ ٢٢٣٠) . ورقمه (٢٩٠٦) .

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة : ١/ ٢٤٥ .

وله شاهد آخر من حديث النواس بن سمعان في حديثه الطويل في الدجال ويأجوج ومأجوج ، وفي آخره : « فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة ، فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن ، وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس ، يتهارجون تهارج الحمر[1] ، فعليهم تقوم الساعة » رواه مسلم وأحمد والحاكم .

---

(١) أي يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما تفعل الحمير ، وبمعناه : (يتسافدون) .

المَبحَث السَّابع
هَدم الكعبة على يد ذي السويقتين

ولعل هذا الزمان هو الذي يهدم فيه ذو السويقتين الكعبة ، ففي الحديث الذي يرويه الإمام أحمد في مسنده من طرق عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يبايع لرجل مابين الركن والمقام ، ولن يستحل البيت إلا أهله ، فإذا استحلوه فلا يسأل عن هلكة العرب ، ثم تأتي الحبشة فيخربونه خرابا لا يعمر بعده أبدا ، وهم الذين يستخرجون كنزه »[1] .

وروى الإمام أحمد في المسند أيضا عن عبدالله بن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « يخرب الكعبة ذو السويقتين في الحبشة ، ويسلبها حليها ، ويجردها من كسوتها ، ولكأني أنظر إليه أصيلعا أفيدعا ، يضرب بمسحاته ومعوله »[2] .

وفي صحيح البخاري ومسند أحمد عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « كأني أنظر إليه أسود أفحج ، ينقضها حجرا حجرا ، يعني الكعبة »[3] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال : « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة »[4] . وإنما سمي ذوالسويقتين لصغر ساقيه ، فالسويقتان تصغير ساقي الإنسان لرقتهما وهي صفة سوق السودان غالبا .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (١/٢٤٥) .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/١١٩) . ورقم الحديث : ٥٧٩ .

(٣) قال ابن كثير في النهاية : (١/١٨٧) إسناده قوي .

(٤) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفتن : (٤/٢٢٣٢) ، حديث رقم (٢٩٠٩) : شرح النووي على مسلم : (١٨/٣٥) .

وقد يقال كيف يهدمها وقد جعل الله مكة حرما آمنا ؟ الجواب : أن معناه آمنا إلى قرب يوم القيامة وخراب الدنيا . **هكذا قال النووي** . وهذا **صحيح إذا** كان الهدم في هذا الوقت ، وإلا فإن الأمر حكم شرعي ألزم الله به عباده ، فإذا تمرد متمرد وانتهك حرمة الحرم فقد يمنعه الله كما فعل بأبرهة ، وقد لا يمنعه لحكمة يعلمها كما فعل القرامطة الذين اجتاحوا الحرم وفعلوا عنده الأفاعيل ، وكما سيفعل هذا الخبيث ذو السويقتين .

---

(١) المصدر السابق .

المبحث الثامن
طلوع الشمس من مغربها

من الآيات البينات الدالة على وقوع الساعة طلوع الشمس من مغربها ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعين ، فذاك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا »(١) .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، فتح الباري : (١١/٣٥٢) ، ورواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان الزمن الذي لا يقبل الله فيه الإيمان : (١/٣٧) ، ورقم الحديث : (١٥٧) .

المبحث التاسع

خروج الدابة

وهذه الدابة آية من آيات الله تخرج في آخر الزمان ، عندما يكثر الشر ، ويعم الفساد ، ويكون الخير قلة في ذلك الزمان ، وهذه الدابة هي التي ذكرها الحق في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾[1] .

ولا شك أن هذه الدابة مخالفة لمعهود البشر من الدواب ، ومن ذلك أنها تخاطب الناس وتكلمهم ، وقد ذكرنا جملة من الأحاديث التي عدَّ فيها الرسول ﷺ من أشراط الساعة العظام ـ خروج الدابّة .

وروى الإمام أحمد في مسنده ، والبخاري في الكبير ، والبغوي في «حديث علي بن الجعد » ، وأبو نعيم في أخبار أصبهان بإسناد صحيح عن أبي أمامة يرفعه إلى النبي ﷺ ، قال : « تخرج الدابة ، فتسم الناس على خراطيمهم ، ثم يعمرون فيكم حتى يشتري الرجل البعير ، فيقول : ممن اشتريته ؟ فيقول : اشتريته من أحد المخطمين »[2] .

---

(١) سورة النمل : ٨٢ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (١/٣١) ، ورقمه : (٣٢٢) .

المبحث العاشر

النار التي تحشر الناس

وآخر الآيات التي تكون قبل قيام الساعة نار تخرج من قعر عدن ، تحشر الناس إلى محشرهم . وقد سبق أن ذكرنا الأحاديث التي عدد فيها الرسول ﷺ أشراط الساعة ، وذكر أنها عشر ، قال : « وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم »(١) .

وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه أن عبدالله بن سلام بلغه مقدم النبي ﷺ المدينة (أي مهاجرا) فأتاه يسأله عن أشياء ، فقال : إني سائلك عن ثلاث : ما أول أشراط الساعة ؟ فقال الرسول ﷺ : « أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب »(٢) . وفي سنن الترمذي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ستخرج نار من حضرموت قبل القيامة تحشر الناس ، قالوا : يارسول الله فما تأمرنا ؟ قال : عليكم بالشام » ، وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح(٣) .

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن كيفية حشر النار للناس ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : « يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب الآيات التي تكون قبل الساعة ، (٢٢٢٥/٤) ورقمه (٢٩٠١) .

(٢) إن شئت أن تتطلع على بقية المسائل وإجابة الرسول ﷺ عليها فارجع إلى صحيح البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، فتح الباري : (٢٧٢/٧) .

(٣) جامع الأصول : (٣٦٨/١٠) ورقم الحديث (٧٨٨٨) ، وانظر صحيح الجامع الصغير (٢٠٣/٣) ورقم الحديث : (٣٦٠٣) .

راهبين ، وإثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، ويحشر بقيتهم النار ، تقيل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث باتوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا ، وتمسي معهم حيث أمسوا »(١) وروى أحمد في مسنده ، والترمذي في سننه ، والحاكم في مستدركه بإسناد صحيح عن معاوية بن حيدة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم تحشرون رجالا وركبانا ، وتجرون على وجوهكم ها هنا ، وأومأ بيده نحو الشام »(٢) .

وآخر من تحشرهم النار راعيان من مزينة ، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يتركون المدينة على خير ما كانت ، لا يغشاها إلا العوافي (يريد عوافي السباع والطير)، وآخر من يحشر راعيان من مزينة ، ينعقان بغنمها ، فيجدانها وحشا ، حتى إذا بلغاثنية الوداع خرّا على وجههما »(٣) . والأرض التي تحشر النار الناس إليها هي بلاد الشام ، ففي كتاب فضائل الشام للربعي عن أبي ذر بإسناد صحيح أن رسول الله ﷺ قال : « الشام أرض المحشر والمنشر » ورواه أحمد في مسنده وابن ماجة في سننه والربعي في فضائل الشام عن ميمونة بنت سعد(٤) .

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن هذا الحشر يكون في الآخرة ، وعزا القرطبي القول بذلك إلى الحليمي وأبي حامد الغزالي(٥) .

وذهب الخطابي والطيبي والقاضي عياض والقرطبي وابن كثير وابن حجر إلى

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب الحشر ، فتح الباري : (٣/٣٧٧) .
(٢) صحيح الجامع الصغير : (٢/٢٧٢) ورقمه : ٢٢٩٨ .
(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/٣٠٢) ، ورقمه : ٦٨٣ .
(٤) صحيح الجامع الصغير : (٣/٢٣٢) ، ورقمه : ٣٦٢٠ .
(٥) التذكرة للقرطبي : ص ١٩٨ - ١٩٩ ، فتح الباري : (١١/٣٧٩) .

أن هذا الحشر يكون في آخر عمر الدنيا ، حين تخرج النار من قعر عدن ، وتحشر الناس إلى بلاد الشام[1] .

يقول ابن كثير في هذه الأحاديث « فهذه السياقات تدل على أن هذا الحشر ، هو حشر الموجودين في آخر الدنيا ، من أقطار محلة الحشر ، وهي أرض الشام ، وأنهم يكونون على أصناف ثلاثة :

فقسم يحشرون طاعمين كاسين راكبين ، وقسم يمشون تارة ويركبون أخرى ، وهم يعتقبون على البعير الواحد ، كما تقدم في الصحيحين : « اثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وعشرة على بعير » ، يعني يعتقبونه من قلة الظهر ، كما تقدم ، كما جاء مفسرا في الحديث الآخر ، وتحشر بقيتهم النار ، وهي التي تخرج من قعر عدن ، فتحيط بالناس من ورائهم ، وتسوقهم من كل جانب ، إلى أرض المحشر ، ومن تخلف منهم أكلته .

وهذا كله مما يدل على أن هذا في آخر الدنيا ، حيث الأكل والشرب ، والركوب على الظهر المستوي وغيره ، وحيث يهلك المتخلفون منهم بالنار .

ولو كان هذا بعد نفخة البعث ، لم يبق موت ولا ظهر يسرى ، ولا أكل ولا شرب ، ولا لبس في العرصات . والعجب كل العجب أن الحافظ أبا بكر البيهقي بعد روايته لأكثر هذه الأحاديث ، حمل هذا الركوب على أنه يوم القيامة ، وصحح ذلك ، وضعف ما قلناه ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾[2] .

---

(١) فتح الباري : (١١/٣٨٩ - ٣٨٠) ، التذكرة : ص ٢٠٠ .

(٢) سورة مريم : ٨٥ .

وكيف يصحح ما ادعاه في تفسير الآية بالحديث ، وفيه : « إن منهم اثنين على بعير ، وعشرة على بعير » ، وقد جاء التصريح فيه بقلة الظهر ؟ هذا لا يلتئم مع هذا ، والله أعلم . تلك نجائب من الجنة يركبها المؤمنون من العرصات إلى الجنات ، على غير هذه الصفة ، كما سيأتي تقرير ذلك في موضعه »[1] .

---

(١) النهاية لابن كثير : (١/٢٥٩) .

المراجـــع
مرتبة حسب حروف المعجـــم

١ ـ أحكام الجنائز وبدعها ، للشيخ ناصر الدين الألباني ، نشره المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة الأولى . ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م .

٢ ـ إرواء الغليل ، للشيخ ناصر الدين الألباني ، نشره المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة الأولى . ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .

٣ ـ البداية والنهاية ، لابن كثير . طبعة مكتبة المعارف ـ بيروت . الطبعة الثانية . ١٩٧٧ .

٤ ـ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ، للقرطبي . طبعة المكتبة السلفية ـ المدينة المنورة .

٥ ـ تفسير ابن كثير . طبعة دار الأندلس ـ بيروت . الطبعة الأولى . ١٣٨٥ هـ ١٩٦٦ م .

٦ ـ تلخيص الحبير ، لابن حجر . طبعة شركة الطباعة الفنية المتحدة . القاهرة .

٧ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول ، لابن الأثير . تحقيق عبد القادر الأرناؤوط . نشر مكتبة الحلواني ومكتبة الملاح . الطبعة الأولى . ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م .

٨ ـ جامع العلوم والحكم ، لابن رجب . طبعة دار المعرفة ـ بيروت .

٩ ــ الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدى ـ لعبد المحسن ابن حمد العباد . الطبعة الأولى . مطابع دار الرشيد المدينة المنورة .
١٠ ــ الروح ، لابن القيم . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى : ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م .
١١ ــ الزهد والرقائق ، لابن المبارك . طبع مؤسسة الرسالة . بيروت .
١٢ ــ سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للشيخ ناصر الدين الألباني ، نشر المكتب الإسلامي ـ بيروت . الطبعة الأولى .
١٣ ــ سنن الترمذي . طبعة مصطفى البابي الحلبي ـ تحقيق أحمد محمد شاكر . الطبعة الأولى .
١٤ ــ سنن النسائي . طبعة دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة . الطبعة الأولى : ١٣٧٢ هـ ١٩٥٢ م .
١٥ ــ شرح العقيدة الطحاوية ، لمحمد بن محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي . نشر المكتب الإسلامي ـ بيروت . الطبعة الرابعة ـ ١٣٩١ هـ .
١٦ ــ شرح النووي على مسلم ، للنووي . طبعة المكتبة العصرية ـ القاهرة .
١٧ ــ صحيح البخاري . اعتمدنا على متن فتح الباري . الطبعة السلفية . القاهرة . الطبعة الأولى .
١٨ ــ صحيح الجامع الصغير ، للسيوطي . تحقيق محمد ناصر الدين الألباني . نشره المكتب الإسلامي ـ بيروت . الطبعة الأولى . ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م .
١٩ ــ صحيح مسلم . تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي . طبعة دار إحياء الكتب العربية ـ بيروت . الطبعة الثانية ـ ١٩٧٢ .
٢٠ ــ العقل والروح ، لابن تيمية . رسالة مطبوعة ضمن « مجموعة الرسائل المنيرية » .

٢١ ــ عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر ، لعبد المحسن بن حمد العباد . الطبعة الأولى . مطابع الرشيد ـ المدينة المنورة .

٢٢ ــ فتح الباري ، لابن حجر العسقلاني . طبعة المكتبة السلفية ـ القاهرة . الطبعة الأولى .

٢٣ ــ الكبائر ، للذهبي . طبعة المكتبة الثقافية ـ بيروت .

٢٤ ــ لسان العرب ، لابن منظور . ترتيب يوسف خياط ونديم مرعشلي . دار لسان العرب .

٢٥ ــ لوامع الأنوار البهية ، للسفاريني . طبعة دولة قطر . الطبعة الأولى .

٢٦ ــ مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية . جمع ابن قاسم . طبعة دولة المملكة العربية السعودية . الطبعة الأولى .

٢٧ ــ مختار الصحاح . طبعة دار المعارف ـ مصر .

٢٨ ــ مسند الإمام أحمد . طبعة المكتب الإسلامي ـ بيروت .

٢٩ ــ مشكاة المصابيح ، للخطيب التبريزي . طبعة المكتب الإسلامي ـ بدمشق . الطبعة الأولى : ١٣٨١ هـ ١٩٦١ م .

٣٠ ــ المقدمة ، لابن خلدون . الطبعة الثانية . طبعة مكتبة المدرسة ، ودار الكتاب اللبناني ـ بيروت : ١٩٧٩ .

٣١ ــ المنار المنيف في الصحيح والضعيف ، لابن القيم . طبعة مكتبة المطبوعات الإسلامية ـ حلب . الطبعة الأولى : ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م .

٣٢ ــ نهاية البداية والنهاية ، لابن كثير . نشر مكتبة النصر الحديثة ـ الرياض . الطبعة الأولى : ١٩٦٨ .

٣٣ ــ يقظة أولى الاعتبار مما ورد في ذكر النار وأصحاب النار ، لصديق حسن خان . طبعة دار الأنصار ـ القاهرة . الطبعة الأولى : ١٣٩٨ هـ ١٩٧٩ م .

٣٤ ـ اليوم الآخر في ظلال القرآن ، جمع وإعداد أحمد فائز ـ طبعة مؤسسة الرسالة ـ دمشق ـ الطبعة السابعة : ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٤ م .

الفهرس

الباب الأول القيامة الصغرى

الفصل الأول : تعريف وبيان

الفصل الثاني : الاحتضار

الفصل الخامس : الروح والنفس

الباب الثاني أشراط الساعة

الفصل الأول : وقت الساعة

الفصل الثاني علامات الساعة التي وقعت

الفصل الثالث

العلامات التي وقعت، وهي مستمرة، أو وقعت مرة ويمكن أن يتكرر وقوعها

الفصل الخامس : العلامات الكبرى

كتب مطبوعة للمؤلف

الكتاب	الطبعة
١ ــ العقيدة في الله	الطبعة الخامسة
٢ ــ عالم الملائكة الأبرار	الطبعة الرابعة
٣ ــ عالم الجن والشياطين	الطبعة الرابعة
٤ ــ معالم الشخصية الإسلامية	الطبعة الرابعة
٥ ــ الرسل والرسالات	الطبعة الرابعة
٦ ــ المرأة بين دعاة الإسلام وأدعياء التقدم	الطبعة الثالثة
٧ ــ الصوم في ضوء الكتاب والسنة	الطبعة الثالثة
٨ ــ أصل الاعتقاد	الطبعة الثالثة
٩ ــ مواقف ذات عبر	الطبعة الثانية
١٠ ــ مقاصد المكلفين « النيات في العبادات »	الطبعة الأولى
١١ ــ القياس بين مؤيديه ومعارضيه	الطبعة الأولى
١٢ ــ ثلاث شعائر	الطبعة الثالثة
١٣ ــ جولة في رياض العلماء وأحداث الحياة	الطبعة الثانية
١٤ ــ خصائص الشريعة الاسلامية	الطبعة الأولى
١٥ ــ تاريخ الفقه الإسلامي	الطبعة الأولى
١٦ ــ الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية	الطبعة الثانية
١٧ ــ نحو ثقافة إسلامية أصيلة	الطبعة الأولى
١٨ ــ سلسلة محاضرات إسلامية	الطبعة الأولى
١٩ ــ القيامة الصغرى وأشراط القيامة الكبرى	الطبعة الأولى
٢٠ ــ القيامة الكبرى	الطبعة الأولى
٢١ ــ الجنة والنار	الطبعة الأولى

رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية ـ عمان
١٩٩٠/١٠/٧٢٦

يُطلب هذا الكتاب في
المملكة العربية السعودية
من
دار الهجرة للنشر والتوزيع
ص.ب ٢٠٥٩٧ الثقبة: ٣١٩٥٢ الخبر
تلفون الخبر: ٨٩٨٣٠٠٤ تلفون الرياض: ٤٧٩٢٠٥٥

دار النفائس
هاتف ٦٩٣٩٤٠ ـ فاكس ٦٩٣٩٤١
ص.ب ٢١١٥١١ عمّان ١١١٢١ ـ الأردن